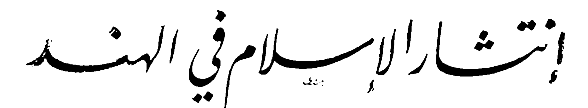
مسعود الندوي
معتمد دار العروبة للدعوة الاسلامية

تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند

نشر وتوزيع
دار العربية

الفصل الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

طلعت شمس الاسـلام من أفق تهامة ، وأضاءت بانوارها سهل الأرض وجبلها ، وامتدت أشعتها الى ما وراء بـلاد العرب شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، حتى استضاء بنورها أكثر بقاع الأرض .

وكل ذلك في أقـل من قرن ، بحيث لم يسبق له مثيل في تاريخ أديان العالم ، ولا يزال مؤرخو العالم يعضون بنان الكف من عجب وحيرة .

١ ـــ مـلوك المسلمين

وليعرف كل من اطلع على التاريخ أن بلادنا ـ الهنـد ـ أيضاً تنورت بنور الاسـلام في القرن الأول من الهجرة ، وتشرفت بأقدام المجاهدين الأولين (١) من العرب .

---

(١) أخذت العرب تشد الكرة على بلاد الهنـــد الساحلية في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فزحفوا أول مرة الي تانة (المرفأ الصغير الذي ترقى في ما بعـد ، واخذت موضعه مدينة عامرة تدعى اليوم بومبي) ثم نزلوا بعدها بروص (بهروج) من بلاد كجرات . وكان القرن قرن الصحابة ، فلا مرية في انه كان في هذه الجيوش عدد غيرقليل من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذا تعد الهند من جملة البلاد التي تشرفت بأقدام الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين .

ولكنهم لم يتغلغوا في أعماق البلاد ، وانما انحصر نفوذهم في مقاطعة السند وماجاورها من الاقطار . وكذلك البحارون من العرب الذين كانوا يمرون بشواطئها الغربية ، ويتاجرون مع أهلها من قبل بزوغ شمس الاسلام ، ماتوغلوا في قلب الديار الهندية ، فانحصرت [1] دائرة نفوذهم في مليبار ونواحيها من بلاد الشواطىء الغربية ، فما امتدت اشعة ذلك النور الوهاج الى داخل هذا القطر الا بعد ما امتلك ناصيته محمود الغزنوي (٣٨٨ – ٤٢١ هـ) وأخلافه .

فالذين دخلوا الهند من الملوك والفاتحين بطريق دره خيبر [2] ما كانوا يعرفون من مزايا الاسلام الا قليلاً ، وما اصطبغت قلوبهم بالصبغة الربانية ، مثل المجاهدين الفاتحين من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم .

ولذلك نراهم لم يؤثروا في عقائد البراهمة الراسخة تأثيراً ولم يحدثوا فيها تغييراً مدهشاً ، كما أحدث العرب في الشام ، وفلسطين ، ومصر ، والمغرب الأقصى وغيرها من البلدان التي بلغوا أهلها كلمة التوحيد ، وفتحوها ، ثم سكنوها وعمروها .

ومن ثم تجد اليوم مصر الناهضة حاملة بيدها لواء زعامة العالم

---

(١) من شاء ان يطلع على تفاصيل كيفية انتشار الاسلام في الهند فليراجع : –
(أ) عرب وهندكي تعليقات (بالأردية) للاستاذ المحقق العلامة السيد سليمان الندوي
(ب) حاضر مسلمي الهند وغابرهم لمسعود الندوي (غير مطبوع نشر منه جزء مهم في صحيفة الفتح : المجلد العاشر ؛ الاعداد ٤٥١ – ٤٦٠ ومابعدها .

(٢) الممر المشهور بين الجبال التي تحيط بالهند من جهة الشمال .

العربي دون الحجاز واليمن ، وكذلك نرى مسلمي مراكش والجزائر أعرق في العروبة ، وأفصح لسانا من عرب الجزيرة أنفسهم .

ومهما نتأسف فلن نأسف على شيء مثل أسفنا على أن بلادنا — ولاسيما القطر الشمالي منها — حرمت أقدام العرب المجاهدين الأولين ، واستولت عليها شعوب جفاة غلاظ ، ما كانت تعرف من الاسلام الا اسمه ، ولم يدخل الايمان في قلوبهم الا تحلة القسم . ومعظم هؤلاء الفاتحين مادانوا بالاسلام الا في القرن الثالث أو الرابع للهجرة ، حينما ظهرت أمارات الانحطاط في العواصم الاسلامية الكبرى ، واستبدت بأمرها أخلاط من أمم شتى لم يتغلغل الايمان في قلوبهم بعد .

فما كان يهمهم من الغزو والقتال الا توطيد دعائم ممالكهم ، ولو اعتنى هؤلاء الفاتحون من الترك ، والأفغان ، والمغول بدعوة الاسلام معشار مااعتنوا بحطام الدنيا الدنيئة لكان للاسلام شأن في بلاد البراهمة غير شأنه اليوم .

وهؤلاء العبيد من الترك الذين استبدوا بالأمر في بغداد ، وجعلوا خلفاء بني العباس ألعوبة بأيديهم ، لم يكن لهم علم بقوانين الاسلام الحربية ؛ فاذا فتحوا قطراً قلما عاملوا أهله بمثل ما عاملهم به عمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، رضي الله عنهم ، ومن حذا حذوهم زمن الخلافة الراشدة . وكيف يرجى من الجنود الذين مارافقوا الفاتحين الا طمعاً في الغنائم أن لا ينسوا واجب الدعوة الاسلامية ، ويدعوا الناس الى الاعتصام بكتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ ، وتسيير دفة الحكومة على منهاج الراشدين المهديين .

وأول من دخل الهند من الفاتحين بطريق الجبال الشمالية الغربية محمود الغزنوي (٣٨٨–٤٢١هـ) صاحب الحملات المتتابعة المشهورة، وكانت جيوشه المتطوعة ممن دانوا بالاسلام حديثاً، ولم يُعن بتربيتهم وتدريبهم على المنهاج الذي يدعو اليه الاسلام، وفيهم من الهنادك والوثنيين عدد لا يستهان به [1].

فأي عجب اذا تنكبت جيوش محمود الغزنوي عن خطة الجهاد الاسلامي ولم يتوخوا في ممتلكاتهم ورعاياهم العمل بالشرع الاسلامي، وقوانين الاسلام الحربية.

والذين خلفوا الغزنيين، وجاؤوا من بعدهم فاتحين، وتبوؤا منصة الحكومة هم الغوريون الذين ما أسلموا الا في القرن الرابع للهجرة.

أما المغول الذين كانت لهم صولة ومنعة في البلاد في القرون الأخيرة، فكان عدادهم في الكفار الى زمن علاء الدين الخلجي (٦٩٥ – ٧١٦ هـ) ولذا نرى بعض هؤلاء الفاتحين والملوك يفرضون الجزية على الأهالي في جانب آخر. والعجب كل العجب أن بعض هؤلاء الفاتحين لم يفرقوا في القتل وسفك دماء الابرياء بين الهنادك والمسلمين كما تعرف من خبر تيمور (ت ٨٠٧ ١٤٠٤) ونادر (١١٦٠ / ١٧٤٧) وما يوم حليمة بسر.

وذكر ابن بطوطة أن الاتراك المجاورين لمدينة هرات (من مدن افغانستان) يسبون المسلمات أيضاً.

---

(١) ابن الاثير: ٩/١٣٥. طبع ليدن.

وهؤلاء الأتراك أهل نجدة وبأس ، ولا يزالون يضربون على بلاد الهند ، فيسبون ويقتلون ، وربما سبوا بعض المسلمات اللاتي يكن بأرض الهند مابين الكفار [1] .

فأين هؤلاء من مجاهدي العرب الذين قاتلوا في سبيل الله فاخترقوا جدران آسيا وافريقيا في ناحية ، وفي ناحية أخرى نرى قوادهم يتقدمون الى الشرق ، فيفتحون خراسان ، وتركستان ، ويزحفون الى السند فيمتلكون ناصية الأمر فيها . وكل ذلك في أقل من مائة سنة ، نعم انهم فتحوا الممالك ، ودوخوا الأمصار ، لكنهم لم ينكثوا عهداً ، ولم يهدموا معبداً ولم يغدروا بأحد ، وفوق ذلك انهم لم ينسوا أنهم دعاة الاسلام أولاً ومساعير الحروب ، وأبطال الوغى ثانياً ، وأن همهم الوحيد اعلاء كلمة الله وبث دعوة الاسلام .

فما زالوا مستمسكين بعروة الاسلام الوثقى عاضين عليها بالنواجذ وقافين عند حدود الله . فلا تجد قوادهم وأمراءهم عدلوا عن خطة الاسلام وحكموا بشيء لايستند الى قواعد الشرع . وكيف لا ؟ وقد كان في جنود المجاهدين الاولين من العرب ، رجال تشرفوا بصحبة النبي ﷺ وبايعوه على السمع والطاعة . وأما الذين تمتعوا بصحبة أصحاب النبي ﷺ وحظوا بالحضور في مجالسهم وحلقات دروسهم فلا يحصيهم عدد ،

واذا عرفت هذا ، فلا يأخذنك العجب اذا قلت : ان هؤلاء

---

(١) رحلة ابن بطوطة : ٣،١٧ . طبع باريس .

الملوك الذين نشروا ظل سلطانهم على هذه البلاد وبقوا مالكين لأزمة الأمر فيها زهاء ثمانية قرون لم ينفعوا الدعوة الاسلامية في قليل ولا كثير .

والذين أسلموا من سكان البلاد ودخلوا في دين الله من تلقاء أنفسهم أو بجهود الصوفية والوعاظ ، لم تعن الحكومات المسلمة بتعليمهم وتثقيفهم ، فكانت النتيجة أن الآلاف المؤلفة من الذين أسلموا ماانفكوا عاكفين على شعائرهم الدينية القديمة ، متمسكين في ظلام الشرك والوثنية غير متزحزحين عما كانوا عليه في جاهليتهم .

ومن ههنا يتبين لك صدق من (١) قال : أنه ما اضطرمت نيران حرب عامة في بلاد الهند طول هذه القرون الا وكان في الجانبين لفيف من المسلمين والهنادك ولم تقع فيها ولا معركة واحدة أثارت غبارها فكرة دينية خالصة واصطف فيها المسلمون والهنادك اصطفافا ما انضوى فيه مسلم تحت لواء الهنادك ولا انضم هندكي الى صفوف المسلمين .

وذلك أن الحروب التي أشعلوا لظاها واصطلوا بنارها ، لم تكن حرباً دينية يقاتل فيها المسلمون الهنادك والوثنيين لاعلاء كلمة الله .

وانما كانت حروبا شخصية أو قومية أوقدوا نيرانها لتوطيد دعائم مملكتهم أو ارضاء شهواتهم الذاتية ، فانحاز كل من الفريقين - المسلمون والهنادك - الى حلفائهم وانضووا الى كنف من يأخذ بيدهم وينصرهم اذا أصابتهم مصيبة في امارتهم وسلطتهم ، لا فرق في ذلك بين مسلم

(١) Cawnpore Committee Report

وهندكي ولذلك تراهم يقاتل بعضهم بعضا ويجعلون بأسهم فيما بينهم . وبلغت ببعضهم الحمية الجاهلية الى أنهم لما استيأسوا من الظفر في معركة بهتنير (Bhotnir) قتلوا نساءهم وذبحوا أولادهم بأيديهم ثم برزوا الى ميدان القتال يناجزون اخوانهم في الدين حبل الحرب حتى قتلوا عن آخرهم ، شأن أبناء وطنهم الشجعان من عشائر راجپوت (Rajput) [1] في مثل هذه المواقف .

٢ ـــ غربة الاسلام

قد عرفت آنفاً أن الهند العزيزة ماتشرفت باقدام المجاهدين الأولين من العرب الا قليلا واستولت عليها رجال من شعوب وأمم شتى ، حديثة العهد بالاسلام لم يتسن لهم أن يرتووا من مناهله العذبة الصافية ، فلا بدع اذا لم يؤثروا في عقائد البراهمة تأثيراً ملموساً .

أضف الى ذلك أن البلاد الساحلية من أعمال كجرات والسند أصبحت فيما بعد مزبلة للأفكار والعقائد المنحولة على الدين المبين ، يؤمها المبتدعون ، من دار الاسلام ، المارقون من الدين ، الذين ضاقت عليهم أوطانهم بما كانوا يدينون به من العقائد الباطلة والأوهام الكاذبة .

---

(١) قبيلة من قبائل الهند المعروفة ببسالة اهلها وشجاعتهم . وكان من دأبهم في ما مضى انهم كلما استيأسوا من الظفر والغلبة في الحرب ، قتلوا نساءهم واولادهم ثم خرجوا الى الميدان يرخصون انفسهم ويقتحمون المعارك اقتحاماً حتى يقتلوا عن آخرهم .

(٢) Studies in Indian History by S.N. Sen. P. 119

والذي تجده الآن في تلك البقاع من الفرق والطوائف الضالة المضلة ـ من الاسماعيلية وأذنابها المتشعبة ـ إن هي الا بقايا أولئك البغاة الذين خرجوا على النظم الاسلامية أو أرادوا أن يأتوا على بنيان الاسلام من قواعده فالتجأوا الى بلدان الهند الساحلية وألقوا عصاهم بها ، بعد ما طردوا من مراكز الثقافة الاسلامية أو خافوا على أنفسهم من البقاء على مقربة من العواصم المعمورة ببلاد الاسلام(١) .

وللمنهاج التعليمي الذي جرى العمل به في عصر الحكومات المسلمة الهندية يد عظيمة في بقاء الآلاف المؤلفة من المسلمين الجدد على عقائدهم الباطلة وعاداتهم الممتزجة بخرافات الوثنية . فانهم لم يعيروا التعليم الديني حقه من العناية ولم يهتموا أصلاً بتثقيف الناشئة المسلمة تثقيفاً دينياً . وانما أرادوا أن يعدوا من الأهالي طبقة خاصة تشغل وظائف هامة في دواوين الحكومة وتكون لهم عوناً في تسيير دفة الأمر بسهولة وانتظام . وقد نجحوا في ذلك حيث نشأت طبقة خاصة من الأهالي خدمت الحكومة واصطبغت بصبغتها حتى ترقت الى مناصب عالية في الحكومة . ومثلهم في ذلك كمثل الطبقات المتعلمة الجديدة في دواوين الحكومة الانكليزية أمام أعيننا بالأمس .

لكن هذا النجاح الملموس المشاهد عقبه خسران عظيم وصفقة موبقة . الا وهو عدم الاهتمام بالدين ونشر محاسنه وبث مزاياه بين الملايين من الوثنيين المنتشرين في طول البلاد وعرضها .

---

(١) اي العواصم الاسلامية المعمورة كدمشق وبغداد ومايتبعها من بلاد المسلمين

فأنت ترى أن الهند العزيزة قد اصيبت بهؤلاء الملوك الذين لم تكن في قلوبهم - الا من رحم ربك - جذوة حب الدين المبين .

وفيهم من لا يعرف من الاسلام الا اسمه . ومعظمهم لا يعرفون لغة القرآن الكريم وسنة نبيه . فأصبحت الفارسية لغة الحكومة الرسمية.

وامتزج دين التوحيد الخالص بالعقائد الوثنية وأوهام المتصوفة البراهمة وانحصر الدين في كتب الفقه ألفها المتأخرون من الفقهاء . فأي عجب اذا مسخ دين الله مسخاً في بلاد البراهمة وحامت حوله أوهام وأقاويل لا أصل لها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ . وبلغ من تغلغل تلك العقائد الباطلة في نفوسهم وامتزاجها بلحومهم ودمائهم أن جعلوا يتعصبون لها ويدافعون عنها دفاع من يذب عن حمى الاسلام وشعائره. وما كانوا يشعرون ان هذا الدفاع الباطل لا يزيد الباطل الا قوة ورسوخا في قلوب العامة .

وقد بلغوا من تمسكهم بعقائدهم الممزوجة بخرافات الوثنية وايمانهم بها أن رثى لهم العدو الشامت وبكى للاسلام من لا يبكي الا اذا استيقن ان المنتمين اليه قد وصلوا من الانحطاط والتقهقر بمكان لا يرجى بعده النهوض والعود الى سيرتهم السالفة من المجد والسؤود .

واليك ماقال بهذا الصدد الدكتور غوستاف لوبون - العالم الفرنسي الشهير - : « ويظهر للباحث عند دراسة الاسلام في الهند أن هذا الدين قد مسخ مسخاً وشوه تشويهاً (١) »

---

(١) حضارة الهند (الترجمة الاردية) ص : ٣١٠

« وان أحدث دين محمد ﷺ في ديانات الهند تغييراً او انقلابا فقد لحقه مثل ذلك أو أكثر منه » (ص : ٧٥٥) .

وجملة القول أن دين الاسلام لم يؤثر في أديان البراهمة ، كما تأثر هو نفسه بعقائدهم وشعائرهم الدينية . والا ، فمما لا يختلف فيه اثنان ان للأسلام يداً بيضاء على الهند ودياناتها المختلفة ، واليه يرجع الفضل الأكبر في تطهيرها من العقائد الوثنية الشنيعة .

والذي يؤلمنا من تاريخ الاسلام في هذه البلاد ، انما هو ضآلة نفوذه وعدم تغلغله في أفكار الأهالي وقلة أثره في حياتهم الاجتماعية .



الفصل الثاني

قبل القرن العاشر


بسم الله الرحمن الرحيم

دخل الاسلام الهند من طريق الشمال الغربي في أواخر القرن الرابع وبدء القرن الخامس للهجرة كما سبق آنفاً . ثم تتابعت الحملات وجعل الدعاة والوعاظ والصوفية يردون البلاد وينبثون في كل صقع منها ، حتي استأنس الاهالي بدعوتهم وأخلاقهم وأخذوا ينضوون الى كنف الدين المبين يلتجئون الى حظيرته القدسية .

لكن معظم هؤلاء الوعاظ لم يكن لهم نصيب من علم الكتاب والسنة . والعلماء منهم أيضاً كانوا مقتصرين على كتب فقه لاتروي الغليل ولا تشفي العليل . أما المتصوفة فحدث عن انصرافهم عن السنة وتهافتهم على مزاعمهم الباطلة ولا حرج .

فاذا رجعت ببصرك اليوم الى ماقبل القرن العاشر للهجرة وتأملت في ما كان عليه المسلمون يومئذ ، وجدت عقائدهم مختلطة بأوهام المتصوفة عن وحدة الوجود(١) والحلول والبروزوالاعمال مدنسة بأنواع

---

(١) مامن أمة من أمم الارض الا وكان فيها أثر لعقيدة وحدة الوجود بنوع من انواعها . وكان يقول بها بعض فلاسفة اليونان ايضاً . وكذلك اليهود والنصارى ، وعليها مدار تصوف (Vedant) البراهمة وفلسفتهم . وراحت هذه العقيدة في الصوفية المسلمين ايضاً ، حتى ان بعض انواعها اصبح أشبه شيء بالحلول . وليس عندنا دليل على ان ويدانت (Vedant) البراهمة ترجمت الى العربية . والحال ان هذه

من الشرك ، ودور التعليم خالية من الكتات والسنة والبلاد خلو من العلماء الربانيين ، الداعين الى الاعتصام بالكتاب والسنة .

أما العقائد الوثنية والاعمال البدعية فانما يرجع سببها الى جهـــل الناس بالكتاب العزيز والسنة النبوية . لأن الكتاب الذي جاء به النبي العربي ﷺ لهداية البشر كافة ، قد نبذه أتباعه وراء ظهورهم وجعلوه زينة لصناديقهم وخزائنهم . وكذلك السنة فلم يسمع صوت (أخبرنا) و(حدثنا) في أرجاء الهند الى قرون عديدة الا تحلة للقسم أوردا للعين الحاسدة وكان جل هم العلماء منحصراً في الفقه والاصول . وقد دب في عقولهم داء التقليد الجامد ، دبيب الديدان في صفحات الكتب ، فاعتقدوا كتب المتأخرين من الفقهاء واتخذوها أصل الدين وملاكه دون الكتاب والسنة .

ولك أن تقدر عدم اعتنائهم بالسنة بما جرى من المجادلة بين العلماء والشيخ نظام الدين ، أحد كبار الصوفية في الهند (ت سنة ٧٢٥ هـ) في

العقيدة أخذت من قلوب المسلمين مأخذاً في أواخر القرن الثالث للهجرة (أي زمن حسين بن منصور الحلاج المتوفي سنة ٣٠٩ هـ) وبلغت أوج كمالها في مؤلفات محي الدين ابن عربي الشيخ الاكبر (ت سنة ٦٣٨ هـ) . وهو اول من تحمس في الدعوة اليها وكان اندلسياً . فالغالب انه تأثر بفلسفة الاسكندرانيين . وكذلك مما لامرد له ان الصوفية المسلمين قد تأثروا بـ ويدانت البراهمة ، بعدما دخلوا الهند واقاموا بها . واول من رد على القائلين بوحدة الوجود ، ونقض آرائهم نقضا الامام ابن تيمية الحراني (ت ٧٢٨ هـ) . لكن هذه العقيدة نمت وازدهرت بعد وفاة ابن تيمية بقرون ، فرد عليهم الشيخ احمد السرهندي (ت سنة ١٠٣٤ هـ) من جديـــد ، فأفحم القائلين بها افحاماً .

مسألة السماع ، وقد عقدوا مجلساً خاصاً لتحقيق هذه المسألة .

ولما عرض عليهم الشيخ حديثاً مستدلا به على شيء مما ادعى . قالوا « لانسلم بهذا الحديث فانه حديث استدل به الشافعي وهو عدو مذهبنا » . وفيه كفاية للدلالة على عدم اكتراثهم للحديث في ذلك العهد وهاك الحديث الذي استدلوا به في هذه المناظرة ليقف القارىء على مبلغ علمهم بالحديث .

ذكر المؤرخ (فرشته) :

« التفت القاضي ركن الدين الى الشيخ وقال « مادليلك على جواز السماع والغناء ؟ » فاستدل الشيخ بما روي عن النبي ﷺ انه قال « السماع(١) مباح لأهله » فأجاب القاضي « مالك والحديث » ؟ أنت رجل مقلد ، تقتدي بأبي حنيفة فأت بقول من أقواله حتى نراه « فقال الشيخ سبحان الله العظيم ، أنا أحدثكم عن رسول الله ﷺ وتطالبني بقول من أقوال أبي حنيفة ؟ »

واليك قصة ،بل فاجعة، أخرى حدثت في زمن السلطان علاء الدين الخلجي (٦٩٥ - ٧١٦ هـ) لتعرف ما كان عليه عامة ملوك المسلمين في الهند من قلة اعتنائهم بالدين وانغماسهم في شهواتهم : وفد على الهند محدث كبير من مصر - شمس الدين الترك - رغبة في نشر علم الحديث وبث

---

(١)هذا قول من اقوال الغزالي جاء في كتابه احياء علوم الدين ، كالفتوى . ولعل المؤرخ (فرشته) قد اخطأ حيث عده حديثاً . وقد التبس الامر على حضرة المستدل نفسه .

(٢) مقالة علم الحديث في الهند للاستاذ المحقق السيد سليمان الندوي (الضياء : ٣، ٤)

معارف السنة فيها . ولذلك حمل معه أربع مائة مجلد من كتب الحديث وما يتعلق به .

وكان من نيته أن يكتب شرحاً جامعاً لكتب الحديث ويقدمه الى سدة الملك .

ولكنه لما وصل الى ملتان وعلم ان السلطان لايحافظ [1] على الصلوات الخمس ولا يصلي الجمعة مع الجماعة سخط عليه ورجع أدراجه .

هذا الذي سردناه عليك من عدم اهتمام علماء الهند بالحديث والسنة النبوية واقتصارهم على كتب الفقه والاصول، يصدق على شمالي الهند عامة فمما لامجال فيه للشك أنه مانفقت سوق الحديث في القطر الشمالي من بلاد الهند الا بعد نبوغ الشيخ عبد الحق الدهلوي (٩٥٨ – ١٠٥٣ ﻫ) بل الامام ولي الله الدهلوى (١١١٤ – ١١٧٦ ﻫ) وأنجاله الغر وتلاميذه الميامين النجباء . وكذلك مما لايختلف فيه اثنان أنه مانبغ في من جاءوا الهند بطريق ممر خيبر من العلماء رجل عالم بالسنة عارف بأسرارها ،

---

(١) قد ذكر البرني في تاريخه عن علاء الدين الخلجي هذا ، انه كان يعاقب المجرمين عقابا شديداً وما كان يبالي بقوانين الشرع في هذا الشأن . ولما اخبره القاضي مغيث الدين بفداحة العقوبات وانذره باعتدائه على حدود الله ومخالفته لأوامر الشرع ،اجابه قائلا « الناس لا يطيعون اوامري ولا يحتفلون بها ، فأضطر الى هذا العقاب الاليم . ولا اعرف أهو يوافق مقتضى الشرع ام لا ؟ وانما آمر بما يظهر لي وبما ارى فيه صلاح بلادي (البرني : تاريخ فيروز شاهي :ص٢٩٦) او بعد ذلك يقول علماء السوء ان ملوك الهند المسلمين كانوا ظل الله في الارض وكانت ممالكهم حكومات اسلامية ؟

مطلع على دقائقها ، قبل حسن بن محمد الصغاني[1] (٥٧٧ – ٦٥٠ هـ) صاحب مشارق الأنوار .

وزد على ذلك أنه حينما كانت بلاد كجرات وماجاورها من المدن الساحلية ترتج بأصوات (حدثنا) و(أخبرنا) ، (في القرنين التاسع والعاشر للهجرة) لم تكن بلادنا الشمالية – التي كانت تدين لملوك دهلي المسلمين وتأتمر بأمرهم – اذ ذاك الا غارقة في بحر لجي من الظلمات ، ظلمات علوم اليونان وأباطيلها حتى نبغ الشيخ[2] علي المتقي (٨٨٥ – ٩٧٥ هـ) صاحب كنز العمال فأشعل سراج السنة النبوية وأزاح بعض ما كان غشيها من دياجير خزعبلات اليونان وخرافاتهم .

ولا أقول – وحاشاني أن أقول – أنه مانفقت[3] سوق الحديث

---

(١) حسن بن محمد الصغاني ، ولد سنة ٥٧٧ هـ في بلدة لاهور واخذ العلم عن والده ثم ارتحل الى اليمن والحجاز والعراق واقام فيها مدة . وصنف في بغداد كتابه الشهير مشارق الانوار برسم الخليفة المستنصر بالله العباسي . توفي سنة ٦٥٠ هـ .

(٢) ولد الشيخ المتقي في برهان پور من بلاد دكن في جنوبي الهند ، وكان أصله من جون پور في قلب الهند . تعلم في الهند وتخرج على مشايخها ثم سافر الى بلاد العرب وقد بلغ من العمر سبعا وستين سنة . وتتلمذ على الشيخ ابن حجر المكي (ت سنة ٩٧٤ هـ .) حتى برع في علوم الحديث وفاق افرانه واشتغل بعد ذلك زمناً طويلاً بتأليف كتابه كنز العمال في سنن الاقوال والاعمال . توفي سنة ٩٧٥ هـ ، وقد جاوز العقد التاسع من عمره .

(٣) انتشرت السنة في الهند بين آونة وأخرى ، وسافر العلماء الى الحرمين الشريفين لارتياد العلم في مختلف القرون . لكنهم كانوا أفراداً قلائل يعدون على الأنامل ، ولايمكن الحكم على أن الرجوع الى كتاب الله وسنة نبيه والعلم بالحديث كان عاماً في هذه البلاد قبل الشيخ عبد الحق الدهلوي بل الامام ولي الله الدهلوي .

في الهند ولم يرتفع له فيها كلمة أصلًا . وانما أقول أنه مازالت راية السنة النبوية في بلادنا منتكسة ومابرحت اعلامها غير خافقة الى ان ظهر الشيخ عبد الحق الدهلوي (٩٥٨-١٠٥٣ هـ) في أواخر القرن العاشر للهجرة ومن جاء من بعده من تلاميذه . ولا استثني منها الا بلاد السند وكجرات والمدن الساحلية الاخرى(١). والظاهر أن وصمة العار الذي لحق بلادنا الشمالية من عدم احتفال علمائها بالسنة النبوية وتزاحمهم على خزعبلات علوم اليونان وأباطيلها وانخداعهم بمظاهر التصوف الباطل الممقوت لايمكن أن ينمحي أثرها بعالمين اثنين ــ الصغاني (ت ٦٥٠هـ) وعلى المتقي (ت ٩٧٥) قد نبغا من أهلها في ثلاثة قرون. وقد بلغ من عدم اعتناء ملوك دهلي وحاشيتهم بعلوم الكتاب والسنة ان بلاد كجرات أيضاً لم ترتفع فيها كلمة السنة ولم يعل شأنها الا بعد ما انفصلت عن حكومة دهلي المركزية وخرجت عليها (٧٩٩ - ٩٨٠ هـ) وما ان ألحقها الملك أكبر (٩٦٤ - ١٠١٤ هـ) بالحكومة المركزية حتى انطفأ فيها سراج السنة والعمل بالحديث وعادت الى ما كانت عليه سائر البلاد الهندية من الجهل بالسنة والتنكب عن صراطها السوي .

(١) أما الافراد الشواذ الذين اعتنوا بالسنة قبل القرن العاشر للهجرة والذين نبغوا من أهل الحديث في السند وكجرات في أول عهدهما بالاسلام وصلتها بالعرب ، فلا يسمح لنا نطاق المقام بالتوسع في ذكرهم . ولك أن تجد شيئاً من أخبارهم في مقالة علم الحديث في الهند للاستاذ العلامة السيد سليمان الندوي ــ حفظه الله وأبقاه (مجلة الضياء : ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧)

فلاشك عندنا في صحة ماقاله بعض رجال (١) الهند العبقريين : —

« لم تكن في الهند الا فتنة التصوف الباطل ولم تخل قرية أو مدينة من الزوايا ... ولم يكن الشيخ عبد الحق الدهلوي وعلماء (٢) كجرات والمدن الساحلية الاخرى كالشيخ علي المتقي وبعض تلامذة المحدث السخاوي (ت سنة ٩٠٣ هـ) الا شواذاً و كذلك ليس عندنا أدنى شك في أن علم الحديث لم ينتشر في الهند الا بعدما ظهر الشيخ عبد الحق الدهلوي وخلفه بعد فترة الشـاه ولي الله الدهلوي وأنجاله الكرام ، فاستضاءت البلاد الهندية بالكتاب والسنة نورا وتضوعت بهما عبقاً وأريجا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

والسبب الوحيد — كما قلت في ماتقدم — لهذا الانحطـاط الديني الذي أحاط الهند بسرادقه في القرون الماضية ولانزال نشاهد أثره الى اليوم هو عدم اعتنـاء القوم بالكتاب الكريم والسـنة النبوية واكبابهم على التصوف الباطل والتقليد الجامد تارة وتهـافتهم على خرافات اليونان وخزعبلاتها أخرى وانحرافهم عن اللغة العربية وزعمهم بأن معرفتهم

---

(١) أبو الكلام آزاد في تذكرته (ص ٣٧٧) وكذلك قال في موضع آخر من كتابه هذا : « ومن أكبر البليات في الهند أن العامة والخاصة كلهم كانوا مصطبغين بصبغة التصوف ، حتى بلغ بهم الامر الى أنهم ما كانوا يقبلون شيئاً الا اذا كان مسبوكا في قالبه .

ولكن الاسف ان عين التصوف كانت قد كدرت بأوساخ البدعة والجهل ... (ص ٢٤٢) .

(٢) ذكر العيدروسي صاحب النور السافر أسماء جماعة من علمـاء العرب ممن وردوا بلاد كجرات في القرن العاشر واستوطنوها وأفادوا أهلها .

الضئيلة بلغة القرآن تكفيهم [1] للارتشاف من مناهل الكتاب العزيز والسنة النبوية .

٣ — بعض المصلحين قبل القرن العاشر للهجرة

هذا غيض من فيض ووشل من بحر . ولو ذهبنا نصف مانزل بالاسلام وأهله من الدواهي في هذه الديار قبل القرن العاشر للهجرة ، لاستغرق مجلدات وأسفاراً وانما أردنا أن نوميء اليها ايماء ليكون القاريء العربي على بصيرة من الامر . وكذا يجمل بنا الآن أن لانبخل بذكر الملوك والعلماء الذين سعوا سعيهم في نشر الاسلام واصلاح بعض ما فسد من تعاليمه في هذا الجزء — المقاطعات الشمالية — من القطر الهندي .

اذا سرحنا النظر في تاريخ ملوك الهند المسلمين وتأملنا في ماجريات ممالكهم العظيمة ومعاركهم الدامية التي خاضوا غمارها، وجدناها حافلة بجلائل الاعمال من الفتوحات وتشييد الحصون والمباني الشاهقة وترصيف الشوارع وتنظيم البريد وكبح جماح الثوار والطاغين وغيرها

---

(١) وان تعجب فعجب اصرار بعض علماء الهند في عصرنا هذا على ان المعرفة الضئيلة باللغة العربية كافية لاجتلاء محيا حقائق القرآن والاطلاع على دقائقه . وقد عبروا عن هذه « المعرفة الضئيلة باللغة العربية » بلفظة « كام جلاؤ عربي » اي (Working Knowledgeof Arabic) وكذلك بالغوا فى الدفاع عن العلماء الذين اعرضوا عن السنة في القرون الماضية واكتفوا من كتب الحديث بمشكاة المصابيح أو مشارق الانوار وصرفوا اعمارهم في التنقيب عن نظريات ارسطو وغيره من فلاسفة اليونان وعلمائها . وماهذه العصبيات الا من بقايا الحمية الجاهلية . اعاذنا الله منها وسائر المسلمين .

مما لو أتيح اليوم لأية دولة من أقوى دول العالم لكفاها مفخرة . ثم نظرنا الى اعمالهم وما أدته حكوماتهم من الخدمات في سبيل نشر الدعوة الاسلامية بعين المسلم النزيه ، لاعترانا الخجل والندامة ، فانهم وايم الحق ، مافعلوا لاعلاء كلمة الاسلام ورفع شأنها في البلاد الهندية عشر معشار ماجاؤوا به من الاعمال العظيمة لتوطيد دعائم ممالكهم وقضاء لبانتهم من شهوات الدنيا الدنيئة .

اللهم الا ماظهر من بعض ملوك آل تغلق ومن حذا حذوهم من السلاطين على ضآلة عددهم ، من بوادر أعمال تنم على حبهم للاسلام ويقظتهم لما فيه صلاح المسلمين فانهم رأس مالنا في تاريخ الهند الاسلامية ومناط كلامنا الآن في هذا الجزء من الكتاب .

٩ — محمد تغلق (٧٢٥ - ٧٥١ هـ)

فأول من أحس بذلك وقام بشيء من واجبه في سبيل الدين هو محمد تغلق الذي تبوأ عرش الحكومة في النصف الاول من المائة الثامنة للهجرة .

وقد اعتلى سرير المملكة قبله ملوك لهم حزم وبسالة أمثال قطب الدين ايبك[١] (٦٠٣ - ٦٠٦ هـ) وشمس الدين التمش[٢] (٦٠٧- ٦٣٣ هـ) .

---

(١) كان مملوكا . وما تسنى له ان يتوج بالملك الا بشجاعته ووفائه لمولاه . وهو اول ملك اجتمعت تحت لوائه معظم بلاد الهند بعد مئات من السنين . وهو الذي بنى المنارة الشهيرة باسمه التي تضرب في السماء وتناطح القبة الزرقاء .

(٢) هو ايضاً كان مملوكا تركيا خلف قطب الدين بعد موته ، ويعد من اعظم سلاطين الهند واكبرهم شأنا .

وفيهم من هو أقوى منه شكيمة وأصلب منه عزيمة ، له صيت وسمعة مثل علاء الدين الخلجي(١) (٦٩٥ – ٧١٦ هـ) ، ومنهم من هو أوفر منه عدلاً وأزهد منه في المعيشة مثل ناصر الدين محمود(٢) (٦٤٤ – ٦٦٤ هـ) ، لكنهم ، على ما كان لهم من صولة ومنعة – لم يأتوا – وبالأسف بشيء يذكر في سبيل اقامة الدين . او تجديد مآثره ، واحياء مامات من سننه وشعائره .

فصاحبنا محمد تغلق ، هو أول من شمر عن ساق الجد من ملوك الهند لاحياء شعائر الاسلام والقضاء على البدع والمنكرات التي تسربت الى المجتمع الاسلامي الهندي وتفشت به وكان هذا الملك من أعاجيب الناس ، أحب شيء لديه اجزال العطاء وسفك الدماء فلم يكن بابه يخلو من فقير يغنى أو حي يقتل . كان شديداً في أمور الدين يعاقب تاركي

---

(١) كان ملكا ذا كلمة نافذة ، له الحكم والامر . دوخ البلاد وقهر اعداءه وبسط جناح سلطانه على الهند من شرقيها الى غربيها ومن شماليها الى جنوبيها ، الا انه لم يأت بشيء يذكر في سبيل اعلاء كلمة الله . ومن الناس من يغضب لهؤلاء الملوك المسلمين اذا انتقدنا اعمالهم وعدم اكتراثهم لواجبهم الديني . فما هذه الغضبة الا غضبة الجاهلية او القومية المقوتة ، اعاذنا الله من كليهما .

(٢) استقام له الامر عشرين عاماً ، لكنه لم يرفع عقيرته للقضاء على البدع والمنكرات التي عمت فأعمت القلوب والابصار . ومع ذلك ، كان ملكا صالحاً براً تقياً ينسخ الكتب ويعيش بها . فسبحان الذي يقلب القلوب والابصار .

الصلاة . وذكر ابن (١) بطوطة - الرحالة العربي الذي ورد الهند في زمنه - شيئاً كثيراً من « تواضعه واشتداده في اقامة الصلاة وأحكام الشرع ورفعه للمغارم والمظالم وقعوده لانصاف المظلومين واطعامه في الغلاء » ، الا أنه يشكو «تجاسره على اراقة الدماء »(٢) . ولذلك تضاربت آراء المؤرخين في شأنه ، من بين قادح ومادح . ومهما يكن من حقيقة الامر ، فانه أحب لدينا ممن تقدمه من ملوك الهند الجبابرة لأنه قام بشيء من واجبه في سبيل احياء مآثر الاسلام وتجديد ما يدرس من آثاره ومعالمه في هذه البلاد : وللناس في مايعشقون مذاهب . ورأي ابن بطوطة (ت سنة ٧٧٩ هـ) في شأنه أجدر بالثقة وأقرب الى الصواب فانه زار الهند في زمنه كما تقدم وقيد كل ماراه وشاهده بأم عينه . وهاك مايقول عن تصلبه في الدين واقامته لشعائر الاسلام :

« وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا وأكثرهم إظهاراً للعدل .

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم ابو عبد الله اللواتي الطنجي . ولد في ١٤ رجب سنة ٧٠٣ (٢٤/٢/١٣٠٤) في طنجة (المغرب الاقصى) . وقد بدأ بسفره من طنجة / ثاني رجب ٧٢٥ هـ لاداء فريضة الحج ، وهو ابن احدى وعشرين سنة . وقضى شطراً كبيراً من عمره في التجوال والانتقال من قطر الى قطر . وتوفي في مراكش سنة ٧٧٩هـ على ماهو المشهور من تاريخ وفاته . الا ان بعض الباحثين ذهبوا الى انه توفي سنة ٧٧٠هـ (راجع دائرة المعارف الاسلامية : الترجمة العربية)

(٢) ذكر الدكتور مهدي حسن في كتابه عن حياة محمد تغلق

« The Rise and fall of Mohammed bin Tugluq »

أن ابن بطوطة لم يكن منصفاً في حق محمد تغلق ، واتى على ذلك بأدلة وشواهد . والله عنده علم الصواب . ومن شاء فليراجع كتابه .

وشعائر الدين عنده محفوظة . وله اشتداد في أمر الصلاة والعقوبة على تركها » ... (٣:٢١٦) .

« وكان السلطان شديداً في اقامة الصلاة آمراً بلازمتها في الجماعات يعاقب على تركها أشد العقاب . ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها ، كان أحدهم مغنيا . وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك الى الاسواق ، فمن وجد بها عند اقامة الصلاة ، عوقب ....» (٣:٢٨٦) .

– ومن حسناته تجديد الاواصر بالخلافة الاسلامية ، وان لم يكن مجلياً في هذا المضمار . فقد تشرف (١) قبله بقرن شمس الدين ألتمش (٦٠٧–٦٣٣هـ) « بالاذن » و «المنشور» من مقام الخلافة . ثم انقطعت الصلة وما احتفل بذلك الذين جاؤوا بعده من ملوك الهند ؛ حتى اخذ محمد تغلق زمام الامر بيده فاتصل بمقام الخلافة العباسية في مصر وأرسل الى سدة الخلافة رسولاً – الحاج رجب البرقعي – من عنده بالهدايا ظناً منه أن حكومته لا تستقيم ولايجب على الرعية اتباع أوامره الا بعد الاذن من مقام الخلافة العلية – وان كانت يومئذ عزلاء ومابيدها شيء من الامر – وذلك سنة ٧٤٤هـ ..... حتى جاءه « الاذن » المنشود وتقلد السيف الذي تسلمه – سنة ٧٤٥ هـ – من سدة الخلافة السنية بغاية من التجلة والاكرام .

ثم تتابعت « المناشير » كل سنة .

وكذلك تشرف « باذن » الخلافة « ومنشورها » ابن عمه فيروز

---

(١) وذلك سنة ٦١٦هـ ، وكان مقر الخلافة اذ ذاك في بغداد . (الخلافة والهند للسيد سليمان الندوي) .

تغلق (٧٥٢ – ٧٨٩ ﻫ) الذي تولى الامر بعد وفاته ، كما سيأتي[١] .

ويؤيده ماجاء في رحلة ابن بطوطة في هذا الشأن . وهاك نصه :
« وكان السلطان قد بعث هدية الى الخليفة بديار مصر ابي العباس وطلب ان يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند اعتقاداً في الخلافة .

فبعث اليه الخليفة ابو العباس ماطلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين . فلماقدم عليه بالغ في اكرامه وأعطاهعطاءجزلا . وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه .... » (٣ : ٩ – ٢٤٨) .

والذي أوردناه الآن في هذا الشأن مما ذكره صاحب سيرة فيروز شاهي وابن بطوطة يدل من غير شكعلى ان محمد تغلق كان ينظر الىمقام الخلافة الاسلامية بعين التجلة والاكرام ويعدها رمزاً للوحدة الاسلامية. وكذلك يظهر ما كان في قلبه من حب العباسيين ومقامهم الاسمي ، ماسرده ابن بطوطة (٣ : ٢٥٨ – ٢٦٦) من قدوم الامير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز بن المستنصر بالله العباسي الى الهند ومالقيه من الحفاوة والتكريم من الملك ورجال حاشيته .

ومهما يكن من شأن الخلافة العباسية « الاسمية » في مصروكونها عزلاء لاتحرك ساكناً ولا تمحو باطلا فان مظاهر التحية لمقام الخلافة والعطف على سليل الاسرة العباسية من قبل صاحبنا انما انبعثت من روح اسلامي وفكرة دينية جامعة تتمنى أن ينضوي مسلموا العالم الى كنف

---

(١) تلخيصاً من سيرة فيروز شاهي (المخطوطة الوحيدة في الخزانة الشرقية ببلدة بانكي‌يور (عظيم آباد) ص ٢٨٠ – ٢٨٥ .

الخلافة ويجتمعوا تحت لواء واحد . ولم يكن وراء ذلك مطمع لناظر في ذلك العصر ، حينما تبدد شمل بني الاسلام وتمزق جمعهم واصبح أمرهم شذر مذر .

وكذلك يرشدنا ابن بطوطة (٣ : ٣ - ٢٥٢) الى أنه كان على صلة بتلامذة شيخ الاسلام أبي العباس أحمد بن تيمية الحراني (ت سنة ٧٢٨ ھ) .

وحسبك شاهداً على ذلك أنه قد ورد الهند في زمنه الشيخ عبد العزيز الاردبيلي فرحب به الملك خير ترحاب واكرم مثواه . وكان الشيخ عبد العزيز هذا ممن أخذ عن ابن تيمية (ت سنة ٧٢٨ ھ) وجمال الدين المزي (ت سنة ٧٤٢ ھ) والحافظ الذهبي (ت سنة ٧٤٨ ھ) . فلا غرو اذا استفاد الملك ورجال حاشيته من علمه وأفاد الشيخ من اتصل به من العلماء والطلاب وأخذ بيد السلطان وشد عضده في رفع شأن السنة وازهاق باطل البدع[٢] .

---

(١) قال ابن بطوطة [٣:٢٥٢] : « كان عبد العزيز هذا فقيهاً محدثاً قرأ بدمشق على تقي الدين بن تيمية وبرهان الدين بن بركح وجمال الدين المزي وشمس الدين الذهبي وغيرهم . ثم قدم على السلطان فأحسن اليه واكرمه . واتفق يوما انه سرد عليه احاديث في فضل العباس وابنه وشيئاً من مآثر الخلفاء اولادهما فاعجب ذلك السلطان لحبه بني العباس وقبل قدمي الفقيه الخ ..

(٢) حينما نقرأ ما كان من صلته بتلامذة ابن تيمية ومخالطته لهم ، نحسن الظن به ونرجوان يكون قد ادى عملا يذكر في سبيل إعلاء كلمة الدين . لكن مادونه البرني في (تاريخ فيروزشاهي) عن زيارته لقبر بعض الاولياء وإهدائه النذور لهم وغيرهما من المنكرات «Elliot : III 249» يناقض ذلك الرأي .... وعلى كل فما لا ريب فيه انه كان يلتهب غيرة على الدين على ما به من تطرف ونزق في الطبع .

ومن مزاياه التي امتاز بها من بين أقرانه وفاق من تقدمه من ملوك الهند أنه ارتوى من معين العلم ارتواء وضرب فيه بسهم رابح(١) .

ب — فيروز تغلق (٧٥٢ — ٧٩٠ هـ)

تولى الامر بعد وفاة ابن عمه محمد تغلق ، المتقدم ذكره . فرأت البلاد منه ملكاً صالحاً يعطف على الرعية ويعني بأمور صلاحهم .

والذي يهمنا من أمره وأعماله خلال اعتلائه عرش الحكومة أنه شمر عن ساعد الجد لرتق الفتوق وإصلاح المفاسد التي ظهرت في المجتمع الاسلامي الهندي منذ قرون .

والذي يظهر لنا من دراسة تاريخ ملوك الهند المسلمين والبحث في ماجريات ممالكهم ان فيروز تغلق هو اول من شعر بواجبه منهم في سبيل اقامة الدين ورفع كلمته .

نقول ذلك، وقصبينا آنفاً ما كان لابن عمه محمد تغلق (٧٢٥-٧٥٢هـ) من الاعمال والخدمات التي تؤثر ، لانه قد انكسفت شمس أعماله بما ظهر منه من تجاسر على اراقة الدماء وقتل الابرياء من النفوس لغير ماسبب.

أما فيروز تغلق ، فكان ملكاً عادلاً صالحاً لم تظهر منه بادرة تزري بسيرته في رعيته وسياسته في مملكته ، على انه قد أتى في سبيل إعلاء كلمة الله ورفع لوائها من الاعمال الجليلة بما لم يأت به أو بما يضاهيه أحد ممن تقدمه من الملوك المسلمين .

---

(١) راجع الفهرس المشروح «Catalogue Raisonne» للخزينة الشرقية في بانكي بور (٧ : ٢٧) —

فهو نظير نفسه ونسيج وحده في هذا الباب ، لايشق له فيه غبار .

ومن حسن الحظ أن لدينا كتباً (١) عديدة في تاريخ الهند خاصة بسيرة فيروز تغلق وعصره ، من أهمها فتوحات فيروز شاهي الذي هو سجل لاعماله الخالدة وخدماته العظيمة التي قام بها ، وقد دونها بقلمه وأمر باثباتها - بالنحت والحفر - في جوانب القبة العلياء من الجامع الشاهق الذي شيد بناءه في فيروز آباد . وهاك موجز ماقال بهذا الصدد ، رحمه الله وجزاه عن الاسلام والمسلمين خيراً . بدأ الرسالة بحمد الله سبحانه تعالى والثناء عليه بما وفقه « لاحياء السنن السنية وقلع البدع ودفع المنكرات ومنع المحرمات » وأردفه بالصلاة والسلام على سيد البشر ، نبي الله ﷺ « الذي بعث لرفع الرسوم والعادات » وعلى آله وصحبه الاخيار الذين بمساعيهم المشكورة ماتت الجاهلية وعوائدها » ...

ثم شرع في سرد ماوفقه الله له من ازهاق الباطل ومحق البدع

(١) عندنا اربعة كتب تبحث في عصر فيروز تغلق مما صنفه من عاصره من المؤرخين منها فتوحات فيروز شاهي ، الذي هو من نسج الملك فيروز تغلق نفسه . وهو كتيب صغير أودعه الملك ماتسنى له اداؤه من اعمال عظيمة وما تيسر له من خدمات جليلة في سبيل التجديد من امر الدين واصلاح مافسد منه . وقد طبع في (على كره) مع الترجمة الانكليزية .
اما الثلاثة الباقية ، فها هي : -
١ - تاريخ فيروز شاهي (ضياء البرني) - ألم بالستة اعوام الاولى من حكومته .
٢ - تاريخ فيروز شاهي (شمس سراج عفيف)
٣ - سيرت فيروز شاهي (من كرائم مخطوطات الخزانة الشرقية في بانكي فور) ، لايعرف مؤلفها . وهي تؤيد وتعضد ماجاء في فتوحات فيروز شاهي من أعمال الاصلاح والتجديد وكذلك يذكر شمس سراج عفيف ايضاً شيئاً كثيراً من خدماته الدينية واشتداده في هذا الشأن .

والمنكرات وعدها عداً ، نذكرها في مايأتي ، متوخين الايجاز جهد الطاقة .

« قد جرى العمل في هذه الديار منذ برهة من الزمن ان المسلمين يعاقبون فيها بأنواع مخزية من العقاب كقتل النفوس البريئة واراقة الدماء الذكية من غير ماذنب . وقطع الأيدي والأرجل من خلاف وجدع الانوف والآذان وسلخ الجلود الى غيرها مما تقشعر لهوله الجلود ولا يسمح به الشرع . كان من تقدمني من الملوك يقدمون على هاتيك العقوبات الشنيعة ويتعاطون هذه المنكرات زعماً منهم أنها أوقع في النفوس وأضمن لبقاء مملكتهم وأردع لمن يرى الخروج عليها ، الا ان الله عز وجل وعز سبحانه قد أنعم على هذا العبد بان اخذ الرجاء موضع الخوف من قلوب الناس والامن انتشر ظله على البلاد وتعوضت النفوس من الجرأة على المملكة العطف عليها فلم تبق حاجة الى « التعذيب والقتل والضرب والايلام » وذلك فضل الله يرزقه من يشاء من عباده . فشكراً له تعالى ان اسبغ على عبده الحقير من نعمه ، نعماً ظاهرة وباطنة . فلاعقاب اليوم بمثل ماجرى به العمل في سالف الزمان .

وانما يعاقب اليوم من اعتدى على شيء من حدود الله حسب مايقتضيه الشرع فيجري القضاء بحيث لايحيد عن حدود الشريعة ولا قيد شعرة .

(٢) ومن نعم الله تعالى على عبده هذا ان امر بذكر اسماء الملوك السالفين الذين سعوا سعيهم في نشر الاسلام في هذه البلاد بتدويخ الممالك وتمصير الامصار وتأسيس بنيان المساجد وغيرها من صالح الاعمال امر بذكر اسمائهم في خطب ايام الجمعة والاعياد من فوق المنابر والثناء عليهم

بمايستحقونه من المدح والدعاء لهم بالمغفرة والرضوان .

(٣) ومن أيادي الباري تعالى شأنه ان العاجز قد الغى جميع الضرائب[1] والرسوم والجمارك التي كانت تأخذها الحكومات السابقة جوراً وعنفاً ويدخرها العمال في بيت المال مما لم يسمح[2] به الشرع ولم يكن له أصل في الكتاب والسنة .

وكذلك أمرنا بعقاب كل من يجترىء على ذلك في مابعد من امراء الولايات وعمالها ، وان لايجمع في بيت المال من الاموال الا ما اخذ بطريق من الطرق المشروعة كالخراج والعشر والزكاة والجزية على الهنادك وخمس الغنائم والمعادن وغيرها مما يجيزه الشرع ويرشد اليه الكتاب والسنة .

(٤) قد أمرت الحنيفية السمحاء في المغانم ان يرصد خمسها لبيت المال والباقي يوزع بين الغزاة والمجاهدين ، لكنهم قلبوا [3] الامر وجعلوه

---

(١) جاء في فتوحات فيروز شاهي (ص : ٥) من صنوف هذه الضرائب القاسية شيء كثير وقدعدها ضريبة ضريبة ، فجاءت كلها ستة وعشرين نوعاً من انواع الضرائب .وقد زاد عليها بعض المؤرخين من معاصري الملك ، فجاءت ثلاثة وثلاثين نوعاً . راجع مقدمة ترجمة (فتوحات) الانكليزية (ص٨ - ٥) . وانما اعرضنا عن سردها في هذا المقام خوف الملل والاطالة وايضاً راجع (Elliot : ج ٣ ، ص ٣٦٣) .

(٢) ويؤيده ماجاء في كتب التاريخ الاخرى المعتبرة عند اهلها . وقد ذكر Sri Ramsherma في كتابه سياسة المغول الدينية « Riligious Policy of mughul Emperors » ان الضرائب غير المشروعة قد ألغيت في عصر الملك الصالح فيروز تغلق عملا بأوامر الشرع الشديدة . (ص : ٢) . والفضل ما شهدت به الاعداء ، وان كان شرما «Sherma» أراد ان يغض من كرامته بتقيبه بالملك الصالح «Pius» .

(٣) قد نسب صاحب مقدمةالترجمة الانكليزية لهذا الكتاب هذهالبدعة الى الحجاج بن يوسف الثقفي (ت سنة ٩٥ / ٧١٤) وقال انه هو ابو عذرها واول من قلب نص الكتاب العزيز ظهراً لبطن وقد اقتضى إثره من ملوك الهند علاء الدين الخلجي (٦٩٥ / ٧١٦هـ) وجرى العمل به زمناً طويلا حتى جاء فيروز تغلق فألغاه الغاء واعاد الماء الى مجراه .

رأساً على عقب بان خصصوا اربعة اخماس الغنائم لبيت المال وقسموا الخمس الباقي على المحاربين . فلاجرم ان من يتعاطى هذه السوأة الشنعاء يقترف جريمة من اكبر الكبائر ..

فأمرنا ان يدخر الخمس في بيت المال والباقي يوزع بين الغانمين حسب ماورد به الامر .

(٥) شرعت الروافض في نشر عقائدها الباطلة ودعوة الناس اليها واستعانوا في مهمتهم الواهية هذه بتأليف كتب ورسائل . وكذلك تجرأوا على اطالة لسان القدح في الخلفاء الراشدين وعائشة الصديقة ام المؤمنين – رضي الله عنهم – والطعن في سائر علمائنا ومشايخنا وقذفهم بالسباب المقذع الموجع وغيرهما من افعالهم(١) الشنيعة التي يندى لها جبين المروءة والانسانية ... فأخذناهم باعمالهم المنكرة اخذاً وعاقبناهم عقاباً وامرنا باحراق كتبهم على مرأى من الناس ومسمع حتى انعدمت هذه الطائفة عن بكرة ابيها(٢) .

(٦) ظهرت فئة من الاباحية والملاحدة تدعو الناس الى الزندقة والالحاد وكان من ديدنهم ان يجتمعوا في الليالي ويتعاطوا الخمور ويحسبونها تعبداً منهم . وكانوا يأتون فيها بامهاتهم واخواتهم ونسائهم ، يهتكون فيها اعراضهن ويتجاسرون على اقتراف الكبائر الشنيعة ، ولا يفرقون في ذلك

---

(١) راجع فتوحات فيروز شاهي ، (ص٢)

(٢) تبين من هذا ان الشيعة كان قد نجم قرنها في الهند في المائة الثامنة للهجرة او قبلها ؛ الا انها ما انبتت وازدهرت واصبح لها صوت مسموع في المجتمع الاسلامي الا في عصر همايون (٩٣٦-٩٦٣) وبعده كما سيأتي بيانه .

بين المحرمات والمحصنات وانما يباشر الرجل منهم كل من وصلت يده اليهن من النساء المحتشدة في تلك الاندية والليالي . فأمرنا بضرب اعناق رؤسائهم وشياطينهم وعاقبنا الآخرين بالحبس والجلاء* وانواع اخرى من التعذيب حتى لم تبق لهم عين ولا أثر .

(٧) نبتت جماعة من الملاحدة تظاهرت بالتقشف والزهد في الدنيا . وكان على رأسهم رجل اسمه احمد البهاري ، يدعي الالوهية وتبعه على ذلك عدد غير قليل من مريديه ...

فلما تحققنا من خبرهم وعرفنا من امرهم ماصاروا اليه اخذنا رؤساءهم بذلك وجزيناهم بمايستحقونه من الحبس والتعذيب وشردنا اتباعهم في البلاد كل مشرد حتى يتخلص العباد من شرهم ويكونوا في مأمن من ضلالاتهم .

(٨) رجل ادعى النبوءة وتلقب بالمهدي في دلهي ، فتبعه خلق كثير واستفحل امره وعظم شره حتى جيء به الينا فاعترف بالاثم غير هياب ولا وجل فأمرنا بقتله وقتل كل من يقتفي اثره وتقطيع لحومهم واجسادهم اربا اربا . وبذلك جعلناهم مثلًا لكل من ينفخ في أوداجة شيطان الغرور فيجترىء على الزندقه والالحاد والدعوة اليها .

فانطفأت جذوة الشر ونجا الناس من ضلالاتهم . فالحمد لله الذي تفضل علي بنعمته ان وفقني لمقاومة تيار الشرور واجتثاث شجر البدع والمنكرات وهداني الى احياء السنن السنية . فمن استحسن هذه الطريقة واختار لنفسه هذه الجادة المستقيمة فليخترها وليؤثرها على غيرها . واني ارجو بذلك حسن الجزاء في الدار الآخرة .

---

* النفي . . — الناشرون —

فان الدال على الخير كفاعله « ومن سن سنة حسنة فله اجرها واجر من سار عليها من بعده » كما ورد في الحديث(١) .

(٩) رجل من المتصوفة في كجرات اشتهر « بالشيخ » بين اتباعه ومريديه وانخدعت نفسه بترهات الصوفية الوجودية وجعل يجاهر بكلمات هي للكفر اقرب منها للايمان .

وبلغ من سفاهة رأيه وعدم تضلعه في تعاليم الدين ان يقول كلمة (انا الحق) ويشير على مريديه ان يقولوا: «أنت أنت» كلما خرجت من فيه هذه الكلمة (انا الحق) وايضاً كان يقول « انا الملك الذي لايموت » وكذلك الف رسالة كلها كفر وزندقة . فأمرنا ، فاتي به الينا مقيداً بالسلاسل .

ولما تحققنا من ضلالته ودعوته الناس اليها ولم يبق عندنا في ذلك أدنى شك عاقبناه بما يستحقه وأمرنا باحراق كتابه الذي ملأه كفرا وضلالاً حتى اندفع هذا الشر ايضاً واصبح المسلمون والمؤمنون بتوحيد الله عز وجل في مأمن من هذه الفتنة العمياء .

هذا برض من عد وغيض من فيض من ترهات المتصوفة الوجودية(٢) وأقاويلهم الباطلة المعادية للكتاب العزيز والسنة النبوية ، اطلع عليه

---

(١) الحديث رواه مسلم ، ومما جاء فيه : « ومن سن في الاسلام سنة حسنة ، فله اجرها واجر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من اجورهم شيء . الحديث حسنة أو سيئة) « رياض الصالحين : باب في من سن سنة » — المؤلف

« نص الحديث : من سن في الاسلام سنة حسنة فلهاجرها واجر من عمل بها بعده من غير ان ينقص من اجورهم شيء ومن سن في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من اوزارهم شيء - رواه مسلم .

رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للنووي - ص ١٠٢ - طبعة مصر . المكتبة التجارية الكبرى » . الناشرون

(٢) القائلين بوحدة الوجود .

فيروز تغلق فكبح جماحه واراد ان يقضي عليه قضاء لاحياة بعده .

لكن فتنة « وحدة الوجود » وماينشأ عنها من الضلالات ، كانت قد عمت البلاد وقتئذ واستولت على قلوب المتصوفة واخذت بمجامع البابهم ورسخت في اذهانهم اي رسوخ . وما كان اضطهاد رجل واحد منهم وعقابه ليهدأ من ثائر هذه الفتنة او يفل من حدها .

الا ان فيروز تغلق ومن نحا نحوه من الامراء والملوك مجزيون على اعمالهم ونياتهم ، سواء نجحوا في مهمتهم او لم ينجحوا(١) .

(١٠) ومن البدع المنكرة الفاشية التي قضينا عليها وشددنا في امرها زيارة جم غفير من المسلمات للقبور ومشاهد الاولياء ايام الاعياد ، والحال انها محظورة في الشرع . فكيف بهن اذا خرجن من بيوتهن زرافات ووحدانا من بين راجلة وراكبة ومتبرجة بزينة او متقنعة بثوب ، ومن خلفهن جموع محتشدة من اخلاط الناس وأوباشهم ينظرون اليهن اختلاساً ويقفون لهن بالمرصاد ، كأنهم واياهن متعدون .. فأصدرنا الامر الملكي بمنع النساء من تعاطي هذا المنكر وتعزير كل من تتجاسر منهن على ركوب هذا المسلك الوعر من بعد .. فالحمد لله الذي انجحنا في هذه المهمة. فلايمكنهن اليوم ان يخرجن من بيوتهن قاصدات زيارة القبور . فامحت هذه البدعة ايضاً بفضل من الله وتوفيق من عنده .

يتبين مماتقدم الآن من بيان الملك فيروز شاه – رحمه الله ونضر وجهه يوم القيامة – ان هذه البدعة الشنيعة ؛ اي زيارة النساء المسلمات للقبور

---

(١) لقد كتب شرما « Sherma » في كتابه المتقدم ذكره ان اصلاحات فيروز تغلق لم تتغلغل في داخل البلاد ولم يكن لها اثر يذكر في القرى والبوادي «ص: ٣ »

والمشاهد ايام المواسم والاعياد كانت قد انعدمت وتلاشت بمساعيه المشكورة في المنتصف الثاني من المائة الثامنة للهجرة .

اما اليوم فقد استدار الزمان وتقلبت الحال ظهراً لبطن وعمت البلوى ويكاد الخرق يتسع على الراتق ، فرحماك اللهم !!

(١١) بلغنا ان بعض اهل الذمة قد تجرأ على تأسيس بنيان ومعابد لهم جديدة، فأمرنا بهدم هذه المباني الحديثة وضربنا اعناق أئمة الكفر الذين ضلوا واضلوا كثيراً من الناس .

اما عامة اهل الشرك من اتباعهم فاكتفينا بزجرهم وتنبيههم الى مافي صنيعتهم الشنيعة من فساد ونقض لقانون الاسلام [1] (ص : ١٣ - ١١)

(١٢) قد تعود الملوك من قبلي ان يستعملوا أواني الذهب والفضة ويزينوا موائدهم بما لم يسمح به الشرع من ادوات الاكل والشرب ، فامتنعنا عن ذلك واكتفينا منها بما أجازه الشرع وأباحه . وكذلك كان من تقدمني من الامراء والسلاطين يزينون اسلحتهم بالذهب ويرصعونها بالجواهر الغالية . فآثرنا تركها واتخذنا من عظام الصيد حلية لسلاحنا .

(١٣) ومن البدع الفاشية في سالف الزمان انهم كانوا يصورون الملابس وادوات الاكل والشرب وسرج الخيول والخيام والاستار

---

(١) قد سرد الملك فيروز تغلق شيئاً كثيراً عن هدمه للمعابد الجديدة التي بناها اهل الذمة من رعيته واتى في ذلك بأمثلة من اعتدائهم على حدود الله ومخالطة الجهال من المسلمين لهم في عبادة الاوثان ، ضربنا عن ذكرها صفحا ، ومن اراد التوسع فليراجع « فتوحات فيروز شاه » . - المؤلف -

وسرير المملكة وغيرها من الاثاث الفاخر - يملأونها صوراً ورسوما مما ورد به النهي .

فأمرنا بالقضاء على هذه البدعـــة الشنيعة والاقتصار على مايسمح به الشرع من صور الاشجار والبساتين والجبال والمناظر البهيجة وغيرها .

(١٤) وكذلك تركنا من الملابس الحريرية والازياء المزركشة المزخرفة ماورد به النهي وقنعنا منها بما أباحه الشرع الشريف ، ولم يبق للمحظورات منها عين ولا أثر « والحمد لله على الاسلام »

(١٥) ومن النعم الجليلة التي انعم بها الله علي ان وفقني لتشييد المباني الخيرية والمساجد والمدارس والزوايا ليلتجيء اليها الزهاد والعلماء والمشايخ فيناجوا فيها ربهم وينقطعوا الى ذكر الله ويخصوها بالعبادة ويدعوا لبانيها بالخير والبركة .

وكذلك امرنا بحفر الانهار والآبار وغرس الاشجار وجعلناها - ومعها اراض اخرى - وقفا في سبيل الله حسب ماورد به الشرع ، وأجمع عليه العلماء ، وصرحنا بذلك في (وقف نامه) حتى يصل ريعها الى من يستحقونه من عباد الله ولا ينقطع ذلك عنهم أبد الدهر .

(١٦-١٧) جدد الملك فيروز تغلق ما اندرس او تهدم من المباني الشاهقة التي اسس بنيانها الملوك الذين خلوا من قبله واعاد بناء عدد غير قليل من المساجد والمنارات والمقابر والقباب والغدران والحياض .

وقد افاض في ذلك الملك واسهب في غير طائل ، الا انه يؤخذ عليه تجديده لابنية القبور ومراقد الملوك وانفاق الاموال الطائلة وارصاد

الاراضي الواسعة وقفا للمحافظة على مصالحها ومراقبة شؤونها في المستقبل (راجع : ص ١٤ – ١٩) . ومن البلية ان صاحبنا يعد كل هذا من نعم الله عليه والحسنات التي وفقه الله لانجازها .

والحال ان هذا كله بدعة لا اصل لها في الكتاب والسنة .

وانما ورد به النهي[١] صريحاً في الاحاديث الصحيحة بحيث لا يبقى فيه مجال للأوهام والظنون .

(١٨) ومما يسر الله لي انجازه ان اسسنا مستشفيات خيرية لينتفع بها العامة والجمهور من الناس ، لافرق فيها بين فقير وغني . وفيها اطباء يعنون بمن يقصدها من المرضى ويصفون لهم الداء والدواء .

---

(١) روى البخاري عن عائشة : قالت لما اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكرت بعض نسائه كنيسه رأينها بأرض الحبشة ، فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها ، فرفع رأسه فقال أولئك اذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور ، اولئك شرار الخلق عند الله « البخاري : كتاب الجنائز ، باب بناء المسجد على القبر » وكذلك روى الترمذي عن جابر قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تجصص القبور وان يكتب عليها وان يبنى عليها وان توطأ « كتاب الجنائز : باب كراهية تجصيص القبور » : – المؤلف –

نص الحديث والرواية : حدثنا اسمعيل قال حدثني مالك عن هشام عن ابيه عن عائشة رضي الله عنها قالت لما اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم ذكرت بعض نسائه كنيسه رأينها بارض الحبشة يقال لها مارية وكانت ام سلمة وام حبيبة رضي الله عنها أتتا ارض الحبشة فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها فرفع رأسه فقال اولئك اذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور اولئك شرار الخلق عند الله « فتح الباري بشرح صحيح البخاري – للعسقلاني ج ٣ – هامش – باب بناء المسجد على القبر ص ١٦٧ الطبعة الاولى . المطبعة الكبرى الميرية ١٣٠٠ هـ) الناشرون

ولها اوقاف ينفق منها على المرضى وأدويتهم ومايحتاجون اليه من الحمية والاغذية النافعة الناجعة .

(١٩) ومن حسنات هذا الملك العادل التي تذكر بلسان الثناء انه اراد ان يؤدي الديات عن الذين قتلوا بغير حق في عهد ابن عمه الملك محمد تغلق (٧٢٥–٧٥٢ هـ) ويرضي ورثتهم بها ويستقدح زناد قلوبهم ويستميل عواطفهم حتى يعفوا عن الملك المغفور له ويصفحوا عما اصابهم من النكاية والاذى بيده وقلوبهم مطمئنة بذلك .

فأغدق العطايا عليهم وعلى الذين نالهم مكروه او مستهم جراحة في العيون او الايدي والارجل وأرضى الجميع بما أدر عليهم من الاموال على ان يكتبوا بأيديهم للملك المغفور له شهادة الرضا والعفو عما اصيبوا في نفوسهم او ذوي قرباهم . فكتبوا مواثيق الرضا عن الملك المرحوم واشهد عليها رجالاً آخرين ، وأودعها مقبرة الملك المغفور له في جانب رأسه بعد ما وضعها في صندوق خاص .

(٢٠) وكذلك رد الملك الاراضي المغصوبة الى اهلها . واعلن للجمهور ان كل من انتزعت من يده ارض بغير حق واستبدت بها الحكومة او العاملون لها ، له ان يقدم الشهادة او الحجة التي تثبت له حقه على ارض بعينها فيستردها ويتصرف فيها كيفما يشاء . فالحمد لله الذي وفقنا للقيام بهذه المبرة حتى ردت الحقوق الى اهلها وعاد الماء الى مجراه .

(٢١) ومن حسناته ان رغب اهل الذمة من رعيته في الاسلام وقام بواجب الدعوة خير قيام .

ولعله اول من احس بذلك من ملوك الهند المسلمين ، فأعلن للجمهور ، مثيراً كامن رغبتهم ومستمطراً سحابة تشوقهم ، بان كل من يدخل في الاسـلام من الاهالي ويدين بالله ورسوله تسقط عنه الجزية من فوره . فبلغ ذلك مسامع العامة وأخذ من قلوبهم مأخذاً حتى جعلوا يدخلون في دين الله افواجاً . « ولاتزال تأتينا جماعات منهـم فتؤمن بالله ورسـوله وتسقط عنهم الجزية ويتمتعون بانواع من الجوائز والنعم التي يمكننا ان نمتعهم بها وندرها عليهم « فالحمد لله رب العالمين »

(٢٢) ومن نعم الله الخاصة التي أسبغها علينا ان عباد الله ، نفوسهم واموالهم واعراضهم ،مصونة في دائرة مملكتنا من عبث العابثين ، لاتصلها ايدي الطامعين ولا يجتريء عليها العمال وموظفوا الحكومة ، فلانسمح بان يؤخذ من احد شيء بغير حق . وكثيراً ماوشى الي بعض الناس بالعمال والتجار فعاقبنا السعاة والماشين بالنميمة ، حتى يتخلص الناس من شرهم .

« فحسن الاحدوثة وثراء الجود خير من القناطير المقنطرة من الذهب هل مرة واحدة من الثناء خير امخزائن الاموال ؟ هل الدعاء مرة واحدة خير ام آلاف مؤلفة من الدنانير والدراهم ؟

(٢٣) ومن فضل الله على هذا العبد ان حب الفقراء والمساكين قد رسخ في قلبي وفكرة التودد الى قلوبهم قد تمكنت من اعماق فؤادي ، حتى انني كلما سمعت بفقير او صوفي منقطع الى الله في زاويته بادرنا الى زيارته والانتفـــاع بدعائه حتى يصدق القول « نعـم الامير على باب الفقير » .

(٢٤) النصيحة للعمال والامراء واعيان الحكومة الذين يتاح لهم ان يبلغوا من العمر عتيا ويستريحوا من اعباء مناصبهم واشغالهم في الدواوين، ان يتوبوا الى الله ويستغفروه عما عسى ان يكون قد بدر منهم في شرخ الشباب وينقطعوا الى ذكره وعبادته .

(٢٥) انعـام انجال امراء الحكومة وعمالها ونوابها بما كان يتمتـع به آباؤهم ، شأن الملوك الحازمين في رعيتهم ومن يستظلون بظل حكومتهم.

(٢٦) ومن افضل النعم على هذا العبد الحقير وأجلها وأرفعها درجة عند الله ، ان وفقني جل شأنه وعز للاتصال بمقام الخلافة العباسية وامتثال اوامرها اذ لا يستقيم الامر الا باذن الخليفة ولا يجوز لاحد ان ينفذ أمراً الا بعدما يتشرف « بمنشور » من عنده بذلك . فصدرت « المناشير » من مقـام الخلافة العلية باذن المملكة ونيابة الخلافة وتشرفنا بلقب « سـيد السلاطين » من عند امير المؤمنين .

وتتابعت المناشير ومايتبعها من «الراية والطيلسان والخاتم والسيف » هـذا برض من عد وقليل من كثير من نعمه تعالى التي أسبغها على هذا العبد وخصه بها .

وانما اردنا بتدوينها في هذا الكتيب تسجيل الشكر له تعالى جل وعز شأنه اولاً ، وترغيب الناس وتشويقهم الى سلوك هذا الطريق وانتقـاء هذه الخطة المستقيمة ثانياً ، حتى يستحقوا حسن الثناء في الدنيا وجزيل الثواب في الآخرة وننعـم بمزيد المثوبة والاجر « فان الدال على

الخير كفاعله (١) » .

وهذا آخر ما كتبه الملك فيروز تغلق من اعماله الاصلاحية في كتيبه الصغير الملقب بـ «فتوحات فيروز شاهي» الذي تقدم ذكره . فليكن مختتم كلامنا ايضاً عن هذا الملك المسـلم ، رحمه الله وأسكب عليه سجال رضوانه .

ولولا شدة اهتمامه وعظيم عنايته باقامة الدين ورفع كلمة الاسلام لما أرخينا عنان القلم في الاشادة بذكره والتنويه بمآثره ، فان لكل مقام مقالاً .

سكندر اللودى ٨٩٤ ـ ٩٢٣ هـ :

ومن ملوك المسلمين الذين تولوا امر الحكومة المركزية في دهلي ولم يغفلوا عن فريضتهم الدينية سكندر بن بهلول اللودى الذي اعتلى سرير المملكة بعد وفاة ابيه سنة ٨٩٤ للهجره .

والذي نعرفه حق المعرفة عن سيرته واحواله انه كان عالما صالحا محباً للعلم والعلماء . وقد ذمه المؤرخ الانكليزي الفنستن Elphinstone

(١) «الدال على الخير كفاعله والله يحب اغاثة اللهفان » ـ قال احمد متروك واورده الذهبي في الضعفاء ـ راجع فيض القدير الجامع الصغير للمناوى ـ باب كل ـ واورد مسلم في كتاب الاماره ـ باب فضل اغاثة الغازي في سبيل الله . . «من دل على خير فله مثل اجر فاعله».
ـ الناشرون ـ

كثيراً وأنحى عليه بالائمة الشديدة . والذنب هو ذنب الهمجية والتعصب . وكذلك عده رام شرما (1) من الملوك المتعصبين امثال محمد تغلق وابن عمه فيروز تغلق اللذين سبق التنويه باعمالهما .

وهاك اولاً ما كتبه الفينستن : « .... لكنه كان من ملوك الهند المتعصبين المعدودين . هدم المعابد وبذل وسعه في صد الناس عن زيارة مدنهم المقدسة والترحال الى مشاهدهم المعظمة عندهم . وايضاً نهى الناس عن الاستحمام في بعض الانهار . وربما بلغت به الوقاحة والتمادي في الاضطهاد (كذا) الى ابعد الغايات ، حتى انه ذات مرة لما بلغه ان برهمياً يدعي « ان الاديان كلها مرضية مقبولة عند الله اذا سار الناس عليها وسلكوا مسالكها بدقة واهتمام » ، أنذره بالويل وأجبره ان يناظر العلماء ويجاذبهم حبل البحث . ثم لما لم يمتنع ذلك البرهمي عن دعوته هذه أمر بضرب عنقه (2) .

واتفق أن رجلاً من المسلمين طارحه الكلام في شأن منعه المشركين من زيارة هيا كلهم واراد ان يصرفه عن التضييق في هذه المسألة ، فاستشاط غضباً واستل السيف صارخاً :

تباً لك ! ايها الشقي !! أأنت تريد ان تؤيد عبادة « الأوثان » ؟ فأجاب ذلك المسلم قائلاً : (لا ! والله !! انما اريد ان لايجور الملك في الحكم على رعيته)

---

(1) ص ٦٠٥ .

(2) راجع ايضاً شرما ص٦ . — المؤلف —

وذات مرة كان في احد أسفاره الحربية ، فاذا بفقير من المتصوفة عرض له في اثناء الطريق مناديا اياه كما ينادي العبد ربه ، فأجابه الملك قائلا : « أدع (الله) الذي يعطف على رعيته دائماً ولايغرب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض (١) » .

ويؤيد ذلك ماجاء في مقال لكاتب هندكي في هذا الشأن(٢):

« يظهر ان فيروز تغلق لم ينجح في مساعيه الاصلاحية نجاحاً تاماً ، لان سكندر اللودي بذل جهوده من جديد في القضاء على بعض البدع التي شدد في شأنها فيروز تغلق من قبل »

وكذلك جاء في تاريخ داؤدي — الذي هو المعتمد عليه عند الجميع في تاريخ اللوديين : « كان مسلماً متحمساً صادق النزعة . وقد أصر على هدم عدة معابد للهنادك الوثنيين . ودمر المعابد والمشاهد في متهرا — كعبة الوثنيين ومهوى قلوبهم — وحول بعضها الى المدارس والرباط . (ج ٤ ص ٤٤٧ Elliot) .

« اعطي المشركين اراضي مبعثرة في بلاد شتى ورتب الامور على منهاج ساعده على ازدهار الثقافة الاسلامية ، وتقلص ظل العادات الجاهلية

---

(١) تاريخ الهند لألفينستن « بالانكليزية » : الطبعة السابعة ، ص ٤١٩

(٢) مقالة الكاتب الهندكي S. N. SEN « الزنادقة المسلمون والهندكية Hinduism And Mohammedan Heretics . المنشورة في كتابه : «دراسات فيتاريخ الهند» .Studies in Indian History —المؤلف—

(ص ٤٤٧) . . قد منع الاحتفال السنوي (سالارغازي) منعاً باتاً ، ونهيت النساء عن زيارة القبور » (ص ٤٤٧)

حقيقة مرة ومنكرات اخرى للملوك

هذا ، والذي ذكرناه في ماتقدم بشيء من التفصيل عن اعمال الملوك محمد تغلق (٧٢٥ – ٧٥٢) وابن عمه فيروز تغلق (٧٥٢ - ٧٩٠ هـ) وسكندر اللودي (٨٩٤ -٩٢٣ هـ) وخدماتهم للدين ومساعيهم الحسنة في سبيل رفع كلمة الدين ونشر تعاليم الاسلام ، يدل على ان هؤلاء الملوك كانوا يحسون في قلوبهم ميلا الى الدين ولم يمنعهم مانع (٢) التحبب الى سكان البلاد عن كبح جماح البدع وكسر سورتها اذا وضحت لهم المحجة وتبينت الجادة المستقيمة . لكن البلية ، كل البلية ،هي اما جهلهم بقوانين الاسلام الحربية او عدم معرفتهم بتعاليم الدين الحقيقية ، فربما كانوا يتعاطون اعمالاً ويرتكبون اشياء لم يسمح بها الشرع وماورد بها شيء في كتاب الله وسنة نبيه .

---

(١) ينعقد هذا الاحتفال السنوي الى هذا اليوم ويرتكب فيه من البدع والفواحش ماليس له أدنى علاقة بالاسلام . وضغث على إبالة أن كل هذه البدع والمنكرات تقترف باسم الدين.

(٢) هذا ماذكرناه عن ثلاثة ملوك مسلمين في الهند . والرابع منهم سوف يأتي ذكره في موضعه ؛ ألا وهو ابو المظفر محي الدين عالم كيراوزنك زيب «١٠٦٨–١١١٨ هـ» أقوامهم شكيمة واصلبهم عزيمة وارجحهم رأيا . لكن هؤلاء الملوك الاربعة ما كانوا الا بدعاً بين ملوك المسلمين في الهند ، ولك ان تقدر ما كان لهم من تأثير في تغيير مجرى الافكار او تسيير دفة المملكة بما كتبه احد معاصرينا المسلمين في هذا الباب :«...هكذا

ومن هنا يتبين الفرق العظيم بين الفاتحين الأول من العرب وبين الذين وردوا الهند من الثغور الشمالية الغربية .

هذا محمد بن قاسم الثقفي حامل الراية الاسلامية في السند وماجاورها من الاقطـــار لم يأت في جميع غدواته وروحاته الحربية بشيء ، تأباه الشريعة الاسلامية . وذلك انه ومن صحبه من غزاة العرب كانوا قد شاهدوا بأم اعينهم ما أحدثه الاسلام من سنة حسنة في معاملة اهل البلاد المفتوحين والرفق بهم وحفظ ذمامهم وماقدمه دين الحق من انموذج صالح للغزاة

كانت حال الممالك في الهند . ومن البين المعلوم انه لم يكن هنـــاك متسع للملك ضمن دائرة هاتيك الممالك ان يكون خادماً للدين مدافعاً عن حوزته . لا جرم ان السلطتين الدينية « Church »والدنيوية« State »كانتا في يد واحدة ؛ لكن السلطة الدينية كانت خاضعة للسلطة الدنيوية القاهرة والمصالح العاجلة المادية«Material Well - being»اللهم إلا بعض الملوك – امثال فيروز تغلق وأورنك زيب – سعوا بعض الشيء في التوفيق بين الشرع وتدبير المملكة وجعل السلطة الملكية خاضعة لاوامر الشرع ؛ لكن سياستهم ما أتت بجدوى ولم تنفعهم في شيء ، ان لم نقل انها اضرت بالمملكة . وذلك ان الهنادك ما كانوا ليرضوا بأن يستظلوا بظل مملكة مستندة الى قوانين الشرع ، وان كانت تلك الممالك الاسلامية بلغت منتهى شأو المرتقي في اقامة العدل والحكم بين الناس بالقسط . انتهى ما اردنا نقله من قول معاصر لنا مسلم . وهذا لايحتاج الى انتقاد او ابداء رأي من عندنا . فالامر واضح ليس عليه غبار . راجع .

Some Cultural Aspects of Muslem Rule in India

للسيد محمد جعفر ، المطبوع سنة ١٩٣٩ . – المؤلف –

وقواد العساكر في البلاد التي دانت لهم رقاب اهلها واستظلت بظل الاسلام الوارف .

اما هؤلاء المساكين الذين دخلوا الهند وحملوا عليها من الجهة الشمالية الغربية ، فلم يكن لهم اشتغال بالكتاب العزيز والسنة النبوية الا قليلا . وانما كان جل همهم في الفقه – أريد به كتب المتأخرين من فقهاء الحنفية – وفروعه . فبقوا في معزل عن تعاليم الاسلام الحق ولم يتسن لهم ان يرتووا من مناهل الدين العذبة وعيونها الصافية من أكدار البدع ومنكرات الاعاجم . فذاقت البلاد – ولاتزال تذوق – وبال جهلهم وتنكبهم عن محجة الحق . وهناك نماذج اخرى من المنكرات التي اقترفها بعض ملوك الهند ممن حملوا على الهند وامتلكوا ناصيتها وأظهروا للملأ انهم بذلك يخدمون الاسلام وينشرون محاسنه ومزاياه .

هذا الامير **تيمور** (ت سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) كبير [١] اسرة **ملوك المغول** في الهند ، يحمل على الهند وفيها ملك من آل **تغلق الامجاد** ، ولم يمض على وفاة فيروز تغلق الا عشر سنين ، رافعاً علم الجهاد الاسلامي ، ومعلناً للناس الدواعى التي حفزته الى مكابدة مشاق السفر الشديدة والحملة على الهند :

---

(١) قد ذكرنا سكندر اللودي « ٨٩٤ - ٩٢٣ هـ » الذي ملك الهند بعده بكثير ، من قبله ، لمماثلة حياته وتمثل اعماله بأعمال العاهلين المسلمين من آل تغلق فآثرنا ذكر الثلاثة المتمازين بتدينهم في طراز واحد . أما تيمور فبدأ السير من سمرقند في رجب سنة ٨٠٠ ، واستولى على دهلي عاصمة الهند في الثامن من ربيع الآخر سنة ٨٠١ هـ « راجع : Elliot : ٣ : ٤٠٠ و ٥٠٢ » .

« والغرض من حملتي على الهند وتجشم وعثاء السفر ينقسم الى نوعين : الاول مقاتلة عبدة الاوثان الذين هم اعداء الاسلام . وثاني اثنين يتعلق بحطام هذه الدنيا الدنيئة . وهو ان يدخر الجيش الاسلامي مايتيسر له بنهب اموال عباد الاوثان وسلبهم اياها . (ج ٣ ص ٤٦١ : Elliot) .

فماذا يقول في هذا الجهاد العلماء من المتبوئين عرش الافتاء في سائر انحاء العالم الاسلامي .

هل يعد هذا القتال من الجهاد الشرعي المقبول عند الله الموعود عليه بنعيم الجنة . ورضوان من عنده تعالى شأنه ؟

ومن غريب المصادفة ان المسلمين والهنادك في بلدة بهتنير (Bhatnir) قاتلوا جيش تيمور متحدين في مابينهم ، تحت لواء واحد . فأصدر هذا (المجاهد الشهير) فتوى بتكفير اولئك المسلمين الذين جاذبوه حبل القتال :

« ... الآن قد ساءت حال المسلمين والمشركين في الحصن ، فأدخل المشركون اهلهم واولادهم في بيت وأحرقوه . والذين يتسمون منهم بالمسلمين ، والحال انهم خلعوا ربقته عن اعناقهم ، هم ايضاً اقتفوا اثر المشركين وقتلوا نساءهم واولادهم ثم استماتوا في الدفاع حتى قتلوا عن آخرهم (ص ٤٢٦) » .

لاجرم ان اولئك المسلمين الذين ذكرهم تيمور واشار الى قتلهم بأيديهم نساءهم واولادهم قد اتبعوا سنن آبائهم الوثنيين ، كما ذكرنا في بدء **هذا**

الكتاب ولكن قل لي بالله ، ايها القاريء ، ماذا تقول في الذين تتبعوا سنن جنكيز وهلاكو في قتل الابرياء وتدمير المباني واحراق المدن ولم يفرقوا في ذلك بين من آمن بالله ورسوله ومن كفر به ؟

لقد تشدق تيمور في **ملفوظاته** ([1]) غير مرة « بانه لم يسق جيوشه الجرارة الا لقتال المشركين وعبدة الاصنام » ، لكنه وجنوده لم يفرقوا في سفك الدماء وانتهاب الاموال بين الوثنيين وجيرانهم المسلمين

وقد ذكر بنفسه عن جماعة من المسلمين والقضاء على حركاتهم المفضية الى قتل النفس واضاعة النفائس ما يأتي :

« كانوا قد تسموا بالاسلام ولم يكن لهم حظ من الدين القويم . قد بلغوا الغاية وتجاوزوا الحد في السرقة وقطع الطريق ، بحيث لا يقدر احد ان يضارعهم فيها » .

هذا ماذكر تيمور عن لصوص وقطاع للطرق منتمين الى الاسلام .

وهاك مادونه هذا « المؤمن الصادق » عن زيارته لقبر الشيخ فريد كنج شكر احد اقطاب الصوفية وكبار مشايخهم المدفونين في هذه الديار (ت سنة ٦٧٠ ﻫ) :

أنبئت ان مشهد الشيخ العارف بالله فريد كنج شكر رحمه الله في هذه البلدة فبادرت الى زيارته وقرأت هناك الفاتحة وتلوت أدعية اخرى . وسألت روحه الطاهرة النجاح والظفر (ص ٤٢١) » .

---

(١) مجموعة من اقواله وسيرته بقلمه : ج ٣ ، ص ٤٧٧ -- ٣٨٩ : Elliot

فقل لي بالله هل يبيح الشرع مثل هذه المنكرات من الاستعانة بالقبور وأرواح الصالحين ؟؟

وجملة القول ان الملوك الذين تبؤوا العرش قبل القرن العاشر للهجرة ، لهم بعض الاعذار في عدم استمساكهم بعروة الاسلام في كل نازلة والتجائهم الى حظيرته في كل طارئة لان تعاليم الاسلام الصادقة ما كانت قد انتشرت اذ ذاك وما تعممت معارفها الحكيمة وقتئذ . وان نبغ منهم احد يلتهب غيرة على دين الحق واراد ان يرتق منه مافتق ويرأب الصدع فلن يمكنه ان يبقى ثابتاً على جادة الحق ، ومواظباً لخطة الصدق لانعدام وضوح المحجة وتضارب الآراء وتشعب الافكار .

ومن ثم مااستطاع ان ينفع بجهوده المسلمين نفعاً يرتجى من يمتلك لناصية الامر ، آخذ لزمامه بيده ، وكذلك ما ازدهر للاسلام في عصره مجد ومارفع لدعوته لواء لعدم كونه متضلعاً من دقائقه عارفاً لأسراره ودقائقه .

تهاون العلماء والمشايخ

وعلى كل فان الملوك ، على مابهم من التهاون في أمر الدين والانصراف الى توطيد دعائم المملكة ، قد سعى بعضهم في درء المفاسد وازالة بعض ماانتحله الناس على الدين ودفع ما التبس على أهله من البدع والمنكرات والاخلاق الذميمة المناقضة لروح الاسلام . لكن العلماء والمشايخ ماقاموا بما كان عليهم من واجب الدعوة وبث محاسن الدين المبين وتطهير عيونه الصافية

من ادران الجهل والبدع ، وذلك اما لانعدام جماعة من العلماء متضلعة بعلوم الكتاب والسنة . مضطلعة بأعباء الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، او كونهم في غمرة من كل ذلك واشتغالهم من الفروع والمسائل التافهة بما ألهاهم عن فريضة الدعوة وجعلهم في معزل عن واجبهم الحقيقي . فما أنبرى لخدمة الدين والدعوة الى الله الا شرذمة قليلة من مشايخ الصوفية المنبثين فى شرق البلاد وغربها .

والذي نراه اليوم في هذه البلاد من اسماء المسلمين وصورهم فالشقص الاوفر فيه ـ بعد فضل الله تعالى ووضوح تعاليم الاسلام وملاءمتها للطبيعة البشرية ـ لأولئك المشايخ الذين تغلغلوا في داخل البلاد واستوطنوها وارتدوا بأزياء الاهالي وتكلموا بلغاتهم وتشبهوا في اعمالهم ومناهج حياتهم بفقراء الهنادك المنقطعين الى تعبد آلهتهم حسب معتقداتهم . لكن هؤلاء المشايخ ، بطبيعة الحال ولانزوائهم عن الناس وانقطاعهم الى زواياهم لم يكن ينتظر منهم ان يقضوا على البدع ويكونوا سداً منيعاً دون تيار المنكرات التي تسربت الى العقيدة الاسلامية فامتزجت بها امتزاجا . حتى التبس الامر على من يتطلب الحق الصراح ويريده غير مشوب بمنكر ولامزيج ببدعة .

ومن البلية ان قبور اولئك المشايخ أنفسهم اصبحت مرتعاً واسعاً للبدع وسوقاً نافقة للخرافات والاباطيل يتجر بها من جاء بعدهم من اتباعهم والذين ينتمون الى طريقتهم . وضغث على ابالة أن بعض أتباعهم المتحمسين قد تجاوزوا الحد في اختلاق المنكر وترويج البدع فابتدعوا قبوراً لاتضم

بين جوانحها ميتاً وأحدثوا مشاهد للاولياء لاتثبت بحجـــة ولايعضدها برهان وجعلوها تجارة رابحة لايخشى عليها من كســـاد السوق وجدب الزمان ولا يصيبها أدنى ضرر من جراء غلاء المطعم او نزور الملبس .

السيد محمد المهدي الجون بوري ٨٤٧ - ٩١١ هـ

الان وقد عرفت ، ايهـا القـاريء المتبصر ما كان لبعض الملوك من مسـاع مشكورة وجهود متواصلة متتابعة في سـبيل اعلاء كلمة الدين وتشييد مباني عزه ومجده ، كأني بك تسائلني : « فماذا أداه العلماء في تلك القرون من واجب تجديد مآثر الدين واحيـاء مادرس من معالمه ؟ فمن دواعي الأسف ، والقلب ملؤه الحزن والندم ، انهم لم يأتوا بشيء يذكر فينوه به في هذا الشأن ، بل كانوا في غمرة من هذا . ووجدوا لأنفسـهم أشغالاً من دون ذلك يعملون لها من التحبب الى العامة والتزلف للملوك وتكفير بعضهم لبعض ، مما سارت بخبره الركبان ويعرفه القاصي والداني فلانعرف رجلا من بين العلماء تصدى لمقاومةتيار الزندقة والالحادوانبرى لمقارعة فتن البدع وتتبع الشهوات والاهواء غير السيد محمد المهدي الجون بوري - الذي ادعى انه مهـدي آخر الزمان - فالتبس أمره على الناس وأصبح العلماء والمؤرخون - من معاصريه والذين جاؤوا من بعده - في شأنه على قسمين ، بين مادح وقادح ، قسم يتجنب الحكم والقطع بشيء في شأنه ويفوض أمره الى الله . وذلك لمـــا جاء به هو وأتباعه من مساع جليـلة وجهود مثمرة متتابعة لاصلاح مافسد من تعـاليم الدين ومقاومة

مافشا في المسلمين من التهافت على البدع والمنكرات .

وذلك في عصر اتسع فيه الخرق على الراقع وجاوز السيل الزبى وبلغ اضطهاد الملوك للمصلحين مبلغاً تقشعر لهوله الجلود وتزل فيه أقدام الرجال .

وقسم لم يتحرج في تكفير السيد محمد وأتباعه ولم يدخر وسعاً في استئصال شأفتهم . والمحققون ألفوا في الرد على المهدوية الغلاة [1] وتفنيد مزاعمهم الباطلة في منزلة « السيد محمد المهدي » لكنهم آثروا الكف عن اطالة لسان القدح في شخص السيد محمد وتفويض أمره الى الله .

وذكر العلامة صديق بن حسن القنوجي البخاري (ف ١٣٠٧ ﻫ) نقلا عن الشيخ علي المتقي (٨٨٥ - ٩٧٥ ﻫ) « أن رجلا من اهل الهند ادعي في عصره « المهدوية » وتبعه خلق كثير وظهر أمره وذاع صيته ثم توفي ، لكن أتباعه لايزالون على عقائدهم [2] » .

توفي السيد محمد المهدي في أثناء الطريق حين رجوعه من بيت الله الحرام

---

(١) قد روى بعض الثقات ان طائفة المهدوية الموجودة الآن في بعض اصقاع الهند لاتزال ممعنة في غيها متنكبة عن سواء الصراط . وبالعكس من ذلك أكد لي ايضاً بعض المنتمين الى المهدوية انهم لا يرون هذا الرأي وانهم لا يخالفون اهل السنة الا في الفروع . ويعلم الله أيها اقرب الي الصدق . ولم يتمكن كاتب هذه الاسطر الى الان من التحقيق والجزم بشيء في بابهم .

(٢) حجج الكرامة في آثار القيامة ص ٣٨٨ . — المؤلف —

عام ٩١١ ﻫ ، ثم قام بالدعوة أتباعه لكنهم اضطهدوا (١) اضطهاداً شديداً قضى على حركتهم في بدء امرها (٢)

همايون وبدعته ٩٣٦ ـ ٩٦٤ ﻫ

جاء في فتوحات فيروز شاهي ـ كما تقدم ـ ان الملك فيروز تغلق بالغ في القضاء على الروافض ودعوتهم . ويتبين من ذلك ـ كما أشرنا اليه ، من قبل ـ ان الشيعة قد نجم قرنها في زمن فيروز تغلق (٧٥٢ ـ ٧٨٩ ﻫ)

أو قبله بقليل او كثير ، لكن الذي لايختلف فيه اثنان أنها ماانتشرت في البلاد انتشاراً ولم يكن لها ذكر في الاندية والمجتمعات الا في عصرهمايون بن بابر (٣) الذي التجأ الى كنف ملك فارس بعد ماغلبه شير

---

(٢) خلف أباه بابر من آل تيمور سنة ٩٣٩ﻫ واستقر على كرسي المملكة . وما كاد يمضي عليه زمن حتى خرج عليه الافغان في شرقي الهند وعلى رأسهم شيرشاه السوري « ف٩٥٢ﻫ » . فهزم همايون شر هزيمة حتى لجأ الى بلاد فارس ، ثم رجع الى الهند بعد بضعة عشر عاماً وفتحها ، لكنه لم يلبث ان وافاه الاجل المحتوم .

(١) قتل الشيخ نيازي والشيخ العلائي من كبار خلفاء السيد محمد المهدي قتلا مبرحا بأمر سليم شاه السوري « ٩٥٢-٩٦٠ ﻫ » ـ المؤلف ـ

(٣) هو بابر بن عمر شيخ امير فرغانة بن ابي سعيد بن سلطان محمد ميرزا بن ميران شاه حسين بن الامير تيمور . حمل على الهند ، فتابع الكرة ووالى الزحف الى ان كسر ابراهيم اللودي « ٩٢٣-٩٣٣ﻫ » وطحنه طحنا . وتبوأ عرش الهند وسخر اكثر بلادها . مات سنة ٩٣٦ﻫ ، فخلفه نجله الاكبر همايون . ومما لا يكون ذكره غير مناسب في هذا المقام ان كتاب الافرنج أثنوا على بابر ومدحوه مدحاً « لشدة الجلد بدون تعصب ديني ومع عدم اهتمام زائد بالاسلام » . ومما لا يصح ان ينساه القارىء ان الشيء الذي ترتاح اليه نفس اكثر الاوربيين هو ان يروا الملك المسلم غير شديد التمسك بدينه . هذا هو مقياس الحب عندهم . راجع « حاضر العالم الاسلامي : ٤، ٢٩٨ »

شاه السوري وطحن جنوده طحناً . فأقام هنالك بضع عشرة سنة يهيء عتاد الحرب ويحشد الجموع .

ولما ان رجع الى الهند لانتزاع مملكته من أيدي خلفاء شيرشاه السوري ، رجع بجنود وعساكر لاقبل لهم بها ، ومعها جنود أخرى من العقائد الباطلة والاوهام والخرافات المنحولة على دين الحق . فزاد الطين بلة والطنبور نغمة ، وذلك ان النزعات المعادية للدين ، المناقضة لروح الاسلام كانت — قبل رجوع هايمون من بلاد الفرس — منحصرة في نوعين : نوع استقى من ينبوع التصوف الباطل الممقوت ، ونوع جاء من قبل اقتصار العلماء على كتب في الفقه وفروعه وغفلتهم عن الرجوع الى الكتاب العزيز والسنة النبوية (على صاحبها الصادق المصدق الف تحية وسلام) . لكن بلادنا رميت بثالثة الاثافي حينما دخلت الشيعة الهند مستظلة براية المملكة المسلمة(١) وقتئذ ، فكانت فتنة عمياء وجرحاً على الوحدة الاسلامية أشد وأنكى من غيرها . ومازال يستفحل أمرها ويشتد خطبها في العصور التالية حتى أصبحت من أعقد العقد استعصى على الحذاق والدهاة حلها وأعيا تداويها النطاسيين العارفين بأدواء الامة وآلامها . وسوف نعود الى الموضوع في موضعه ان شاء الله تعالى .

---

(١) ذكر شرما « Sherma » ان هما يون كان قد وعد ملك فارس بتشجيع مذهب الشيعة في الهند « راجع ص ١٩ » . —المؤلف—

الفصل الثالث

عصر الضلالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الملك أكبر ٩٦٤ - ١٠١٤

قد عرفت مما تقدم ان معظم ملوك المسلمين في الهند ما اعتنوا بدعوة الاسلام اعتناءهم بتوطيد دعائم ممالكهم . ومن ثم نرى ان الذين أسلموا من المشركين وعبدة الاوثان على يد الصوفية والوعاظ بقيت عقائدهم واعمالهم ممتزجة بمعتقدات البراهمة وشعائرهم . ومازالت الحال كذلك حتى تبوأ عرش المملكة أكبر بن همايون بن بابر سنة ٩٦٤ ﻫ ، بعد وفاة أبيه فانقلبت الارض ظهراً لبطن وتنكرت وجوه الاعيان والامراء للدين الحنيف وطمى سيل الالحاد وطغى ونجم قرن الفتنةوطال . فكانت فتنة عمياء وداهية دهواء ، ذهبت بكثير من العلماء والمشايخ في سيلها الجراف * . وذلك ان الملوك الذين مضوا قبل أكبر ما كانوا ينصبون العداء (١) للدين الحنيف ، ان لم يكونوا من أنصاره . لكن عصر هذا

(١) لم نسمع بملك من ملوك المسلمين – قبل أكبر – اراد ان يحدث ديناً جديداً او سعى في القضاء على دين الحق ، غير مايروى عن علاء الدين حسين شاه «٨٩٩–٩٢٧ﻫ» ملك بنغال «مقاطعة كبيرة في شرقيالهند »من انه اراد ان يرغبالناس في عبادةستيهپير ستيه معناه « وشنو » احد آلهة الوثنين و « پير » معناه الشيخ – راجع :
Cultural Fellowship in India By Atulnanda Chakarbarti p. 25
– المؤلف –

آ – سيل جراف بمعنىشديديجرفما امامه وهي اصح من جارف التي جرتبها الاقلام

ب – نصب له عاداه ونصب له الحرب اعلنهاوناصبة الشر اظهره له . –الناشرون–

الملك – أكبر – قد تفرد باضطهاد الاسلام والتضييق على المسلمين واختلاق بدع ومنكرات شنيعة وانتحالها على الدين المبين . ومن الغريب ان المؤرخين يسمون عصر هذا الملك المغرور « بالعصر الذهبي » – وما أجدره ان يسمي عصر الضلالة – لان موطن المدح عندهم هو الضعف الخلقي والانحلال الديني .

وحيثما وجدت الكفار والمشركين واتباع الاهواء والشهوات يمدحون رجلا من المسلمين ويبدئون ويعيدون في اطرائه فاعلم بأن الرجل قد أتي من قبل دينه وأصابه شيء من الوهن في عقيدته .

تبوأ الملك أكبر سرير الملك وهو حدث لا يكاد يتجاوز الثالثة عشر من سني عمره ، فناب (١) عنه أمير شيعي اسمه بيرم خان (ت سنة ٩٦٨ ﻫ) بضع سنين .

ثم لما بلغ أشده واستوى ، أخذ زمام الامر بيده واستقل بالملك . وكان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، نشأ على حب الاستطلاع ، فجمع جملة من المشايخ وجعل يناقشهم في مسائل الدين ، فبدأ يجنح الى أن

---

(١) عين عبد اللطيف معلما له ، وهو رجل كان يرمي بوهن العقيدة وينسب الى الشيعة . وايضاً عين بيرم خان – بصفته وصيا على العرش – الشيخ كدائي احد علماء الشيعة صدر الصدور – وهو منصب ديني يضارع وظيفة شيخ الاسلام – في الدولة العثمانية التركية – للمملكة . – المؤلف –

الاديان كلها حق . ولا مزية للاسلام من بينها ولا فضل له على غيره . وكانت هذه النزعة الجديدة توطئة لما أعلن من بعد من تأسيس دين جديد واعتزامه القضاء على الاسلام ، كما سيأتي مفصلا .

ثم تقدم خطوة أخرى بتزوج الأميرات الوثنيات من بيوتات الشرف والمجد في الهند واباحته لهن الاستمساك بعقائدهن وعبادة الاوثان في داخل القصر الملكي .

وكان هذا الزواج من أكبر الدواعي التي أفسدت عليه عقله في أمور الدين . فان أزواجه الوثنيات ماادخرن جهداً في تهنيده وصرفه عن وجه الحق ومنهج الصواب .

فبنيت المعابد ونصبت الاصنام والتماثيل في القصر الملكي ،وجعل أهله رجالاً ونساء يحتفلون بأعياد المشركين وجعل اكبر من ديدنه أن يقوم تكريماً للشموع والقناديل حينما تضاء مساء الى غيرها من الاعمال التي أصبح بالعمل بها أقرب للوثنية منه للاسلام .

علماء السوء في عصره

ومما شجعه على ذلك ، هو تشاجر علماء السوء في مابينهم وتهافتهم على حطام الدنيا الدنيئة وجمودهم على ماوجدوا عليه شيوخهم وآباءهم .

وقد تقدم آنفاً أن الملك نشأ على حب الاستطلاع – وكان أمياً – فعقد مجلساً سماه بيت العبادة (عبادت خانه) ودعا اليه العلماء من كل

طائفة من السنة والشيعة والبراهمة واليهود والنصارى والمجوس . ولما جرى الكلام بين يدي الملك وتجاذبوا حبل الحديث ، ظهر له ان علماء المسلمين جامدون على ماورثوه من مشايخهم من مسائل الفروع ، منقسمون في ما بينهم لا يكادون يتفقون على شيء .

ولم يكن هذا الخلاف منحصراً في دائرة الفروع ، بل وياللأسف كانت آراءهم ومذاهبهم متضاربة ومتشعبة في اصول الدين ايضاً . ومما يسيل له القلب حزناً ودماً من أمر علماء السوء اولئك ، ان اول نزاعهم بين يدي الملك كان على تبوء المقاعد والدنو من مجلس الملك ، كل منهم يود ان يكون من الملك على قاب قوسين او ادنى . ولا يكاد يرضى ان يؤثر غيره عليه .

ولو كان لهم رأي واباء في نفوسهم وشرف في خلقهم ، لصبروا على أمر تافه مثل هذا ولم يبدوا لمن حولهم مافي نفوسهم من حب الدنيا والانانية . ولما ارتفعت أصواتهم وانكشفت سوءات أخلاقهم وعلا صريخهم بين يدي الملك ، أمر باخراجهم من مجلسه وجعل يسيء الظن بالدين الذي لا يعرف حملته حتى ولا آداب الجلوس والأخذ بأهداب الكلام . وماظنك بالدين يقول أحدهم - وهو الحاج ابراهيم السرهندي - ان الثياب المصطبغة باللونين الاحمر والاصفر ، لا بأس بها للرجال . ثم يقوم آخر منهم وهو سيد محمد مير عدل (١) - فيرد على الاول

(١) مير عدل ، معناه رئيس العدل او حارسه . وكان هذا لقبه الرسمي . ومنصب مير عدل كان عبارة عن رئيس مصلحة الاحتساب الشرعي . وذكر بعض المؤرخين ان مصلحة الاحتساب الشرعي قد فقدت بهاءها واضاعت حسن سمعتها بعد محمد الامروهوي هذا .

وينكر عليه قوله ويشتمه بين يدي الملك شتماً .

وجملة القول ان الشيوخ قد كفر بعضهم بعضا وتبادلوا في مابينهم الشتائم ، فكان من ثمرات تنابزهم وجدالهم في مابينهم ان الملك بدأ يجنح شيئاً فشيئاً الى عدم التدين بدين الحق وأخذ يركن الى ما كان يلقنه نواب الطوائف الاخرى من آرائها ومعتقداتها المتضاربة .

ومما غض من شأن الدين وحط من كرامة أهله في عين الملك وحاشيته أعمال علماء السوء المزرية بالدين ، ولاسيما رؤساؤهم أمثال عبد النبي الكنكوهي (ت سنة ٩٩٣ هـ) ومخدوم الملك الملا عبد الله السلطانبوري (ت سنة ٩٩٠ هـ) ومن نحا نحوهما من أقرانهم وأحزابهم .

وعبد النبي هذا كان حفيداً للشيخ العارف عبد القدوس الكنكوهي (ت سنة ٩٤٤ أو ٩٤٥ هـ) : وكان (١) يعد من كبار العلماء والمحدثين في عصر أكبر . وبلغ من تكريم الملك اياه انه كان يقوم له تجلة واكراماً كلما دخل عليه ويقدم له نعليه اذا اراد الانصراف .

لكن هذا الرجل كان يقرأ الحديث النبوي(٢) « الحزم سوء الظن »

---

(١) قد ذكره الشيخ عبد الحق الدهلوي (ت سنة ١٠٥٢ هـ) في « أخبار الاخبار » عرضا وقال انه قرأ شيئاً من الحديث على الفقهاء الخ فا فهم !!

(٢) عن علي رضي الله عنه من قوله « الحزم سوء الظن » . وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب عن عبد الرحمن بن عائذ رفعه مرسلا . وكلاهما ضعيفة وبعضها يتقوى ببعض » راجع « المقاصد الحسنة » للسخاوى (ت سنة ٩٠٢ هـ) ص ١١ ؛ وتذكرة الموضوعات للفتني « ص٢٠٣ » « ف سنة ٩٨٦ هـ » — المؤلف —

حديث ضعيف ويناقض احاديث النهي عن الظن ومنها « اجتنبوا كثيراً من الظن » وحديث«من اساء الظن باخيهفقد اساء بربه»تذكر الموضوعات ٣٠٣ -الناشرون-

دائماً بالخاء والراء (بـدلاً من الخاء والزين) . ولما تولى منصب صدر (١)
الصدور ، نفخ في أوداجه شيطان الغرور فجعل يتشمـخ بأنفه ويتطاول
على المساكين الذين كانت وظائفهم وأرزاقهم منوطة بالمصلحـة الدينية ،
ففشت الرشوة وجعل المشايـخ والعلماء من أصحاب الاقطاعات والجرايات
الشهرية يترددون على باب « صدر الصدور » ويتوددون الى نائبيه وخدمه
وبوابه بانواع من التزلف والرشـوة ، حتى اصبحت المصلحة الدينية في
عهده (٢) عاراً وسبة على المملكة .

وأما ثاني اثنين من كبار مشايـخ العصر – وهو مخدوم الملك الملا
عبد الله السلطان بوري ، فقد بلغ الغاية في حب المال واكتنـاز الذهب
وادخاره وتجاوز الحد في تحريف الدين وتلفيق الاباطيل . وان تعجب ،

---

(١) ولما احس الملك بان مصلحة صدر الصدور لا تؤدي وظائفها كما يرجى من مثلها من المصالح الدينية : عقد العزم على التضييق من دائرة نفوذها فبدأ بتعيين ستة صدور في مقاطعات مختلفة لئلا تكون للصدر الواحـد الكلمة في جميع البلاد . وذلـك سنة ٩٨٩ هـ/١٥٨١م ثم بدا له بعد البحث والتنقيب ان الاقطاعات والاراضي التي منحت للعلماء كانت اوفر بكثير من حاجاتهم : وان رئيسهم عبد النبي ، صدر الصدور هو الذي استبد من دون غيره بقسط عظيم من الاقطاعات وملك من الاراضي ما لم يملكه أحد قبله ،فاضطر الى ان يدبر الامر من جديد وجعل الامر تحت حوزته رأساً.

(٢) ومن غريب أعاجيب الدهر انه لما ساءت الملك اعمـــاله واغضبه الاعتداء على حقوق الناس نفاه الى مكة المكرمة ثم رجع الى الهند بعد قليل وشاهد ما آل اليه امر الملك من الهزء بالدين فاجترأ ذات يوم على ان يرفع عقيرته بالنكير امامـــه فلكمه الملك لكمة بيده ... وفي مثل ذلك عبرة لمن اعتبر . قتل بأمره سنة ٩٩٣ .

فعجب أنه أفتى بسقوط فريضة الحج [١] لئلا يتقول الناس ان مخدوم الملك لم يتشرف بزيارة بيت الله الحرام على مابه من نعيم الدنيا والاموال الطائلة. وأدهى من ذلك وأمر انه كان يهب أمواله لزوجه قبل تمام الحول وكانت هي تهبه تلك الاموال نفسها من جديد بعد مضي ستة أشهر . فراراً من أداء الزكاة ، كأنه أراد بحيله الملعونة ان يخدع الله ورسوله ، وهيهات ان ينال بغيته (ومايخدعون الا انفسهم ومايشعرون) * . ولما توفي مخدوم الملك سنة ٩٩٠ ه في احمد آباد امر الملك بداره في لاهور فضبطت وعين رجلاً خاصاً للتحقيق في أمر خزائنه وكنوزه ، فانكشف التنقيب عن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة مما ينوء بحمله العصبة أولوا القوة .

ومما عثروا عليه من ذخائر كنوزه قبور مزورة اصطنعها لامواله وأودعها صناديق مملوءة بالذهب الخالص لئلا تصل اليه أيدي الناس . ولا يجترىء أحد على نبشها ، ظناً بأنها قبور للأموات من أهل بيته واسرته .

ومن سيآت هذين « العلمين » من اعلام عصر اكبر انهما ما زالا يتنازعان في مابينهما ويتجادلان بالرسائل والفتوى ، فربما يفتي أحدهما بان

---

(١) ومن صنع الله في خلقه ان لايمضي يوم الا وقد اتى من العجائب ما يدهش له الناس ومنها ان الملك اكبر لما ساء ظننا بعبد النبي ومخدوم الملك نفاهما معاً الى مكة المكرمة ليأمن الناس شرهما لكنهما ظلا يتنازعان في الطريق وفي الحرم الشريف وما استطاعا ان يمكثا بها اكثر من ثلاث سنين فرجعا معاً الى الهند فذاقا وبال امرهما فبئس ما عادوا اليه بعد النفي الذي يسر لهما التوبة والرجوع الى الله العزيز الغفار .

— المؤلف —

* سورة البقرة ، آية ١ .

— الناشرون —

الصلاة لاتجوز خلف خصمه، ثم يأتي الآخر بحيلة أخرى مثلها ويعارضه بها. ولذلك كان يدور بينهما الجدال والنزاع . ومن البلية ان الملك الغركان يرى ان علماء عصره أرسخ علماً وأطول باعاً من الغزالي (ف ٥٠٥ ﻫ) والرازي (ف ٦٠٦ ﻫ) .

فلما رأى من اعمالهم وصنيعهم بأخوانهم وتنازعهم في مابينهم مارأى ، جعل يشك في مايروى من حسن سيرة من تقدم من اعلام علماء الاسلام والأئمة المعروفين بالصدق والنزاهة واباء النفس .

والذي كتبناه عن ذنيك الشخصين الكبيرين يصح في أتباعهم ومعاصريهم ممن كانوا يترددون على باب الملك ويختلفون الى مجالسه .

وان شئت ان أضرب لك مثلاً ، فدونك الحاج ابراهيم السرهندي [1] « صدر » مقاطعة كجرات ، أخذ بالارتشاء وعزل عن وظيفته. وكذلك « القاضي » جلال الدين الملتاني زور مرسوماً ملكياً ليكتسب به نصف مليون « تنكة »[2] .

قد قلنا آنفاً ان علماء السوء في عصر أكبر ، هم الذين عليهم جل تبعة ضلالته وتنكبه عن محجة الحنيفية السمحاء . وهذا مما اتفق عليه الجميع

---

(١) رئيس المصلحة الدينية في مقاطعة كجرات « وهي اليوم منضمة الى مقاطعة بومبي في غربي الهند » . وكان احدث منها سناً .

(٢) عملة من الذهب والفضة كليهما ، كانت رائجة بهذا الاسم في عصر ملوك المسلمين بالهند . واول من أجراها محمود الغزني (ت ٤٢١ ﻫ) ، ثم تغير اسمها في عصر أكبر وسمي « مهر » . (دائرة المعارف الاسلامية : مقالة tanka الطبعة الانكليزية) .
— المؤلف —

والأمر أشهر من نار على عـــلم . وهاك مايقوله بهذا الصدد الشيخ احمد السرهندي (٩٧١ – ١٠٣٤ هـ) مجدد الالف الثـاني للهجرة ، وهو الذي اختاره الله من بين عباده لمقاومة هذه الفتنة « الأكبرية » كما سيأتي مفصلاً:

« رأى أحد من يعز علينا في مايرى النائم ان الشيطان الملعون جالس بهدوء وسكينة ، لاهم له فى تضليـل الناس وغوايتهم . فاستفسره الأخ – الآنف الذكر – عن ذلك . فقـال – لعنه الله – ان علمـــاء السوء في هذا العصر أنفسهم قائمون بهذه المهمة دوننا ، فنحن اليوم في غنى عن السعي فيها .

ومما لامجال فيه للشك ان كل ماوقع من المداهنة والتخاذل في الاحكام « الشرعية في هذا الزمان وماظهر من الفساد والوهن في نشر الدعوة الالهية وابقاء مآثرها في هذا العصر ، انما يرجع سببه الى « علماء السوء » الذين هم لصوص الدين « وشر من تحت أديم السماء – اولئك[1] حزب الشيطان ، الا ان حزب الشيطان « هم الخاسرون » .

الملا مبارك الناكوري وابناؤه

ومن اعظم ماجرأ هذا الملك الغر على خطته العوجاء وشجعه على سياسته المعادية للدين الحنيف ، مصاحبته لثلاثة رجال من ذوي العلم جعلوا الهجوم

---

(١) « مكتوبات المجدد » مشحونة بمثل هذه الاقوال . ونذكرك بأن جملة « أولئك حزب الشيطان ... الخ » من نص مكتوبه الذي جاء في ص ٩٣ من الجزء الاول من الدفتر الاول .

على الدين مطية لاهوائهم وشفاء لما في صدورهم من البغضاء والحقد للمتشدقين بالدين في عصرهم . ألا ، وهم الملامبارك الناكوري (ت ١٠٠٢/ ١٥٩٣ م) وابناه أبو الفضل[1] (ت ١٠١١/١٦٠٣) وفيضي[2] (ت سنة ١٠٠٤/١٥٩٥ م) .

وبيان ذلك ان الملا مبارك كان رجلًا ذا علم وأدب يرمى بعدم التقيد بالمذاهب الاربعة ويرى ولده أبو الفضل انه بلغ درجة الاجتهاد . فهجم عليه علماء عصره الذين ما كانوا الا علماء سوء وسبة وعاراً على الاسلام والمسلمين ، ورموه بالمهدوية تارة وبالشيعية أخرى . فأراد مبارك الناكوري ان ينتقم من علماء السوء ويرد كيدهم في نحرهم . لكنه من دواعي الاسف الشديد ان الطريق الذي سلكه الناكوري وأبناؤه للأخذ بثأرهم من علماء السوء قد أدت بهم الى الشر وأوردتهم مورداً لايكادون يصدرون عنه . فما كان من أمرهم الا ان عادوا مبعث ذل وهوان للاسلام في هذه الديار وخزياً وعاراً على أنفسهم أبد الدهر . فدخلوا على الملك عازمين ان يثأروا من مشايخ عصرهم ومعاصريهم من العلماء وجعلوا يترددون اليه حتى أصبحوا من بطانته وخاصة ندمائه . فزينوا له

---

(١) توفي مقتولا بإشارة من سليم بن اكبر الذي ورث اباه واعتلى سرير الملك بعد موته سنة ١٠١٤ ﻫ . وتلقب بـ « جهان كير ».

(٢) كتب العلامة صديق بن حسن القنوجي البخاري في « ابجديةالعلوم » (ص٨٩٨) في ترجمته « انه كان على طريقة الحكماء . وكذا اخوانه ابو الفضل واخوته . وكانوا معروفين بانحلال العقائد وسوء التدين والالحاد والزندقة . نعوذ بالله منها . توفي سنة ١٠٠٤ ﻫ — المؤلف —

رأيه السخيف وصوبوا كل ما كان يرى من اتباع هواه وتقديس فكره المعتوه ، واستعادن بهم أكبر على علمـــاء عصره في لتفنيد آرائهم ومقارعة حججهم بحجج مثلها او من جنسها . ولولا مبارك وابنـاه لما تيسر للملك المغرور من يسول له العصمة في الرأي والنضوج في الفكر .

وعلى كل فان الملا مبارك لم يحسن لا الى نفسه ولا الى ملته بمساعدته الملك في ضلالته ومؤازرته في تضليله للناس وتحريفه الدين .

لقد تكلم الكاتب الهندي سري رام شرما « Sri Ram Sherma » — المتحمس في الدفاع عن الملك — في مبارك وابنيه وأصر على القـــول « بأن الملك كان قد اعتزم خطته قبل ان ينال مبارك وابناه الحظوة عنده وانمـا استعان بهم على مقارعة العلمـاء وساعـده هؤلاء مهمته العظيمة ، لكنهم لم يبدعوا له هذا المنهاج ولم يبتكروا له هذه السياسة وما كان تقربهم من باب الملك وتبوؤهم المحل الأسمى من بطانته الا نتيجة سياسة حرة معتدلة قد قرر العمل بها من قبل(١) » .

ومهما يكن من الامر فالذي نريد ان نقرره في هذا المقام ان علمـاء السوء هم الذين كانوا البـــلاء الأكـبر على الدين المبين ، وهم الذين يعود عليهم جل التبعة في ماجرى عليه أكبر من السياسة اللادينية ، وذلك ثابت لاغبار عليه . ومافتنة الملا مبارك النا كوري ونجليه أبو الفضل وفيضى الا فرع من شجرتهم الخبيثة وشرارة من نارهم الموقدة .

---

(١) The Religious Policy of The Mughul Emperors p. 21
— المؤلف —

البدع والمنكرات في عصره

هذا وقد ذكرنا بشيء من التفصيل الاسباب التي ساعدت أكبر على خطته وشدت عضده في مهمته المشؤومة ، فنرى ان نصرف عنان الكلام الى البدع والمنكرات التي نفقت سوقها في عصره بأمر منه او بتشجيعه رجال حاشيته وأعوانه وأنصاره .

بدأت حكومة أكبر حوالي سنة ٩٦٤ هـ/١٥٥٦ م ، وامتدت زهاء خمسين سنة ، ومابلغنا شيء عن فساد عقيدته وخبر الحاده في السنين العشر او العشرين الاولى من حكومته — حسب اختلاف المؤرخين — الا انه كان قد اعتزم سياسة منكرة معادية للشرع الاسلامي بعد اعتلائه سرير المملكة بقليل . اما الجهر بالالحاد فقد شرع فيه منذ عام ٩٨٧ هـ أي بعد بضع وعشرين سنة من حكومته . فاستيقن المسلمون من رعيته ان ملكهم يريد القضاء على دينهم . ومن أشهر من انتقد سياسته العوجاء وأنحى عليه باللائمة الشديدة ، المؤرخ الشهير الملا عبد القادر البدايوني « ت سنة ١٠٠٤ هـ » صاحب « منتخب التواريخ » وممن دافعوا عنه وآزروه ، نديمه ووزيره أبو الفضل « ت سنة ١٠١١ هـ » صاحب أكبر نامه ، وآئين اكبرى .

فلنشرع[1] الآن في بيان ماجاء به من المنكرات والبدع الشنيعة :—

(١) آثرنا ، توخيا للايجاز ، ان ندرج جل بدعه ومنكراته في سلسلة واحدة من غير تقيد بترتيب السنين والاعوام ، ثم نخص منهـا بالذكر مايهمنا ، وما كان له تأثير بليغ في تغيير مجرى الافكار وتعكير صفاء الجو . — المؤلف—

١ ـ ألغى الجزية على المشركين سنة ١٥٦٤ م ، فكأنه اراد ان يجعل المسلمين والهنادك من رعيته سواء في التمتع «بالحقوق المدنية» (Citizenship) حسب تعبير من يمجدونه ، لاعماله المنكرة المناقضة لروح الاسلام .
وذلك قبل ان يحظى ابو الفضل وفيضي بالمثول بين يدي الملك .

٢ ـ ألغى الضرائب التي كان أوجبها من قبله من الملوك على مواسم الهنادك ومواطن اجتماعهم . وكذلك أذن لهم في بناء معابد جديدة ، اذا شاؤوا .

وقد كان ذلك محظوراً في زمن من تقدمه من ملوك المسلمين . فبنيت معابد جديدة للهنادك وشيدت كنائس للنصارى وبيع للمجوس ودور عبادة لفرق أخرى غيرها من سكان هذه البلاد .

٣ ـ أباح المسلمين الجدد ان يرتدوا عن دينهم ويرجعوا الى أديانهم الأولى .

وكذلك سمح للنصارى ان يدخلوا في دينهم من شاء ذلك عن طيب قلب وصدق طوية .

٤ ـ أصدر مرسوماً عاماً بمنع ذبح البقرة لتعظيم الوثنيين اياها وعبادتهم لها ، وكذلك منع ذبح غيرها من الماشية في أيام مخصوصة «سنة ١٥٨٣/٩٩١ » ثم تقدم خطوة أخرى وحظر على الناس أكل لحوم الثيران والشياه والمعز والخيول والجمال سنة ٩٩٩ هـ وأيضاً أصدر أمراً ملكياً ان يمتنع الناس عن صيد السمك حينما زار كشمير سنة ١٥٩٣/١٠٠٠ م[1]

---

(١) ذكر بعض المؤرخين مرسوماً آخر بالمنع عن صيد السمك قبل هذا بكثير « أي سنة ١٥٨٣/٩٩٠ م » . ـ المؤلف ـ

ونقل البدايوني ان من ذبح المواشي في الايام المحظور فيها ذبحها ، كان يعاقب بالقتل ومصادرة أملاكه ، لكن الذين آلوا على أنفسهم ان لا يذكروه الا بالمدح والاطراء ، ينكرون ذلك ، وان كانوا يعترفون بانه كان منع الناس من ذبح الماشية في أيام مخصوصة .

وأيضاً يصر بعض من لا يهمهم الا تبرئة أكبر من تلك الأوامر المخزية أنه امتنع بنفسه عن أكل اللحوم ولم يأمر بذلك أحداً ، الا ان قولهم هذا لا يستند الى برهان ولا يمكن ان يدحض ماصرح به معاصروه من المؤرخين .

٥ ـ شارك في أعياد الهنادك ومواسمهم ، بل ضرب بسهم في العبادات والشعائر الخاصة بمن ينتمي الى مذاهبهم ، وقد اعترف أشد الناس دفاعاً عنه بأن مشاركته في احتفالات شيوراتري « Shivaratri » - أحد أعياد الهنادك ـ كانت لا تخلو من صبغة دينية[١] .

٦ ـ منع المسلمين من تزوج بنات العم والعمة والخال والخالة .

٧ ـ وكذلك منعهم من الختان .

٨ ـ حلل الخمر[٢] وأباح بيعها على مرأى من الناس ومسمع .

---

(١) Sherma ص ٢٩

(٢) وقد بلغت الوقاحة ببعضهم في الثناء على بدع أكبر ان تجرأ على التنديد بالملك المسلم عالمگير أورنك زيب (١٠٦٤ - ١١١٤ هـ) - وهو ابن حفيده - على منعه البات من بيع الخمر ومعاطاتها وامر بالعقاب الصارم لكل من يجترىء على ركوب هذه الدنيئة راجع Sherma ص ٣١ . - المؤلف -

٩ ـ أباح للبغـــايا والعواهر ان يتعاطين « أشغالهن » تحت رقابة الحكومة .

١٠ ـ وكذلك أباح الملك لرعيته ان يتعاملوا في مابينهم بالربا .

١١ ـ أباح للناس المقامرة وعقد مجلســاً خاصاً المقامرين في القصر الملكي . وبلغ من غوايته في هذا الباب ان كان المقامرون يقرضون من الخزانة الملكية بالربا .

١٢ ـ أسقط الاغتسال عن الجنابه ، بل رأى هو ومن تدين بدينه ان الاستحمام قبل الجماع أنسب وأوفق لطبائع البشر .

١٣ ـ شجع السفور والخلاعة ، بل ذكر البدايوني ان الفتيات أمرن بالكشف عن وجوههن اذا خرجن لحاجة عرضت لهن .

١٤ ـ أفتى بجواز نكاح المتعة كما تقول به الشيعة في بلادنا .

١٥ ـ أصدر أمراً ملكياً بمنع تعليم اللغة العربية ، وكذلك بالغ في تطهير الفارسية من الكلمات العربية الخالصة ، كالذي كان ولايزال الملاحدة والشعوبيون في تركيا وايران يتشدق به .

يقول أحد من آلى على نفسه ان لايجد في سيرة هذا الملك الغر عيباً الا وبذل الجهـــد المستطاع في الدفاع عنه ، اما بتكذيب الرواية او تأويلها ـ يقول هذا الكاتب : « ان أمر أكبر هذا أشــبه بجهود « المطهر » « Purist » العصري » الذي يريد ان يجعل الفارسية نقية غير مشوبة[1] ، فلايفرح اعداء العربية في تركيا وبلاد فارس ولايتشــمخوا

---

(١) شرما : ص ٣٣ .

بأنوفهم اعجابا بأنفسهم أنهم هم الذين تولوا كبر هذه البدعة الشنعاء في هذا العصر ، فان هـــذا الملك المعتوه الغر قد سبقهم الى هذه السفاهة بأربعة قرون .

ثم يشفع هذا الكاتب الهندكي رأيه بما يأتي : ـ

« ولكن ليس هناك مايحقق ان أمر الملك هذا قد اتبـع ، كما يريد البدايوني ان نوقن به ، فانه قدوصلتنا « فرامين » أي « مراسيم ملكية » عديدة من عصره فيها كلمات عربية خالصة لم يمسـها قـــلم التحريف او التغيير أصلاً[1] »

قلنا « نعم ! قد قلت حقـاً ، ولكن الكلمات العربية ماوردت في « فرامينه » ومن نحا نحوه من أذناب الشعوبية في عصرنا هذا عن حسن قصد منهم ، وانمـا هي العربية الفصحى وغزارة مواردها وتمكنها من أساليب البيان المتشعبة وتغلغلها في عروق لغاتهم واصطباغ مناحي كلامهم بصبغتها هي التي تجعل من كلماتها العريقة في العروبة جيشاً عرمرماً يدخل حصون كلام الفرس والترك والهنود وغيرهم من أمم الشرق والغرب ـ ولاسيما المتمسكين بالاسلام منهم ـ فتحل منه المحل اللائق بصفائها وبهجتها وتتبوأمنهـــا حيث تشاء ، وأنف أعداء العربية راغم ... نعم ! أراد أكبر وحاشيته منذ أربعة قرون ، وكذلك اعتزم رجال تركيا الجديدة في هذا العصر ، واقتفى أثرهم أهل فارس ، ان يطهروا لغاتهم «المقدسة» من أرجاس العربية ، بزعمهم ، لكنهم أخفقوا في مسـعاهم ، وهيهات ان

(١) شرما : ٣٤

ينالوا بغيتهم مع تشدقهم بنجاحهم في كل مكان[1]

وقد شاهدت ذلك في صحف تركيا الجديدة ومؤلفات ايران الحديثة فانها ملآى بالكلمات الضادية بالرغم من جهودهم ومساعيهم المشؤومة

١٦ – ومن أكبر المنكرات التي فشت في عصر هذا الملك المعتوه وعمت فأضلت، كثيراً من الناس، سجدة التحية للملك. فكان العلماء والمشايخ والصوفية والامراء والاعيان كلهم يخرون للملك سجداً، كلما دخلوا عليه الباب. ومن البلية ان علماء السوء اولئك جعلوا يؤولونها وأرادوا ان يتستروا وراء كلمات (سجدة التحية) وزمين بوسي (تقبيل الارض). وبئس مافعلوا ان حرفوا الكلم عن مواضعه وسموا هذا الشرك الفظيع سجدة التحية وتقبيل الارض او ماشاؤوا وشاءت أهواءهم وهاك مايقول في هذه البدعة الشنيعة من يبالغ في الثناء عليه لكل ماجاء به من بدع ومنكرات: –«لقد أدخل أكبر عادات (Ceremonies) جديدة في البلاط الملكي والمجالس الملكية، وقد روج من قبله والده همايون التسليم راكعاً منحنياً، وهذا الذي كانوا يسمونه بـ(كورنش)[2] فما كان من أكبر الا انه جعلها عامة. لكن المسلمين أبوها لكونها

(١) ومن تشدقهم بنجاحهم في هذه المهمة المشؤومة ان وفدا من رجال صحافتهم جاء الى بلادنا في بداية الحرب الماضية الكبرى فأذاع رئيسه ذلك وافتخر بتطهير اللغة التركية من الكلمات العربية.

(٢) السلام راكعاً منحنياً –المؤلف–

مخالفة للشرع الاسلامى ، مع ان كبار العلماء أمثال تاج الدين الدهلوي[1] أفتوا بجوازها . فانقطع الملك عن هذا على مرأى من الناس ومسمع ، لكن العمل بها بقي جارياً في داخل البلاط الملكي . أما الذين كانوا يرون في هذه الصنيعة المهينة للشرف واباء النفس حرجا من الوجهة الدينية فما كانوا يجبرون عليها .

وقد اصبحت هذه السجدة التكريمية اسلوباً متبعاً في التسليم على الملك . وبقي العمل به جارياً زمن جهان كير بن أكبر (١٠١٤ - ١٠٣٧ ﻫ) . اما شاه جهان بن جهان كير (١٠٣٧ - ١٠٣٨ ﻫ) ، فأعطى العلماء من هذه السوأة اعفاء ، لكن هذه الطريقة بقيت للعامة زمناً قليلاً من عصره ايضاً[2] .

---

(١) هو تاج الدين بن الشيخ زكريا الاجودهني الدهلوي ، وكان يلقب بتاج العارفين . كان على طريقة الشيخ ابن عربي ولم يكن يتقيد بأوامر الشرع . وهو الذي زين للملك العصمة والكمال في نفسه وافتى بجواز السجود له . وحذا حذوه الشيخ يعقوب الكشميري وغيره . (ملخصاً من منتخب التاريخ للبدايوني : ج ٢ : ص ٢٥٨).

(٢) «شرما : ص ٣٦ » ومما يناسب ذكره في هذا المقام ان الملك جهان كير «١٠١٤ - ١٠٣٧ﻫ » بن أكبر قد اعفى كبار رجال الدين كالقضاة من سجدة التحية . ويمكن ان يكون قد اتفق ذلك بعد اضطهاد المجدد السرهندي « ف ١٠٣٧ﻫ » لأجل ذلك ، كما سيأتي . اما شاه جهان « ١٠٣٧-١٠٦٨ » فانه وان الغى هذه السجدة الملعونة للملك فقد بقيت طرق السلام في عصره متشبعة بروح الوثنية . والحاصل انه ماقضى على هذه البدعة قضاء تاماً الا الملك الصالح عالم كير أورنك زيب «١٠٦٨ -١١١٨ ﻫ) بن شاه جهان . راجع شرما Sherma ص ٣٦، ٥٨، ٩٥ .
- المؤلف -

لايحتاج هذا البيان الى نقد أو ايضاح . والذي نعرفه أن العلماء والعامة كلهم كانوا يجبرون على السجدة في عصر الملك أكبر . ومن المؤلم الموجع أن علماء السوء والمشايخ في عصره أفتوا بجوازها ؛ وقالوا « ان هذه رخصة والعزيمة ترك السجود » وهذه هي الحيـل والتحريفات التي أودت بالمسلمين ونزلت بهم الى هذا الدرك الأسفل من سوء الأخـــلاق وانحطاط الآداب . وان نعجب ، فعجب قول بعض العلماء المعاصرين — وهو يندد بأعمال اكبر وينوه بجهاد المجدد السرهندي (ت ١٠٣٤ هـ) في عصر جهان كير (١٠١٤ – ١٠٣٧ هـ) ويثني على إبائه السجدة للملك « أن المجدد السرهندي استمسك بالعزيمة ، فلم يرض بسجدة التحية للملك التي هي رخصة وضغث على إبالة أنه نسب[1] هــــذا القول الى السيد المجدد نفسه من غير أن يذكر المرجع الذي عول عليه . فليت شعري[2]

---

(١) راجع مجلة الفرقان (عددها الخاص بذكر المجدد)ص١٩١ .

(٢) لقد بحثنا في هذه المسألة بحثاً وسألنا من أصدقائنا من لهم اطلاع واسع على مكتوبات المجدد ، فقالوا كلهم انهم لم يطلعوا على شيء من مثل هذا البيان . والذي كتبه في رسالة له الى المير محمد نعمان ، مستنكراً هذه السوأة الشنيعة « ان بعض الفقهاء وان كانوا يجوزون سجدة التحية للملوك الخ » (ج ٢ : المكتوب رقم ٩٢) ، فلعله أراد ببعض الفقهاء تاج الدين الدهلوي ومن على شـاكلته من علماء السـوء وكلاب الدنيـا في عصر أكبر . —المؤلف —

ما الذي يجعل هذا الشرك الفظيع رخصة ولو أفتى[1] به سائر مشايخ الهند وعلمائها من لدن عصر همايون (ف ٩٦٤ هـ) الى عصر جهان كير (ف ١٠٣٧ هـ).

١٧ - كذلك اختار طريق الهنادك الوثنيين في الصدقة بان عمل به (قوله دان) ، وذلك ان الملك كان يوزن بالذهب والفضة وغيرهما من الجواهر الثمينة ويتصدق بذلك على المساكين والفقراء ، لافرق فيه بين المسلم والكافر » .

وكانوا يزعمون أن هذه الصدقة تكون لصاحبها رداءً ووقاية من نوائب الدهر .

ثم جرى من جاء بعده على خطته حتى أن الملك المسلم أورنك زيب (١٠٦٨ - ١١١٨ هـ) أيضاً اباح العمل بها في السنين الأولى من

---

(١) ذكر ذلك الكاتب في مجلة الفرقان « ان المفتي عبد الرحمن أفتى بجواز سجدة التحية مستدلاً بنصوص من كتب الفقه » فالذي أراه ان كتب الفقه التي تقول بجواز السجدة للبشر جديرة بان تخرج من دور الكتب وتحرق في الاسواق . وانما الدين ماورد به كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله عليه وسلامه . ومـا لايوافقها من أقوال الناس ما أحراه ان يضرب به عرض الحائط . اما ماعزاه الكاتب الى السيد المجدد من قوله « ان سجدة التحية للملوك رخصة » فالغالب انه قد اخطأ في عزوه اليه . والله عنده علم الصواب . والذي نعرفه ان الفقهاء صرحوا بتحريم سجدة التحية ، ومنهم من كفر فاعلها وقد نص السرخسي (ت سنة ٤٨٣ هـ) في المبسوط ٢٤ : ١٣٠ ، باب مايخطر على بال المكره من غير ما أكره عليه « ان من سجد لغير الله على وجه التعظيم كفر » .
- المؤلف -

حكومته [1] .

١٨ ـ أوجب على خاصته ورجال حاشيته أن يرتدوا الملابس الحريرية أثناء الصلوات .

١٩ ـ ألغى بعض أركان الاسلام .

٢٠ ـ منع الصلاة والاذان في دارالشورى الملكية «ديوان خانه ـ Assembly Hall »

٢١ ـ حظر على الناس أن يصوموا في شهر رمضان .

٢٢ ـ منع الناس من أداء فريضة الحج . وبلغ الامر به في ذلك عام ١٠٠٤هـ (٦ ـ ١٠٩٥ م) ان كان يعاقب كل من اجترأ على ذكره بأشد أنواع العقوبة [2] .

٢٣ ـ تعطلت اعياد المسلمين وانقطع الاحتفال بها في عصره ،

---

(١) شرما : ص ٣٧ – ٣٦ : لقد ذكر شرما ان اورنك زيب الغى هذه البدعة في العام الثاني عشر من حكومته (ص ١١٥) . ويؤيده ماجاء في تبصره الناظرين للسيد محمد بن عبد الجليل البلكرامي من الغائه هذه البدعة . لكنه يعود فيقول ان العمل بهذه الطريقة بقي جاريا فيعصر أورنك زيب . والظاهر انماجاء من تأييده لهذه البدعة أو سكوته عليها كان قبل العام الثاني عشر من توليه الامر . والله عنده علم الصواب .

(٢) كل ما اوردناه من اضطهاده للاسلام والمسلمين في المادة الـ ١٨ الى المادة الثانية والعشرين ، ذكره معاصروه من المؤرخين الاثبات ؛ لكن حماته ينكرونه أو يؤولونه تأويلا لا يؤيده الواقع . (راجع شرما : ص ٤٤-٤٣) . ومن غريب المصادفات ان حكومة روسيا الشيوعية ايضاً تعاقب رعايا المسلمين على أداء فريضة الحج ولا تسمح بذلك . فما اشبه الليلة بالبارحة . وكذلك حكومة تركيا الجديدة كانت تمنع رعاياها المسلمين من اداء فريضة الحج ، الا انها ادركت خطأها ، واخذت تسمح لاهلها بزيارة بيت الله الحرام وأداء مناسك الحج . —المؤلف—

٢٤ - غير أسماء النبي (ﷺ) والصحابة (رضوان الله عليهم) التي يتسمى بها المسلمون عامة واستبدل بها أسماء أخرى غيرها ، ليشفي بعض ما في صدره من بغضاء للاسلام والمسلمين ، وهاك ماقاله عبد القادر البدايونى ، وهو المؤرخ الثقة الثبت في هذا الباب :

« لقد شق على الكفار ومن في بلاطه من الأميرات الوثنيات اسماء أحمد ومحمد ومصطفى ، حتى انه غير اسماء بعض من كانوا يتسمون بها من خاصته ، أمثال بار محمد ومحمد خان ، فانه كان يدعوهما بـ رحمة نطقا وكتابة (٢ : ٢١٥) »

تحولت المساجد الى مرابط للخيول (اصطبلات) واستولت الهنادك على كثير منها .

ومن حيث ان هذه الجريمة مما يندى لها جبين المروءة خجلاً ، يجمل بنا ان نشفع هذا البيان بتصريح من السيد المجدد السرهندي (ت سنة ١٠٣٤ هـ) ، حتى لايبقى مجال لقائل : —

كفار نبدبي تحاشا بدم مساجد ى نمانيدو آنجا تعمير معبديات خود سازند ونيز كفار برملا واسم كفر بجاى آرندو مسلمانان در اجرات اكثر أحكام اسلام عاجز اند (مكتوبات المجدد : ٢ ، ١٦٢)

يهدم الكفار المساجد من غير محاباة ولاوجل ، ويبنون مكانها معابدهم وأيضاً يؤدون شعائرهم من غير ماعنت ولاقيد ويظهرون شعائر الكفر علناً . اما المسلمون فهم قاصرون عن تنفيذ معظم أوامر الاسلام مغلوبون على أمرهم .

وأي عار أشنع من ذلك لمملكة على رأسها رجل يتسمى بأسماء المسلمين وحوله لفيف من العلماء والمشايخ والاعيان مؤيدون له على سيآته او ساكتون عن ذل واستكانة وان تعجب فعجب وقاحة من يدافع عن هذا المنكر الشنيع أيضاً. يقول أحد حماته: « يمكن ان يكون ماجاء عن تحويل المساجد ودور العبادة (Prayer Rooms) الى مرابط للخيول صحيحاً في بعض الاحوال، حيث اقتضت مساحة أكبر ان لا يبقى مسجد في الاحياء المخصوصة بالهنادك، فان في ذلك ضرراً لسياسة البلاد، ولا يرتجى فائدة من وجود المساجد بأحياء معمورة بالهنادك[1] .

٢٦ – رغب الملك رجال مملكته – بل أمرهم في بعض الاحوال – بحلق اللحية. وذكر المؤرخون ان الملك ورجال حاشيته كانوا يستهزؤون باللحية .

٢٧ – أبيح للناس ان يأكلوا لحوم النمر والخنازير الضواري .

هذا برض من عد وغيض من فيض. ولو ذهبنا نفصل القول في ما أتى به هذا الملك الغرر من البدع والمنكرات، لاستغرق مجلدات. فلنعد الآن الى السوأة الصلعاء والجريمة الكبرى التي اقترفها هذا الملك فباء بإثمها وإثم من اقتفى إثره وحذا حذوه، ألا، وهو اعلانه بالقضاء على الاسلام وتأسيسه لدين جديد، سماه « الدين الالهي » وقد سبق لنا في ما تقدم ان ذكرنا كثيراً من البدع والمنكرات التي تولي كبرها بعد تأسيس الدين الجديد، ولذلك لن يكون كلامنا عن هذا الدين الجديد الا اجمالياً .

(١) شرما : ص ٤٥ .

مرسوم العصمة

فلنبدأ بذكر محضرنامه او (مرسوم العصمة) الذي ما كان الا تمهيداً لسبيل الالحاد والاعلان بالدين الجديد . وكان ذلك بأن أعد الملا مبارك الناكوري (ف سنة ١٠٠٣ / ١٥٩٣)والد الشقيقين الشهيرين أبيالفضل (ف سنة ١٠١١ ﻫ) وفيضي (ف ١٠٠٤ﻫ) وزيري الملك ، مرسوماً في رجب عام ٩٨٧ﻫ / ١٥٧٩ م ، يخول المالك حق الاجتهاد ويصعد به الى مستوى الامام العادل المنزه عن الاخطاء .

أما حق الاجتهاد للامير العادل وأهل الحل والعقد من رجاله في ما يتجدد من وسائل ومشاكل ، فلا كلام لنا فيه ، بل الحق أن كل مااعترى الفقه الاسلامي من الجمود وخمول الذكر ، انما هو لانعدام روح الاجتهاد وتطلب الحق في الفقهاء المتأخرين ؛ لكن البلية ، كل البلية ، ان الملك أكبر كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة ، ولا علم له بالدين الا ما يملي عليه رجال حاشيته وندماؤه . فما كان يرجى من مثل هذا المرسوم الا أن يكون شؤماً وتعسا على الدين والمستمسكين به ووسيلةناجعة بيد الملك للقضاء على سلطان الشرع الاسلامي وافحام من ينكر عليه شيئاً من أعماله .

كتب الملا مبارك الناكوري هذا المرسوم أو محضر نامه حسب تعبيرهم بالفارسية — بقلمه ليقدمه العلماء والاعيان الى سدة الملكالسنية ، يخولونه بذلك حق الاجتهاد ويعلنون على ملأ من الناس ان الملك اكبر

إمام عادل مجتهد ظل الله في الارض قد بلغ منتهى شأو المرتمى في الاجتهاد واستوفى الغاية في الاطلاع على دقائق الشرع ، لا يفوقه احد ولا يغلب رأيه رأي . وغيرخاف على من له أدنى معرفة بالدين والشرع مافي هذا المرسوم من جرائيم الفساد.

لكن علماء السوء من كلاب الدنيا في عصره - أمثال عبد النبي صدر الصدور (ت سنة ٩٩٢هـ) ومخدوم الملك (ت سنة ٩٩٠ هـ)وجلال الدين الملتاني ، قاضي القضاة وغيرهم لم يتحرجوا في تأييد المرسوم والتوقيع عليه ، ولم يتلجلج في صدورهم من امره شيء . وذلك كله خوفاً [١] من اضطهاد الملك ورجاله .

واليك نص المرسوم بعد التعريب - والاصل بالفارسية :-

« ومن حيث ان الهند العزيزة - وقاها الله شرور الدهر - أصبحت اليوم في غاية من الدعة والامن ويكاد يضرب بها المثل في العدل والكرم ، قد نزح اليها عدد غير قليل من رجال العرب والعجم ، العامة منهم والخاصة ؛ وفيهم من تبوأ ذروة المجد العلمي وحاز قصب السبق في مضمار البحث والتحقيق - نزحوا اليها وتوطنوها ، بعدما هاجروا من بلادهم وفارقوا منابت عزهم .

والآن ، جمهور العلماء ، من الذين تضلعوا من العلوم النقلية وفاقوا

---

(١) يقال ان كثيراً من علماء عصر اكبر ما وقعوا عليه الا كرها . لكن ذلك لايهمنا في قليل ولا كثير . والذي يعنينا في هذا المقام ، هو ان علماء السوء في عصره لم ينكروا عليه هذه الخطة المشؤومة ولم يخالفوا عن رأيه وامره .

أقرانهم في الفنون العقلية وعرفوا بالورع والامانة وصدق الطوية ، يعلنون بعدما تدبروا معاني الآية الكريمة (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم*) وامعنوا في مغزى الاحاديث الشريفة (إن أحب الناس الى الله يوم القيامة إمام عادل [1]) و (من يطع الامير فقد اطاعني ومن يعص الامير فقد عصاني [2]) .

وتفطنوا الى غيرها من الشواهد العقلية والدلائل النقلية - يعلنون بعد كل ذلك :

« ان السلطان العادل ، أرفع درجة عند الله من العالم المجتهد . وكذلك يصرحون ان سلطان الاسلام ، امير المؤمنين ، ظل الله في الارض ، الملك الغازي أبا الفتح جلال الدين محمد أكبر - خلد الله ملكه - أعدل الملوك وأعقلهم وأعلمهم .

فاذا عرضت مسألة من المسائل التي تضاربت فيها أقوال الائمة المجتهدين وأراد الملك ان يعزز جانباً او يرجح رأياً ، مستنداً الى ثقوب ذهنه ونضوج رأيه - اذا عرضت مسألة كهذه وقطع الملك فيها بشيء تسهيلاً

(١) الحديث رواه الترمذي في أبواب الاحكام .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الامارة ، باب وجوب طاعة الامراء في غير معصية ولفظه : ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وادناهم منه مجلساً إمام عادل وابغض الناس الى الله تعالى وابعدهم منه إمام جائر (ج ١ ص ١٥٩) . -المؤلف-

- رواه احمد في مسنده والترمذي في سننه.

- سهى المؤلف فلم يخرج الحديث المشار اليه برقم ٣ وكرر ذكر الحديث السابق له نص الحديث : « من اطاعني فقد اطاع الله ومن يعصني فقد عصى الله ومن يطع الامير فقد اطاعني ومن يعص الامير فقد عصاني » . صحيح مسلم كتاب الامارة ج ٣

* سورة النساء آية ٥٧ . - الناشرون -

للعامة وتحسيناً لادارة الملك، وجب على الجميع الخضوع لأمره و العمل به .

و كذلك اذا أصدر الملك أمراً لايعارض النص ويكون فيه ترفيه عن الامة وجب العمل بمقتضاه على كل واحد ، والذي يخالف عن أمره من رعيته ، يستحق العذاب في الآخرة والخسران في الدين والدنيا جميعاً .

قد كتب هذا المرسوم ابتغاء لمرضاة الله واعلاء لكلمة الدين . وهانحن عيون علماء الاسلام في هذا العصر ، قد زكيناه وصدقناه . وذلك في رجب «عام ٩٨٧ هـ» .

انتهى المرسوم بقضه وقضيضه .

فأنت ترى مافي ثناياه من دواعي الفساد والالحاد في الدين . ولا شك أن هذا المرسوم المشؤوم كان أول خطوة في سبيل تأسيس الدين الالهي الجديد .

ومن غرائب ماروي عن هذا الملك المعتوه أنه أراد ذات مرة أن يقوم خطيباً يوم الجمعة ـ وذلك بعد صدور هذا المرسوم أو بعده بقليل ـ زعماً منه أن وقوفه موقف الامام يزيده قوة الى قوة في دعوى الاجتهاد ، و كتب له نديمه فيضي (ت سنة ١٠٠٤ م) خطبة منظومة بالفارسية ، لكنه ما كاد يقف على المنبر ويشرع في القاء الخطبة ، حتى تزلزلت قدماه وألقي في قلبه من الرعب ما أذهله عن نفسه ، فاضطر الى النزول عن المنبر والتنحي عن مثل هذه المواقف .

الدين الالهي

بعد ثلاث سنين من ظهور مرسوم العصمة ، أعلن الملك بالدين الجديد المعروف بالتوحيد الالهي أو الدين الالهي ، وذلك أن رجال حاشيته ـ وعلى رأسهم وزيراه فيضي وأبو الفضل ـ وسوسوا في صدره أنه قد مضى الف سنة على دين الاسلام وانكشفت شمس مجده بتمام الألف الأول من بعثة النبي الأمي ، والآن آن له أن يتولى الزعامة الدينية ويرشد الناس الى الطريق الأقوم .

وقد تقدم ذكر كثير من البدع التي ابتدعها اكبر قبل الاعلان بالدين الجديد وبعده وسردناها كلها في نسق واحد ، فنحن الآن في غنى عن اعادتها ، الا أنه لابد لنا من الاشارة الى بعض المعتقدات والاعمال التي جعلها أساساً لبنيان « الدين الالهي » .

ضمنها الشرك بالله تعالى شأنه بحيث لايقبل التأويل . ذكر المؤرخون أنه « كان يعبد الشمس أربع مرات كل يوم . وكان يكرر أسماء الشمس الهندية التي يبلغ عددها الفاً ووحداً . وكلما ذكرت الشمس قالوا : جلت قدرتها (والعياذ بالله) .

وكذلك كان يعبد النار والماء والحجر والشجر وسائر مظاهر الطبيعة ، الا انه كان يغلو في الشمس ، فكان يعتقد فيها أنها المتصرفة في في العالم ، واهبة النعم ، المظلة على الملك بظلال ربوبيتها .. الى غيرها من الخرافات » .

وللناس أقاويل في الدفاع عنه والثناء على خزعبلاته ، ورأيي أنه كان مجنوناً في باب الدين ، لايكاد يركن الى شيء . ومما يؤثر عنه في جنونه الديني أنه قال ذات مرة « أي حاجة الى الدعاء ، اذا كان الله علام الغيوب ؟» ثم شوهد أمام الشمس وبين يدي النار أخرى يعبدهما ظاناً منه بأنهما رمزان للألوهية - كما سبق .

فياليت شعري لماذا تخصيص هذا الرمز بالشمس والنار ؟ أفليس كل خلق الله رمزاً وآية ؟ اولا يكون ذلك مفضياً الى اعتبار ذلك الرمز هو المعبود - أعاذنا الله من ذلك .

ثم تقدم خطوة أخرى وانحاز الى تأليه السيدة مريم بنت عمران وعبادة الكواكب « بل بلغت منه السفاهة ان جعل يقدس عقله الواهي ، وهو الذي أفسد عليه كل شيء . والذي ذكرته عن مصابه في عقله ، اعترف به أشد الناس دفاعاً عن ضلالاته . وهاك مايقول أحدهم :

« نحن نعترف بأن أكبر ، شأن سائر الملوك ، كان شديد التأثر بمدائح ندمائه . فلاغرو ، اذا وجدناه قد سكر بنشوة الفتوح ومآثره الجليلة وصدمته حميا الكأس ، فدخله شيء من الخبل فجعل يزعم أنه بوسعه ان يأتي بالمعجزات والاعمال الخارقة للعادة»[١] . بقي لنا ان نذكر الميثاق الذي كان يأخذه على نفسه كل من أراد ان يدخل في هذا الدين وهو :

« أنا ، فلان بن فلان .. أتبرأ من دين الاسلام التقليدي والمجازي ، الذي ورثته عن آبائي وأدخل في (الدين الالهي الاكبر شاهي) وأقبل

(١) شرما : ص ٥٣

الاركان الاربعة التي هي من مراتب الاخلاص في هذا الدين – وهي ترك المال والنفس والعرض والدين » .

والذين كانوا يدخلون فيه ، كانوا يسمون «جيله» أي (المريد) حسب اصطلاح البوكيين – الفقراء الهندكيين ، الا انه لم (يتشرف) بهذا اللقب الا ثمانية عشر رجلًا من بطانته ، كلهم من المسلمين الا واحداً ، وهو نديمه الظريف بيربر . وليس معنى ذلك ان الملك أكبر لم ينجح في اضلاله الناس . فانه وان لم يؤمن بدينه الا ثمانية عشر رجلًا ، قد تأثرت الحياة الاجتماعية بضلالاته أي تأثر ، فقد تبدلت الارض غير الارض ولا غرو ، فقدما قيل : « الناس على دين ملوكهم » .

ومن سيآت هذا الدين وأهله انهم استبدلوا بالسلام سنة الاسلام، كلمة « الله أكبر » يرمزون بها الى تأليه أكبر نفسه ، وكانوا يردون هذه التحية الاكبرية بكلمة « جل جلاله » لكون « جلال الدين » لقباً للملك . وكذلك ضربوا على السكة هذا الشعار (الله أكبر) فالويل لمن انخرط في سلكه وانضم الى أنصاره .

ومن إمارات هذا التأليه الممقوت سجدة التحية للملك ، التي أتينا على ذكرها فيما تقدم .

وروى الثقات أنهم أرادوا في سنة ٩٨٧ هـ – اي السنة التي صدر فيها مرسوم العصمة – ان يزيدوا كلمة « أكبر خليفة الله » الى الكلمة الطيبة « لا إله الا الله محمد رسول الله » ، لكنهم لم يروجوها خارج البلاط الملكي حذراً من غضب الجمهور .

ومن نتائج هذا الالحاد وتأسيس الدين الجديد ان الغي التقويم الاسلامي واتخذ تقويماً جديداً ، وجعل بدأه سنة اعتلائه لسرير الملك وسماه « التاريخ الالهي » .

هذا قليل من كثير من فتنة الدين الالهي المشؤوم . وقد توخينا الايجاز في هذا الباب . ولوذهبنا نصف كل مامني به الاسلام في عصر هذا الطاغية من جراء هذا الدين الكاذب لاستغرق أسفاراً ومجلدات .

ومما يجمل بنا الاشارة اليه فيختام هذا الفصل ان الحياة الاجتماعية في هذا العصر قد اصطبغت بالصبغة الهندكية الوثنية أيما اصطباغ ، ولم يبق للاسلام فيها عين ولا أثر ، حتى ان أبنية المساجد المبنية في بداية عهده كانت أشبه بمعابد الهنادك منها بالمساجد كما صرح به (Hamell)[1] أحد المعجبين بالفن الهندي (Hindu Art) ومن مظاهر هذا الارتداد الاجتماعي ان كلمة (الله أكبر) اصبحت شعاراً للكتاب والمصنفين يبدأون بها كتاباتهم ، يريدون بذلك تأليه الملك ، ولو من طرف خفي . وقد شاهدت بنفسي عدداً غير قليل من المخطوطات التي نسخت او قدمت الى الخزانة الملكية في عصره ، فوجدت جميع التوقيعات والامضاءات عليها مفتتحة بهذا الشعار .

---

(١) A Hand Book of Indian Art ص ٦٥

وكذلك شاهدت بأم عيني توقيعات للملك [1] نور الدين جهان كير ابن الملك أكبر ، مفتتحة بكلمة ، الله أكبر ؛ وغنى عن البيان ان كل هذه التوقيعات والامضاءات خلو من (بسم الله الرحمن الرحيم) .

ومن عادة الكتاب المسلمين أنهم يبدأون كتبهم بالثناء على الله بما هو أهله والصلاة والسلام على النبي الامي (ﷺ) ؛ لكن الكتاب المنتمين الى البلاط الملكي في عصر أكبر وتلامذتهم ربما يشرعون في كتاباتهم بأسماء آلهة المشركين ، لا سيما اذا كانت كتبهم مترجمة من السنسكريتية أو الهندكية .

ذكر الكاتب الهندي المحقق الدكتور تاراحيذ - وهو المعدود من منصفي كتابهم - وهو يثني على هذه (الوحدة الثقافية) التي تجلت بأجلى مظاهرها في العصر الاكبري ومؤلفاته : -

« ومما يلفت نظر الباحث ويأخذ بمجامع قلبه ، هو طريق كتاب
« الهندكية والفارسية في الثناء على الخالق ؛ فانهم ما كانوا يحمدون الله
« ويرفعون أكف التضرع والابتهال اليه تعالى شأنه حسب معتقدهم ،
« بل حسب ماتقتضيه آداب اللغة التي يكتبون بها . فالمسلمون
« والهنادك جميعاً ، اذا كتبوا بالفارسية بدأوا بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) ؛
« واذا قدحوا زناد الخاطر بالهندكية ، بدأوا بتوجيه المدح وكلمات

(١) وذلك في الخزانة الشرقية العمومية في عظيم أباد (تبنة) من بلاد شرقي الهند راجع نسخة ديوان كامران الوحيدة ونسخه ديوان حافظ الفريدة وكلتاهما من أنفس نفائس هذه الخزانة .

الاطراء الى آلهة الهنادك مثل (كنيش) و (سرسوتي) [1] .

وأورد تاراحيذ أمثلة وشواهـد من كتاباتهم ، يطول الكلام بذكرها . والذي نريد أن نعيـده في هـذا المقـام ونقرره هو ان هـذه الوحدة الثقافية والصبغة الهندكية هي التي كانت ، ولا تزال ، بلاء عظيما على الاسلام والمسلمين في هذه البلاد . وقد تأصلت جذور هـذه الشجرة الخبيثة في المجتمع الاسلامي الهندي بتطاول الايام وتهاون العلماء في شأنها ، بحيث لم يتمكن المصلحون الى الآن من اجتثاثها واستئصال شأفتها .

جهان كير بن اكبر ١٠١٤ — ١٠٣٧ هـ

مات الملك أكبر سنة ١٠١٤ هـ/ ١٦٠٥ م وخلفه من بعده ولده سليم وتلقب بنور الدين جهان كير . فاقتفي إثر أبيه وحذا حذوه في عدم الاعتناء بالدين ؛ بل زاد الطين بلة في عصره بأن تطاولت الشيعة بأعناقها وتطلعت الى تسلم زمام الامر والنهي في الملك لمكانة حظيته نور جهان [2] من قلبه ؛ حتى ان كبير دعاة الروافض ، نور الله الشوستري (ف ١٠١٩/ ١٦١٠) عين رئيساً للقضاة . ولك ان تقدر ما آل اليه الامر في عصر هذين الملكين — عصر الملك أكبر وبداية جهان كير — بما كتبه [3]

(١) الخطبـة الرئيسية للمؤتمر التاريخي ، المنعقد في ديسمبر سنة ١٩٣٩ م (في الفرع المختص بالحكومة المغولية) : ص ١٧-١٦ . — المؤلف —

(٢) يقال انها هي التي كانت تسير دفة الحكم وتسوس البلاد وجهان كير غارق في بحار الملذات . وكانت شيعية ذات جمال بارع وذكاء مدهش توفيت سنة ١٠٥٦/١٦٤٥ الميلادية.

(٣) في شرح الرسالة — رسالة «رد الروافض » التي هي بالفارسية للمجدد السرهندي .

— المؤلف —

الامام ولي الله الدهلوي (ف ١١٧٦ هـ) :

« وتولى السلطنة بعده ولده أكبر فتزندق وارتفعت راية الجهل والضلال وثاب من كل أوب أهل الملل المختلفة والمذاهب الباطلة وعظمت الفتنة وتولى بعده ولده جهان كير ، وكان ماجنا مدمناً للخمر ،فرفعت الهنود رؤوسها ونصبت الروافض رؤوسها (كذا) وضيعت الديانات »الخ اقرأ هذا النقد الصراح ثم انظر الى الذين يقولون ان الامام الدهلوي قد أكمل بناء الصرح الديني الذي أسس بنيانه الملك أكبر [1].

وان تعجب فان الدهر لاتنقضي عجائبه ، رجل عالم مطلع على التاريخ ، عارف بمواقع الكلام ، يقول ويجاهر ـ ولفيف من تلامذته يتشدقون بأقواله ـ بأن الملك اكبر هو أول من أسس بنيان الحكومة الاسلامية الهندية ، وأن الامام ولي الله الدهلوي أراد أن يتم العمل الذي ابتدأ به هذا الملك الغرير .عجيب ورب الكعبة أن يتقول على الامام ولي الله مثل ذلك ، والامام نفسه يصرح في مؤلفاته بزندقته ومروقه من الاسلام ، وهاك نص ماجاء في كتابه (أنفاس العارفين) ،

---

(١) مولانا عبيد الله السندي ومن حذا حذوه في مؤلفاتهم ومقالاتهم . راجع كتاب (مولانا عبيد الله سندهي) لتلميذه وراويته محمد سرور - المؤلف -

جلال الدين اكبر باد شـــاه أورا معظم ومفخم واشتي وبعد ازان كربادشاه الحاد وزندقد كرفت ، آل رشتدالفت زيم كسست وتنفر تمام از بردو جانب بظهور بيو ست (ص ١٦٠)	وكان الملك جلال الدين اكبر يجله ويكرمه ، ولكنه لما سلك الملك طريق الالحاد والزندقة انقطع الحبل بينهما انقطاعاً تاما وظهرت الجفوة من كلا الجانبين (ص ١٦٠)

أو بعد هذا وذاك يقال ان مملكة اكبر كانت مملكة اسلامية ؟ كلا ! بل الف كلا !! وان كانت حكومة اكبر حكومة اسلامية ،فعلى الاسلام والدنيا السلام ،



الفصل الرابع

بدء الإصلاح الحقيقي

بسم الله الرحمن الرحيم

المجدد السرهندي

هانحن الآن قد بلغنا من تاريخ الهند الاسلامية منزلاً تتشعب فيه المنـاهج وتفترق منه الطرق وينبثق فجر الاصلاح الحقيقي لاول مرة في تاريخ الهند .

ومن سنة الله أنه لا يرسل السماء مدراراً الا بعد ماتحمى الارض وتصير جرداء قاحلة ، متعطشة الى رحمة من ربها ، وكما ان اشتداد الظلام يؤذن دائماً بانبثاق الفجر ، وظلم الحوادث الحالكة تكشف عن فرجة ذات أمان وآمال ، كذلك جرت الحوادث ببلادنا في منبثق القرن الحادي عشر للهجرة ، فبينما بلغ الاضطهاد الديني أشده وتنكرت وجوه أعيان المملكة وأمرائها للدين الحنيف وأهله وضرب المتصوفون بالشريعة السمحة عرض الحائط وأمعن العلماء في التكالب على شهوات الدنيا الدنيئة وتنكبوا واجب القيام بالدعوة (وأفضل [1] الجهاد) فأصبح القـابض على الدين قابض على الجمر ، واحتاجت الامـة الى رجـل يقف موقف حسين

---

(١) اشارة الى ماروي عنه صلى الله عليه وسلم « ان من اعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر (الترمذي : ج ٢ ص ٤٠ ، ابواب الفتن). – المؤلف –

الله عنه بن علي رضي الله عنهما وأحمد بن حنبل (ت سنة ٢٤١ ﻫ) ، يجدد لهذه الامة دينها في هذه القرون المتأخرة ويحيي مآثره ويعيده الى سيرته الاولى في زمان اتسع فيه الخرق على الراقع ، فوفق الله عبداً من عباده صالحاً للقيام بالدعوة والجهاد في سبيل الحق ، فنهض للأمر واعلن بالحق ورأب الثأي * ورتق الفتق وطهر الدين المبين من أرجاس الوثنية وخلص ابريزه الوهاج من خبث الجهل والتصوف الباطل ونقى ثوبه الطاهر من أدران الرفض والالحاد ودعا الناس بدعاية الاسلام والاستمساك بعروته الوثقى .

وفوق كل ذلك أنه جدد السنة ، سنة الائمة الهداة الصالحين المجاهدين في احتمال الشدائد والثبات عند المحنة ، فبادى أهل عصره من أمراء الدولة وأعيانها بما كان يراه حقاً ، وأنكر على الملك[1] تكبره في أرض الله بغير الحق ، ومازلت به قدم — ألا وذلك الرجل هو الامام

---

* الثأي بسكون الياء والهمزة قبلها الافساد والثأى بالالف المقصورة مثله الا انه يقال للامر الفظيع يقع بين القوم . ويقال رأب الصدع

— الناشرون —

(١) جهان كير نور الدين (١٠١٤-١٠٣٧) الذي تولى الامر بعد موت أبيه اكبر.

— المؤلف —

العارف بالله الشيخ احمد بن عبد الاحد الفاروقي السرهندي[1] ، الذي يلقب بمجدد الألف الثاني من الهجرة النبوية (على صاحبها أزكى التحيات وأعطرها) وحق له ذلك . وكيف لا ؟ وقد قام بواجب أفضل الجهاد ، ووقف امام طواغيت عصره موقف الجبال الراسيات فأحيا السنة وأمات البدعة ورفع لواء الاسلام وأعلا كلمته . والحق ان ماقام به حسين بن علي رضي الله عنه واحمد بن حنبل (ت سنة ٢٤١ هـ) وابن تيمية (ت سنة ٧٢٨ هـ) في أزمانهم من اعلاء كلمة الحق وتجديد الدين المبين ، قد قام به هذا الشيخ الفاروقي في فاتحة الألف الثاني من الهجرة ، قام به خير قيام مستمسكاً بأذيال السنة ، متنكبا طرق المبتدعة ، معرضاً بوجهه عن متاع الحياة ، غير خائف في ذلك ملامة لائم ولابأس ملك ، شأن من

---

(١) ولد من بيت عريق في المجد والعلم ، ينتمي الى سيدنا عمر بن الخطاب ، سنة ٨٧١ من الهجرة النبوية . ونشأ في بيئة دينية صالحة ، واستفاد من الشيخ العارف الخواجه الباقي بالله (ت سنة ١٠١٢ هـ)في الطريقة ، وكان من صالحي زمانه المعروفين بالورع والتقوى . ومما يجدر ذكره ان شيخه الخواجه الباقي بالله تفرس في وجهه امارات المجد والكمال لاول عهده به وكتب الى بعض اصدقائه :

« قد جاءنا منذ قليل رجل من سرهند ، متضلع من العلم وفيه من القدرة على العمل والجد ما لا يوصف . وقد جالسنا بضعة ايام ، وأرى بما شاهدت من احواله انه سيكون سراجاينير العالم بضيائه » . وما اصدق هذا التفرس . فقد تحقق في ما بعد انه كان سراجا في ظلمات الهند الحالكة ، فانعم به من سراج ، واكرم بالذي ثقف هذا السراج ، وراضه على العمل . جزاهما الله عن الاسلام خير الجزاء وأجزل لهما المثوبة في الدارين . — المؤلف —

اخلصوا دينهم لله من خاصته ، رحمه الله رحمة الابرار الصالحين من عباده ونضر وجهه يوم القيامة .

غربة الاسلام في عصره كما يراها المجدد

نشأ السيد المجدد في النصف الثاني من عهد الملك أكبر ، لكن دعوته ظهرت في عصر جهان كير ، حينما بلغ أشده وتكاملت معارفه ، الا ان قلبه كان يسيل حزناً منذ فجر شبابه لما كان يراه من انتكاس راية الاسلام وتقلص ظله :

لقد بلغ من غربة الاسلام في هذه الديار ان الكفار يطعنون في الاسلام ويشيدون بذكر الكفر وأهله من غير ما خوف ولا وجل ، والمسلمون محظور عليهم ان يقوموا بشعائر الاسلام ويسعوا في نشر كلمته [1] » .

« وقد تغشت العالم ظلمات البدعة والكفر بعد مضي الف سنة من الهجرة . وجنحت شمس الاسلام والسنة الى الافول [2] » .

« ومن حيث ان البدعة قد ظهرت وفشت ، يتراءى ان العالم غارق في بحر من الظلمات . قد غرق العالم كله في بحر البدعة وارتطم في ظلماتها . فمن للسنة ، يقوم لها ويذب عنها ويرد كيد المبتدعين في نحورهم وعلماء عصرنا أكثرهم من المهالئين للبدعة واعداء السنة ، الساعين في

---

(١) المكتوبات (٩٢ : الجزء الثاني ، ص ١٦٢)

(٢) المكتوبات (٩٦ : الجزء الثالث ، ص ١٧٤)

القضاء عليها [٣] » .

ظهرت دعوة السيد المجدد في زمن جهان كير (١٠١٤ – ١٠٣٧ هـ) حينما جاهر بالحق وجاهد جهاداً مبروراً في استئصال شأفة البدع والمنكرات .

فبايعه على متابعة السنة واجتناب البدعة خلق كثير ، لا يأتي عليهم الاحصاء ، وانضوى الناس الى كنفه ، ووفد اليه عباد الله من كل صوب وناحية ، حتى خف تيار الالحاد الجارف الذي كاد يذهب بالبقية الباقية من شعائر الدين الحنيف وطفق الاعيان والامراء يرجعون الى الاسلام ويثوبون الى رشدهم .

اضطهاد الحكومة له : بدأت تظهر دعوته في السنين الاولى من حكومة جهان كير ، فما اضطهدته باديء ذي بدء ، ولكنه لما ألف كتابه [١] في الرد على الروافض وانتقد اعمالهم وعقائدهم علناً ، كادله بعض أفراد الشيعة وأضمروا له في قلوبهم العداوة يتحينون الفرص لاضطهاده ، فوشوا به الى الملك... حتى أرسل اليه الملك وأمر باحضاره.. ولما دخل على الملك حياه بتحية الاسلام ولم يسجد له شأن اهل زمانه فاستشاط أمراء المملكة غضباً وانتهزوا الفرصة للتنكيل به . لكن المجاهد أبى الا أن يصدع بالحق ويندد برجال الملك وأعمالهم المنكرة ، المعادية للدين الحنيف .

فما كان من الملك الا ان أمر بحبسه في سجن كواليار [٢] . لكن

---

(٣) المكتوبات (٤٥ : الجزء الثاني ، ص ١٠٣)

(١) رسالة بالفارسية ، أسماها (رد روافض)

(٢) بلدة في وسط الهند . —المؤلف—

جدران السجن ما كانت لتمنعه من الدعوة الى الحق والعمل لاعلاء كلمة الدين فتجددت سنة ابن يعقوب (عليهما السلام) هناك ، وجعل يدعوا من في السجن من عباد الله الى الحق ويرشدهم الى طاعة الله ورسوله .

حتى وجدت دعوته أذناً صاغية وقلوباً داعية وتبدلت الارض ، أرض السجن ، غير الارض وشاهد رجال السجن ، والعجب ملء قلوبهم ان خدم السجن ومن فيه من أخلاط الناس وأوباشهم ، جعلوا يتوبون الى الله مولاهم الحق ويتبعون السيد المجدد في مايأمرهم به من طاعة الله ورسوله . فكتبوا الى الملك يخبرونه بأن المحبوس عندهم قد أَحدث في داخل السجن انقلاباً مدهشاً ، وان « الوحوش الضارية » من قطـــاع الطرق والمفسدين في الارض قد انقلبوا بدعوته رجالاً بررة ، فما أجدر هذا الرجل الورع المصلح بأن يطلق سراحه ويبوأ المحـــل الأسمي الذي يستحقه . فتأثر الملك بذلك[1] وعفا عنه ودعاه الى مقر حكمه واستقبله ولي عهد المملكة – الامير خرم الذي اعتلى سرير الملك بعد أبيه متلقباً بـ شاه جهان – استقبالاً باهراً وتلقـــاه الملك بالترحاب وأكرم مثواه واعتذر[2] اليه عما صدر من قبل . فانتهز المجاهد الفرصة ووعظ الملك وطلب

---

(١) وقيل ان الملك رأى في ما يري النائم ان الرجل قد ظلم وان رجلا صالحاً يقول له وهو عاض على يديه : ويحك « قد حبست رجلا مثله في الصلاح والورع » .

(٢) ويقال ان الملك عاهده على ترك الخمر واتباع اوامر الشرع . أما كون ولي عهد المملكة الامير خرم الذي اعتلى سرير الملك بعد أبيه ، متلقبا بـ شاه جهان – قد بايعه على اجتناب البدعة واتباع السنة ، فذلك مما لا مجال فيه للريب –المؤلف–

اليه ان يصدر أمره بما يلي :

١ – تحريم السجدة للملك

٢ – الأذن بذبح البقرة

٣ تعيين القضاة والمحتسبين في كل بلدة .

٤ – إعادة بناء المساجد المنهدمة .

٥ – الغاء القوانين غير الشرعية .

فنفذ الأمر الملكي وحصلت نهضة للدين جديدة بعد ذلك ، فكانت علامة خير وتباشير رحمة . واستبشر المسلمون بذلك وابتهجوا به أيما ابتهاج . هذا مايرويه عامة كتاب المسلمين من تحريم جهان كير لسجدة التحية او السجدة التعظيمية – كما يقولون – ورجوعه بالمملكة الى حظيرة الشرع الشريف واستمساكه بعروة الدين المبين في تدبير أمور الملك وتنظيم شؤونه ، الا ان التاريخ المعاصر لا يشهد بذلك ، ولم نظفر للآن بشهادة تدل على ان الملك جهان كير أصدر أمراً بتحريم السجدة[1] للملك والاذن بذبح البقرة وغيرهما من الأمور على اقتراح من السيد المجدد او من غير اقتراح منه .

والذي نجزم به في هذا الشأن ، كما يرشدنا اليه التاريخ المعاصر ان الملك جهان كير قد تغير قليلًا في أواخر عهده بالملك عما كان عليه من قبل من اقتفاء اثر أبيه واتباع خطته ، تأثراً بدعوة المجدد ومواعظه

(١) قد ذكر بعض المؤرخين انه استثنى القضاة وكبار علماء الدولة من سجدة التحية له أما الاذن بذبح البقرة ، فلم نظفر عليه بشهادة يوثق بها .

وتأسيا بسيرته [1] .

(١) فمما يذكر عنه ويؤثر في هذا الباب تشجيع من أراد من الهنادك الوثنيين ان يدين بدين الاسلام ويشهد شهادة الحق .

(٢) ومن مآثره أنه منع بيع الخمر وغيرها من المسكرات على مرأى من الناس ومسمع . ومنها أنه منع المقامرة في الأندية والمجتمعات العامة .

فلنعد الى الحديث عن السيد المجدد ومآثره الخالدة وأكرم به من حديث .

مآثره الجليلة

حينما بلغ السيد المجدد أشده وشاهد بأم عينه ما آلت اليه حال الاسلام والمسلمين في هذه البلاد ، رأى ان أدواء المسلمين ترجع الى ثلاثة أقسام : —

(١) المملكة المسلمة الغاشمة وأمراؤها الذين اتخذوا الدين هزواً ولعباً .

(٢) علماء السوء الذين اشتروا بآيات الله وأحكامه البينة ثمناً قليلاً وجعلوا المناصب الدينية مطية لأهوائهم وقضاء شهواتهم .

---

(١) مكث السيد المجدد في البلاط الملكي مدة من الزمن بعدما عفا عنه الملك وقربه اليه. فلم يزل — رحمه الله — يعظه ويرشده الى الحق ، كلما سنحت له فرصة ، كما تشهد به مكتوباته . — المؤلف —

(٣) المتصوفة الذين تقولوا على الله ورسوله أقاويل وخرافات مما يمجه السمع واستبدلوا بالتوحيد الاسلامي وحدة فلسفية تدعى بوحدة الوجود تارة وتتشكل بالحلول والاتحاد ، أخرى وهيهات ان تكون لها علاقة بالاسلام .

ولما اطمأن السيد المجدد الى ان نكبات الاسلام في عصره انما نشأت من تلك الفرق الثلاث ، وجه همه الى مقاومتهم وشمر عن ساق الجـــد لمناهضتهم ومعارضتهم حسب مايسعه علمه وقوته . وهذه رسائله ودواوين مكتوباته غاصة بما كتب ودون وألف شاهدة على مدى الدهر بطول باعه في العلوم وقوة حجته في الكلام .

مقاومة السلطة القاهرة : فمما كتب لدفع عدوان السلطة القاهرة رسائله الى أمراء المملكة وأعيانها يعظهم ويرشدهم الى دين الحق ويطلب اليهم ان ينصروا الدين وأهله . وقد نجحت دعوته فيهم نجاحاً ملموساً حتى ان ولي عهد المملكة بايعه على اجتناب المعاصي والرجوع الى الله واضمحل نفوذ الملاحدة من الروافض وغيرهم في البلاط الملـكي ، كما تقدم . ولولا ان ضيق نطاق المقام يدعونا الى طرق باب الاختصار لتوسعنا فيه ؛ الا أنه يجمل بنا أن نتحف القراء بنموذج من رسائله الداعية الى الحق . فهاك شيئاً مما كتبه في رسالة له الى أحد أتباعه ، ممن كان لهم حظوة لدى الملـك : « أما بقاء شيء من شعائر الكفر ، التي نجم قرنها في العهد الماضي على حالها في هذا العصر ، حينما لم يبق للملك هوى في الكفر وشعائره ، فذلك مما يشق على كل مسلم . وعلى المسلمين أن يبلغوا خبر أولئك الاشرار مسامع

الملك ويبينوا له سوءمغبة أعمالهم الشنيعة ويبذلوا الجهد المستطاع في القضاء عليها ، ربما لا يكون الملك قد اطلع على سوءاتهم . وعلى كل ، فلابد من اخبار الملك بحقيقة المسائل الشرعيـة ، حتى يبرىء العلماء والذين لهم اسم وشرف في البـــاب الملـكي ذممهم . فان أوذي احد في سبيل الحق والدعوة الى الله ،فنعما هو ؛ وأي محنة ماقاسي الانبياء شدائدها في ابلاغ رسالتهم ، وأي مصيبة ما ابتلوا بها في سبيل الدعوة الالهية التي حملوها واضطلعوا بها؟ وقد روي عن خيرهم وأفضلهم انه قال [1] ﷺ « مـا أوذي نبي مثل ما أوذيت » .

أما علماء السوء فقد سعى السيد المجدد في دفع اعتدائهم عـلى الدين ، بثلاث طرق :

الأول انه كشف عن عوراتهم وانتقد أعمالهم انتقـاداً مراً ، وأظهر للملأ ضررهم على الدين بكتمانهم للحق واستبدالهم الحياة الدنيـــا بالآخرة واشترائهم بآيات الله ثمناً قليلا .

وفي رسائله من ذلك ما سارت بخبره الركبان . وقد تقدم لنـا نقل شيء منها في هذا الكتاب . وان شئت الزيادة من هذا الباب فاقرأ ما كتب الى أحد امراء المملكة في رسالة له :

« قد بلغنا ان الملك في حاجة الى عدد من العلماء ، لما يحس من نفسه

---

(١) روى ابن عدي وابن عساكر بسند ضعيف عن جابر مرفوعاً « ما أوذي احد ما أوذيت »وروى ابو نعيم في الحلية عن أنس مرفوعاً « ما أوذي احد مثل ما اوذيت في الله » -- الجامع الصغير للسيوطي : ص ١٢٢ — المؤلف —

من ميل الى الاسلام . فالحمد لله على ذلك أولاً وآخراً . وغير خاف عليكم أن كل ماظهر من الفساد في القرن الماضي ، انما ظهر بسوء أعمال العلماء وقبح سيرتهم ، فاياك والتهاون في هذا الشأن وعليك بالصالحين منهم المتشبثين بأذيال الدين . وانما علماء السوء هم لصوص الدين لا يبتغون الا التقرب الى الملك والكرامة في أعين الناس والكبرياء في ارض الله ، أعاذنا الله واياكم من فتنتهم » .

علماء السوء : والثاني انه رأى ان علماء السوء ، على مابهم من الجهل والانغماس في الشهوات قد ادعى نفر منهم الاجتهاد وحرفوا الكلم عن مواضعه . وتذرعوا بذلك في انجاح دعوتهم الباطلة وتحقيق آمالهم المشؤومة في انتكاس راية الاسلام وخفوق لواء الكفر وعموم الفوضى الدينية والفساد في الارض .

فاعتزم معالجة هذا الداء العضال بالدعوة الى الكتاب العزيز والسنة النبوية والاعتصام بما جرى عليه الصحابة والتابعون لهم ومن جاؤوا من بعدهم من الائمة الاربعة والسلف الصالح .

ومن ثم تراه في رسائله يتكلم في شأن تصحيح العقيدة ويهيب بالناس الى الاخذ بما كان عليه السلف الصالحون والائمة المجتهدون ويدعوهم دائماً الى الاستمساك بما استمسك به جمهور العلماء .

فمما كتبه وبعث به الى أتباعه وتلامذته في مختلف الاقطار في هذا الشأن ماجاء في رسالة له :

« علينا جميعاً أن نصحح عقائدنا حسب ما أخذه العلماء الربانيون من

الكتاب والسنة وفهموه .

فانه لا عبرة بما نستنبطه نحن من العقائد والاحكام ان عارضت مافهمه أولئك العلماء الفطاحل وتمسكوا به .

فانه لا تجد مبتدعاً ولا ضالا الا ويدعى الأخذ من الكتاب والسنة واستنباط عقائده الباطلة منهما . والحال أنه لا يغني من الحق شيئاً [١] .

التنديد بالبدعة الحسنة : والثالث أنه قد أدرك ببصيرته وثقوب ذهنه أن كل مايأتي به علماء السوء من المنكرات وقبائح الاعمال انما يأتون به مستظلين بظل البدعة الحسنة ، حتى اتخذوها جنة من كل مايقترفون من المحدثات والكبائر . وفتنة « البدعة الحسنة » لم تكن جديدة وانما استفحل أمرها وتفاقم شرها في عصر السيد المجدد . وماذا عسى ان نقول في بعض كبار العلماء زلت أقدامهم في وحلها وجاءوا بأقوال لاتتفق مع روح الدين والسنة النبوية . وناهيك برجل عالم مثل الطرطوشي [٢] يقول بوجود البدعة الحسنة في الشريعة الكاملة . وكذلك كبير علماء متأخري الحنفية الملا علي القاري الحنفي (ت سنة ١٠١٤ هـ) يؤيد البدعة الحسنة ، ويستدل على مشروعيتها [٣] فأنت ترى ان فتنة

---

(١) المكتوب الـ ٥٨ : الجزء الاول .

(٢) الباعث على انكار البدع والحوادث للطرطوشي المغربي « ت سنة ٥٢٠ هـ » واختصره بن شامة المغربي - وهو أورع الناس وازهدهم بشهادة السيوطي في « حسن المحاضرة : ١ ، ١٨٨ » راجع ص ١٤ ، ١٣ .

(٣) راجع الادب في رجب للملا علي القاري « المخطوط برقم ٢٥٦٨ بالخزانة الشرقية في بانكي بور - الورق ١٩٥ ب » . - المؤلف -

البدعة الحسنة ، كانت قد تعدت العــامة ووجدت تربة صالحة بين الخاصة ، فأصبحت داء عضالاً أعيا النطاسيين دواءه وعقدة صعب على الحذاق حلها .

ومن هنا تعرف قيمة جهاد السيد المجدد في قمع هذه الفتنة الشنيعة ومساعيه المتواصلة المتتابعة في كبح جماحها واستئصال شأفتها . فلما تيقن السيد المجدد ان فظائع علماء السوء وسيآت أعمالهم وشنائع أقوالهم ، انما ترجع كلها الى أصل واحد وهي البدعة الحسنة ، أعلن بالجهاد على هــذا المنكر وبذل كل ما آتاه الله من تصلب في الفكرة وحكمــة في الدعوة وبراعة في الحجة وبلاغة في البيان لدرء هذه الفتنة والكشف عن عورتها .

وهذه مكاتباته تراها مكتظة بانتقاد البدعة والرد عليها . وناهيك بها من شهادة . وهاك بعض ماجاء فيها من قول رصين وعظة بالغة :

« النصيحة هي الدين ومتابعة سيد المرسلين عليه وعليهم الصــلاة والسلام واتيان السنة السنية والاجتناب عن (كذا) البدعة اللامرضية وان كانت البدعة ترى مثــل فلق الصبح ، لأنه في الحقيقة لانور فيهــا ولا ضياء ، ولا للعليل منها شفاء ولا للداء منهــا دواء . كيف ، والبدعة اما رافعة للسنة أو ساكتة عنها . والساكتة لابد وأن تكون زائدة على السنة . فتكون ناسخة لها في الحقيقة أيضاً ، لان الزيادة على النص نسخ له.

فالبدعة كيف كانت ، تكون رافعة لسنة ، نقيضة لها ، فلاخير فيها ولا حسن فيها ، ليت شعري ، من أين حكموا بحسن البدعة المحدثة في

الدين الكامل [1] وورد في مكتوب له آخر الى بعض أصحابه : « يسأل هذا الفقير الى الله ، متضرعاً اليه تعالى سبحانه أن يقيه والذين معه شرور كل مـــا استحدث في الدين وابتدع بما لم يكن له أثر في زمن النبي ﷺ وخلفـائه الراشدين — رضي الله عنهم أجمعين — ، وان يتراى للنـــاظر مستنيراً مثل فلق الصبـح — يدعو الله أن يجعلنا في منجاة من تلـــك البدع المستحدثة . يقولون ان البدعة تنقسم الى نوعين : الحسنة والسيئة. أما هذا العاجز فلا يرى في شيء من هذه البدع حسنـــاً ولا نوراً ولا يشاهد فيها الا ظلمة وقذراً .

وقـد قال سيد البشر عليـه وعلى آله التسليمات ، من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد . وقال عليـه الصلاة والسلام اياكم ومحـدثات الامور ، فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضـــلالة . فاذا ثبت ان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، فأي معنى لوجود الحسن في البدعة وأي علاقة بينهما ؟ »

هذا هو شأن المجدد ، يبين للناس المحجة الواضحة ويدفـع عن أبصار الناس دياجير الشكوك والاوهام ، لا يعروه في ذلك خوف ولا وجل . فالذي كتبه السيد المجدد ودعا اليـــه من التشبث بأذيال السنة واجتناب البدعة ، ولو كانت مبرقعة بنقاب الحسن ، يعد من جلائل أعماله وحسنة من حسناته العظيـمة . فان علماء السوء والمتصوفين قد تعودوا منذ قرون

(1) المكتوب التاسع عشر ، الجزء الثاني . ص ٣٢ ، ومما يجب التنبيه عليه ان هـــذا المكتوب ورد في الاصل بالعربية فأثبتناه بحروفه هنا . - المؤلف -

أن يتخذوا البدعة الحسنة جنة لمنكراتهم وشنائع اعمالهم ويدافعوا عن أنفسهم وعن سيآتهم متسترين من ورائها .

فكلما انكرت عليهم شيئاً من أقوالهم أو أعمالهم ، قالوا : انها بدعة حسنة ، وكلما انتقدت عليهم شيئاً من بدعهم ، مالبثوا أن واجهوك بجن (الحسنة) . ما أفدح الخطب وما أفظعه !! قال النبي ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه ، فهو رد » . وها هم أولاء كلاب الدنيا من علماء السوء والمتصوفة المشعوذين مازالوا يختلقون البدع والمنكرات ويدسونها في الدين الكامل .

واذا قلت لهم : « ماشأن البدع في حمي الدين الكامل ؟» ، قالوا « انها بدعة حسنة » كبرت كلمة تخرج من أفواههم، ان يقولون الا كذبا فرحم الله السيد المجدد رحمة الابرار الصالحين من عباده وجزاه الله عنه وعن الاسلام خير الجزاء ان قام لنصرة الدين والذب عن حمي السنة الطاهرة المرضية .

الرد على الصوفية ومعتقداتهم الباطلة :

اما المتصوفة المتفلسفون الذين هجروا الكتاب والسنة واتبعوا ماشاؤوا وشاءت أهواؤهم من النظريات الباطلة والآراء الواهية السخيفة ، فانتقد معتقداتهم وأعمالهم وبين لهم وللناس ما التبس عليهم من بينات الدين ومحكماته ونددد بالذين آثروا أقوال مشايخهم على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وكشف عن عوراتهم وفضائحهم حتي صرح المحض عن الزبد وتجلى صبح الحقيقة لكل ذي عينين .

آ ـ **وحدة الوجود :** ومن أكبر مازلت فيه أقدام الصوفية ، هو القول بوحدة الوجود التي ربما تنجر الى القول بالحلول والاتحاد ، بما تقدمت لنا الاشارة اليه في بدء هذا الكتاب [1] .

فما كان من المجدد الا ان صرف معظم همه في نقض هذه العقيدة الباطلة واماطة اللثام عن سوءاتها ، حتى لا يبقى في القوس منزع ظفر للشك ، وتبرد قلوب الذين يريدون الحق ويحبون ان يجتنبوا الباطل ، اذا تبين لهم .

ومن حسن المصادفة أن السيد المجدد كان أجدر من غيره بخوض هذه المعركة ، لأنه كان بنفسه من رجال الطريقة المعدودين وكان في بدء عهده قد مارس فنون الرياضة والاشغال الشاقه التي يمارسها الصوفية للتزكية بزعمهم . فما كان ليخفي عليه شيء من أباطيلهم وترهاتهم . ومن ثم ترى أنه لما أعلن في رسائله أن ابن عربي الحاتمي الاندلسي (ت ٦٣٨هـ) ـ وهو رأس من قالوا بوحدة الوجود ـ قد زلقت رجله في ثناء الطريق ، وانخدع بما يعتري السالك من الاحوال في (سفره) ويتراءى له من وحدة هذا الوجود .

---

(١) للصوفية تعاريف مختلفة لعقيدتهم المحبوبة وحدة الوجود . واساس هذه العقيدة « ان الله هو الموجود ولا شيء غيره ولا أصل لشيء غيره في الوجود . وذلك الموجود الحقيقي ينبوع الوجود كله وعلته والموجود هو الله » . فأنت ترى ان هذا تحريف شنيع وتعبير غريب عن عقيدة التوحيد في الاسلام . الاسلام يدعو الى ان «لا إله إلا الله» وابن عربي يستخرج من هذا ان لاموجود الا الله « وهذه العقيدة الوجودية تتشكل بصورتين : اما القول بان هذا العالم الظاهر خيال محض وان الله هو الموجود فقط في في نفس الامر ». او كما يقول البعض « ان هذا العالم الظاهر هو الموجود في الحقيقة

ولو تقدم خطوة أخرى لشاهد ان لاوحدة بين وجودي العبد والمعبود وأن الله هو الوراء ثم وراء الوراء ثم وراء الوراء - لما أعلن ذلك لم ينكر عليه أحد . وانى لهم التجاسر على ذلك ، وهم يعلمون أن السيد المجدد من كبار رجال الطريقة ، المطلعين على أسرارها ودقائقها ! وانما يفارقهم في أنه مستمسك بعروة التوحيد التنزيهي - حسب تعبيره - ومتشبث بأذيال السنة النبوية الطاهرة . والسيد المجدد بحوث وآراء ناضجة في نقض عقيدة وحدة الوجود والرد على ابن عربي[٢] وغيره من القائلين بها ، نتحف القاريء بشيء منها ، ومن شاء التوسع فليراجع كتاب « تصور المجدد للتوحيد (The Mufaddids Ceneeptionof Tauhid)

- وان الله قد اوجدته الظنون والاوهام ». وكلتا هاتين الصورتين ، مناقضتان لعقيدة الاسلام معاديتان لها ، اما ابن عربي - وهو إمام الوجوديين بين الصوفية المسلمين - فقد اختار الصورة الاولى وكل مايترتب عليها من نتائج منطقية .

(٢) اول من رد على ابن عربي وكشف عن عوراته الامام ابن تيمية الحراني (ت سنة ٨٢٨ هـ) مستدلا بالكتاب والسنة ، لكن الذين اصيبوا بداء التصوف لا يقيمون للكتاب والسنة وزنا ، اذا وجدوا نصاً لاحد مشايخهم يعارض نصوص الله ورسوله ومن ثم ما نفعت مؤلفات ابن تيمية المتصوفة واتباعهم الا قليلا اما السيد المجدد فما كان في وسعهم ان يقولوا فيه كما قالوا في ابن تيمية وغيره من انهم لايعرفون الطريقة وماذاقوا حلاوة السلوك ، وانى لهم ان يتفوهوا بذلك . وقد رد على امامهم ابن عربي من طريق تجارب الطريقة والسلوك نفسها ، كأني به غزاهم في عقر دارهم وبسلاحهم فجزاه الله عن الاسلام خير جزاء . - المؤلف -

للدكتور برهان أحمد الفاروقي فانه اصاب المحز وطبق * المفصل في هذا الباب ، فمما جاء في مكتوب له : - « القول بأن الممكن عين ذات الواجب تعالى شأنه ، وصفات الممكن وأفعاله (عين صفاته وأفعاله) جل قدره ، سوء أدب والحاد في أسمائه تعالى وصفاته »[1] وكذلك ورد في كتاب له :

« اياك وأن تنخدع بترهات الصوفية وتزعم أن غير الحق والحق جل وعز شأنه ، كلاهما واحد لا فرق بينهما[2] » ومن أقواله في هذه المسألة:

« لا يتحد الله تعالى شأنه بشيء من الاشياء . والذي يظهر من كلام الصوفية من معني الاتحاد . انما هو مما لا يمكن أن يكون مرادهم به على ظاهره .

فان مرادهم بهذا الكلام المشعر بالاتحاد - اذا تم الفقر فهو الله - أنه اذا اكمل الفقر وحصل العدم المحض فلا يبقى في نظره الا الله تعالى ولا يتراءى للسالك غيره . وليس مرادهم به أن الفقير ، أي الصوفي ، والحق تعالى شأنه يتحدان ، فانه كفر وزندقة . تعالى سبحانه عما يتوهم

---

(١) ج ٢ : المكتوب الاول

(٢) ج ١ : ص ٣٤٧ ، المكتوب رقم : ٢٧٢ . - المؤلف -

* طبق المفصل بفتح الميم وكسر الصاد واصاب المحز بفتح الميم والحاء تقال عند الاجادة . - الناشرون -

الظالمون علواً كبيراً »[1] . فأنت ترى أنه يؤول كلامهم تأويلا حسنا ، ودلك شأنه دائماً في رده على الصوفية وعقيدتهم الباطلة هذه . فانه يؤول كلامهم حسب مايسعه ويصرفه الى معني لايناقض عقيدة الاسلام الثابتة من التوحيدالتنزيهي ، وان لم يستطع فيضرب به عرض الحائط ويعارضهم ويرد عليهم مستمسكا بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

المكاشفات : ومن ضلالات المتصوفة وأتباعهم التي نفقت سوقها وكثر المعتقدون بها أنهم يعتمدون على « مكاشفات » مشايخهم ويثقون بها ويعملون حسب مقتضاها ، وان خالفت نصوص الكتاب والسنة . فان قلت لهم: سابالكم تؤمنون بمظنونات مشايخكم وأحلامهم « ومكاشفاتهم » – حسب تعبير القوم – والحال أنها معارضة لنصوص الشرع البينات ؟ » قالوا « هذه من أسرار الطريقة لايدركها الا المشايخ والصوفية . » الى غيرها من أباطيلهم وخزعبلاتهم .

ومن حسنات السيد المجدد التي تذكر وتشكر أنه رد على أمثال أولئك المتصوفة واتباعهم رداً عنيفاً وبين لهم بكل قوته أن الكتاب والسنة هما أساس الدين ، واليهما المرجع في المسائل الشرعية . فمما كتب في هذه المسألة العظيمة الشأن :

« انما المعتبر في اثبات الاحكام الشرعية ، الكتاب والسنة ، والقياس والاجماع ايضاً مما تثبت به الاحكام . وليس هناك حجة اخرى ، غيرهذه الاربعة في اثبات الاحكام الشرعية ، اما الهام الاولياء فلا يحل حراما

---

(١) ج ١ : ص ٣١٤ ، المكتوب : رقم ٣١٤

ولا يحرم حلالاً . وكذلك (كشوف) الصوفية ، لاعمل لها في وجوب شيء من الاحكام او جعلها سنة . والذين حظوا بالولاية الخاصة من الصوفية لا فرق بينهم وبين العامة في تقليدهم الائمة المجتهدين [١] »

اما الرياضات والمجاهدات التي اختارتها المتصوفة ؛ متنكبة السنة فلا عبرة بها ، لان البراهمة واليوكية والفلاسفة من الهنادك ايضاً مشاركون لهم في هذه الصناعة ، لكنها لاتزيدهم الا ضلالا وخسراناً [٢] » .

وكذلك تطرق السيد المجدد الى منكرات المتصوفة في عصره ، التي اتخذوها دينا لهم وعضوا عليها بالنواجذ فانتقدها انتقاداً صريحالا يشوبه ادنى غموض ولا ابهام ، فمن ذلك قوله في مكتوب له :

« ومما لاريب فيه ان السماع والرقص من باب اللهو واللعب : والآيات والاحاديث وأقوال الفقهاء متضافرة في تحريم الغناء ، بحيث لا يأتي عليها الاحصاء . .

وماأفتى مفت في عصر من العصور باباحة الرقص والغناء والمزامير .

اما عمل الصوفية فليس حجة في تحليل شيء وتحريمه وأقصى مايسعنا في شأنهم ان لانلومهم ولانذكرهم بسوء بل نفوض أمرهم الى الله . وانما العبرة في مثل هذه المواقف بأقوال الأئمة أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد ابن الحسن لابعمل أبي بكر شبلي وأبي الحسن النوري . وانما اتخـــذ

(١) ج ٢ ، ص ١٠٨ - المكتوب الخامس والخمسون

(٢) ج ١ ، ص ٢٣٦ - المكتوب رقم ٢٢١

صوفية عصرنا الرقص والغناء ديناً لهم وشعاراً ، متسترين وراء اعمال مشايخهم ، مستندين اليها .

أولئك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً »[1]

ومكتوبات السيد المجدد طافحة بمثل هذه الاقوال المرضية الناصرة للسنة السنية .

وكان – رحمه الله ونضر وجهه يوم القيامة – حريصاً على اتباع السنة . مولعاً بالعمل بها . فكان لذلك تأثيره في رجوع الناس الى الحديث النبوي ودراستة ، حتى نشأت بعد ذلك طائفة – ولو كانت قليلة – من الصوفية المحدثين .

الشيخ عبد الحق الدهلوي – ٩٥٨ – ١٠٥٢

اذا ذكرنا جهاد الشيخ المجدد السرهندي وأعماله الجليلة فلايناسب اغفال ذكر الشيخ عبد الحق الدهلوي [2] الذي كان معاصراً للسيد المجدد وهو الذي أحيا علم الحديث في شمالي الهند وجعل خزائنه في متناول

(١) ج ١ ، ص ٣٣٥ – المكتوب رقم ٢٦٦ .

(٢) ولد سنة ٩٥٨ هـ في دهلي ، عاصمة الهند . وبعد ان تلقى العلوم على والده ، ارتحل الى الحرمين الشريفين وصحب الشيخ عبد الوهاب المتقي « ت سنة ١٠٠١ هـ » وقرأ عليه الكتب الستة . ثم عاد الى الوطن واستقر به وظل ينشر العلم ويخدم السنة الى ان توفي سنة ١٠٥٢ هـ اما شيخه عبد الوهاب المتقي فهو اخذ عن الشيخ علي المتقي « ت سنة ٩٧٥ هـ » صاحب كنز العمال وقد اسلفنا شيئاً من ذكره في ماتقدم من هذا الكتاب . – المؤلف –

الناس ليأخذوا منها ماشاؤوا . وصنف كتباً كثيرة أجاد في تأليفها حتى أثنى عليه الفقهاء والصوفية معاً واتفقوا على جلالة شأنه وعلو قدره .

ومن أشهر مؤلفاته « اللمعات ، شرح مشكاة المصابيح بالعربية ، وأشعة اللمعات بالفارسية » .

ذكرنا الشيخ ههنا في من بذلوا جهدهم في تجديد الدين واحياء السنة الصحيحة ، والحال أننا ماذكرنا في عداد اولئك غيره من فطاحل العلماء الذين تقدموه او عاصروه . ولنا في ذلك عذر ، لان عامة علماء الهند ، ولاسيما في شمالي البلاد ، ما كانوا يلتفترون الى علم الحديث والسنة النبوية الا قليلًا ، بل كان جل همهم في كتب المنطق والفلسفة او الفقه ، فغفلوا عن معين العلم الصحيح وأغفلوا ، رحمهم الله وتجاوز عن سيآتهم .

واما الشيخ عبد الحق فهو اول رجل سعى سعيه في نشر علوم السنة وبذل الجهد المستطاع في بث معارفها وكان سعيه مشكوراً بفضل الله وتوفيق من عنده ، فله منة في أعناقنا ويد على مسلمي الهند لاتنكر ولاتنسى ، لان ذيوع علم الحديث وانتشار السنة الصحيحة ممايقرب الناس بنفسه الى الدين الصحيح ويدني الطالب من عيونه الثرثارة ✡ ويحث المسلم المتعطش على ان يرتوي منه ماشاء ان يرتوي

وأحدثت المعاصرة التنافر بين الشيخ والسيد المجدد اولاً ، كما

✡ العين الثرثارة والثرارة والثره بمعنى واحدوهي الغزيرة الماء —الناشرون—

جرت به العادة . والمعاصرة فتنة قلما سلم[1] منها أحد . ثم زال مابينهما من التنافر وسوء التفاهم وعمل حسن طويتهما في عقد أواصر الود والاخاء ، حتى اتحد أحفادهما فيما بعد لاصلاح المسلمين وارشادهم الى سبيل الحق .

الملك عالم كير اورنك زيب – ١٠٦٨ — ١١١٨ ﻫ

لقد عرفت فيما تقدم من أبواب هذا الكتاب ان الملك جهان كير (١٠١٤ – ١٠٣٧ ﻫ) قد تغير قليلاً في أواخر سني حكومته عما كان قد تابع عليه اباه من اضطهاد المسلمين وعدم الاهتمام بالدين . فأعفى المسلمين من كثير من الاضطهادات الشائنة والتضييقات المخزية التي حملوها في عصر أبيه الطاغية أكبر (٩٦٤ – ١٠١٤ ﻫ) .

ثم خلفه من بعده نجله ولي عهده الامير خرم وتلقب بشاه جهان (١٠٣٧ — ١٠٦٨ ﻫ) ، وهو الذي بايع السيد المجدد في زمن ولاية عهده على اجتناب المعاصي واطراح المآثم . فأصلح كثيراً من المفاسد التي تسربت الى داخل المملكة وتغلغلت في عروقها ، وحصلت المسلمين في عصره حرية لابأس بها في أداء واجباتهم والدعوة الى دينهم ، وتطورت الثقافة أيما تطور وتطهرت الابنية والملابس وطرق المعيشة وأزياؤها من طابع الوثنية واطرحت الصبغة الهندكية اطراحاً تاماً . واني لمفض اليك

---

(١) « ولو فتحنا هذا الباب واخذنا بقول المعاصرين بعضهم في بعض لما سلم لنا احد من الائمة بل – أجل الصحابة والتابعين – كما قاله الذهبي « ت سنة ٧٤٨ ﻫ » في احدى رسائله (نقلا عن كتاب « تذكرة » لابي الكلام آزاد : ص ١٤٣ في الحاشية).
– المؤلف –

بمثل على ذلك حتى تنجلي الحقيقة ويتضح الامر .

آ - الرجل المسلم :

قد عرفت مما أسلفنا من الكلام أن الكتاب والمؤلفين كلهم كانوا يبدأون مؤلفاتهم في عصر الملكين اكبر وجهان كير بشعار الله أكبر مشير - ولو من طرف خفي - الى ما كانوا يعتقدون من عصمة اكبر وتسنمه غارب الالوهية أعادنا الله وايا كم من هذه الخزعبلات. ولما اعتلى شاه جهان سرير الملك واخذ زمام الامر بيده ، جعل شعاره « الحمد لله الذي نزل على عبده الكتاب » فاقتفى الناس أثره وامحت هذه البدعة . . . . . لكنه لم يتمكن من القضاء على البدع الاكبرية ، جميعاً خوفاً على سلطانه أو اضعف في عزيمته ، فبقيت الحاجة ماسة الى ملك يعالج بحزم ودهاء الشرور التي بذر بذورها وتولى كبرها الملك اكبر ويسعى سعياً متواصلا في قمع الفتن التي تأصلت جذورها وتمكنت من قلوب العامة والخاصة ؛ فأنجز الله الامر وأكمل المهمة على يد أبي المظفر عالم كير أورنك زيب بن شاه جهان بن جهان كير بن اكبر ، الذي تولى الامر بعد أبيه سنة ١٠٦٨ للهجرة النبوية ، بعدما استبد بالملك دون شقيقه الاكبر دارا شكوه وقهره قهراً .

وما كان النزاع بين الامير دارا شكوه وعالم كير نزاعاً في الملك فحسب ؛ وانما كان نزاعاً بين فكرتين (Idiologies) متناقضتين ، كان أحدهما - دارا شكوه - يريد ان يحيي مآثر جده الاكبر - اكبر بن همايون - ويحذو حذوه في التوفيق بين الاسلام والوثنية والاخذ بيد الزندقة والالحاد .

والآخر – عالم كير أورنك زيب كان يحب ان يحيي سنة سيد المرسلين صلوات الله عليه وسلامه ، وينتصر للاسلام ممن يناوؤونه ويجعل كلمته هي العليا . . . . قالوا « لو كانت الغلبة والنصر للامير دارا شكوه، لبقيت الحكومة المغولية عزيزة الجانب مرفوعة الرأس أمداً غير قليل من الزمان لالتفاف الهنادك حول رأيتها» .

قلنا : إي ونعم ! لا نستبعد ذلك ، يمكن ان تكون قد بقيت الى يومنا هذا – وليس من همنا الآن أن نخوض غمار هذا الموضوع – لكن الذي لا نشك فيه أنه لو كان الظفر والغلبة لدارا شكوه لما بقي في هذه الديار للاسلام عين ولا أثر .

والحق أن عالم كير أول ملك من ملوك المسلمين في الهند – اذا استثنينا بعض ملوك آل تغلق – استمسك بعروة الدين الوثقى وعاش عيشة الزهاد والفقراء ، يقوم الليل ويصوم النهار . وهو الذي أعاد للدين المبين في عصره نضرته وشبابه وألغى القوانين المناقضة للشرع واكرم العلم والعلماء وقضى على البدع والمنكرات . وكان الى ذلك ، من كبار ملوك الهند قديماً وحديثاً . وان كان في طول العمر واتساع مدة الحكومة فضل للرجل وشهادة على نبوغه وشدة مراسه وصلابة قناته ، فالملك عالم كير لا يضاهيه في هذا الشأن ملك من ملوك الهند ، لا في القديم ولا الحديث من تاريخها .

فلم يتول الامر كبير ملوك الهند القدماء (آشوك) (٢٧٣ – ٢٣٢ ق.م) الا احدى اربعين سنة ، وكذلك لم يتول (بكر

ماجيت)، من ملوك الهنادك (٣١٥ - ٣٧٥ ق.م) اكثر من اربعين عاماً . وهذا فيروز شاه تغلق من كبار ملوك الهند ، ملك الامر ثمانية وثلاثين عاماً فقط . اما اكبر ، فهو يضاهيه في بادىء الراي ، لكن الحقيقة انه نودي به ملكا وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فتولى الامر عنه بيرم خان الى ان بلغ اشده واخذ زمام الامر بيده . وذلك بعد خمس سنوات ، اما صاحبنا ، فتولى الامر وهو ابن اربعين ، منجذ[1] في الحروب ، رجل السياسة وواحدها .

ب- ميزاته ومآثره :

ومن ميزاته ان الحكومة المغولية ما اتسع نطاقها في زمن اتساعها في عهده . وكذلك زادت ثروة البلاد ازدياداً يدهش له القاريء ، الى غيرها من جلائل اعماله ومآثره الخالده التي تضيق عنها بطون الاسفار .

لكنه من دواعي الاسف والالم ان المؤرخين الافرنج والهنادك وصموا هذا الملك العادل الزاهد بمعايب واختلقوا عليه اكاذيب ، وكأنهم ارادوا ان يطووا اعماله الجليلة طيا ويمحو مآثره الخالدة محواً .

---

(١) ومن أعاجيب شجاعته وايمانه بالله مايروى أنه بينما كان يقاتل عبد العزيز البلخي ، اذ حانت صلاة الظهر والمعركة حام وطيسها . فما كان منه الا ان نزل عن صهوة جواده واصطف بمن معه من الجند للصلاة مع ان رجال معيته وأصحابه ألحوا عليه في الامتناع عن ذلك خشيةعلى نفسه . فأدى الصلاة كأحسن مايؤدي المرء ، فتأثر بذلك عبد العزيز البلخي وطلب الهدنة قائلا : مقاتلة مثل هذا الرجل انكسار وجريمة .
(عن ، رود كوثر ، ص ٢٧٦) . - المؤلف -

منجذفي الحرب :متمرس بها . - الناشرون -

اما مفترياتهم ، فلا يكاد يأتي عليها عد . وقد انبرى للرد عليهم لفيف من كتابنا المحققين وعلى رأسهم العلامة شبلي النعماني (ف سنة ١٣٣٢ / ١٩١٤) .

فلنعد الى الكلام عن مآثره وخدماته للدين الحنيف .

فمن جلائل اعماله التي تذكر وبلسان الثناء تؤثر أنه ألغى جميع البدع والمنكرات التي روجها اكبر ونقضها عروة عروة . ودونك فذلكتها :

(١) ألغى التقويم الالهي الشمسي .

(٢) منع الاحتفال بعيد رأس السنة الشمسية .

(٣) أذن أولاً للمغنين ان يحضروا باب الملك بشرط ان يمتنعوا عن الرقص والغناء . وبعد قليل حظر عليهم ذلك ايضاً .

(٤) قد جرت عادة ملوك المغول في الهند ان يزنوا أنفسهم بالذهب والجواهر الثمينة ويتصدقوا بها على الفقراء وذوي الحاجة زعماً منهم ان هذه تقيهم نوائب الدهر وتدفع عنهم شرها . فألغاها أورنك زيب في السنة الثانية عشرة من حكمه .

(٥) وفي السنة نفسها عزل المنجمين عن مناصبهم .

(٦) ومن عادة بعض ملوك المغول أنهم كانوا يطلون من شرف قصورهم وحصونهم كل صباح لتتمتع الرعية بالنظر الى وجوههم الميمونة ، شأن الملوك الوثنيين في رعيتهم ، اذ

كانوا يعبدون ملوكهم ويقدسونهم . وقد أصر على هذه البدعة المشؤومة الملك شاه جهان (١٠٣٧ - ١٠٦٨ هـ) على ما كان به من رزانة وسلامة في الفكر .

ما الملك أورنك زيب ، فما كان ليتحمل هذه الصنيعه ، فأمر بالانقطاع عنها في السنة الحادية عشرة من توليه الأمر .

(٧) أصدر أمراً بأن لاينسج شيء من الثياب الذهبية في دار الصناعة الملكية .

(٨) قد عرفت مما أسلفنا ان اكبر أباح بيع الخمر علناً ، ثم منع ولده جهان كير (١٠١٤ - ١٠٣٧ هـ) بيعها العلني ، الا أن أمره بذلك لم يغن شيئاً ، اذ كان بنفسه مدمناً للخمر سكيراً وأباح للناس ان يتعاطوها في بيوتهم ، بحيث لاتقع عليها عين الناظر . ولما تبوا شاه جهان عرش الملك أصدر امره السامي بمنع بيع الخمر بتاتا ، الا انه استثني النصارى من ذلك واباح لهم ان يصنعوا لانفسهم ماشاؤوا من انواع الشراب .

لكن اورنك زيب الملك المسلم الزاهد ، ما كان ليقنع باصدار الاوامر فقط ، بل اعتزم ان يستأصل شأفة ام الخبائث ويجتث شجرة الشر من جذورها . فأفرد مصلحة خاصة للاحتساب الشرعي وعين لها موظفين وعمالا يقومون على تنفيذ امره ويسعون سعيهم في البحث عمن عسى ان يكون قد اقترف هذه الكبيرة . فكان كل من يؤخذ ببيع الخمر يعاقب بالضرب بالدرة او الحبس . وهذه مأثرة لهذا الملك المسلم لم يستطع جحودها من يصمونه بكل عيب وينسبون اليه كل قبيحة .

وهاك ماقاله أحد معاصرينا من مؤرخي الهنادك بعدما فصل القول في جهوده المتتابعة للقضاء على هذا المنكر الشنيع :

« ... لكنه لم يكن ممكناً ان يمحق هذه الجريمة محقاً بحيث لا يبقى لها عين ولا اثر ، لان الفساد كان قد بلغ من قبله مبلغاً ماعادي يمكن معه القضاء عليه واستئصال شأفته ، الا ان الفخار كل الفخار لاورنك زيب ، اذ لم يأل جهداً في ابتغاء ذلك المحال [1] »

(٩) وكذلك صدر الامر الملكي للبغايا والراقصات أن يتزوجن او يخرجن من حدود المملكة .

(١٠) منع المقامرة .

ج - نظام الحكم في عصره :

هذا برض من عد وقليل من كثير فيه كفاية لمن اراد معرفة مزيته بين اجداده . وجملة القول ان الملك اورنك زيب كان مثلا حسنا لملك مسلم ، ورث المملكة الارستقراطية عن آبائه واحب ان يبقى متقيدا بقيودها محافظا على خصائصها . وفي الوقت نفسه تمنى من صميم فؤاده ان يبقى مسلما صادقا ، مستمسكا بأذيال الكتاب والسنة ، مطيعا لما ورد فيها من نظم للحياة البشرية وقوانين للسعادة الانسانية . فكأني به اراد ان يجمع بين نقيضين من حيث يشعر اولا يشعر ، لان الاسلام لايعرف للأمير او الخليفة السلطان المطلق ، والممالك المسلمة الهندية كلها

---

(١) شرما : ص ١٢٢

كانت ارستقراطية بحتة ، لم تكن من نظام الحكم الاسلامي في قليل ولا كثير .

وإنما كان يختلف ضررها باختلاف الملوك وافكارهم الشخصية وميولهم الذاتية ووجهات نظر كل منهم فاذا اعتلى سرير الملك رجل صالح مثل فيروز تغلق (٧٥٢–٧٨٩ ﻫ) او أورنك زيب (١٠٦٨–١١١٨ ﻫ) تجلت الثقافة الاسلامية بأجلى مظاهرها وظهر للملأ مافي الاسلام وقوانينه المدنية من حكمة وبصر بطبائع الامم . وان امتلك ناصية الامر رجل لايأبه لأوامر الشرع ولا يحتفل بهامثل علاء الدين الخلجي (٦٩٥–٧١٦ﻫ) انتكست رايةالاسلام وانكسفت شمس محاس الدين المبين ونظمه الادارية واذا شاء ربك ان يستبد بالامر طاغية مثل جلال الدين اكبر (٩٦٤ – ١٠١٤ ﻫ) ، يتخذ دين الله هزوا ولعبا وينصب لأهله العداء ، فلا عجب ان ضاقت على المسلمين الارض بمـــا رحبت وحسبت ان لا ملجأ لهم من عدوانه واضطهاده الا الى الله جل وعز شأنه .

فأنت ترى ان ملوك الهند المسلمين ما كانوا يتقيدون بشيء من نظام الحكم الاسلامي ولم يكن لهم دستور او قانون اساسي يسيرون عليه ويعملون بمقتضاه وانما كان الصالحون منهم يودون من تلقاء انفسهم ان يكون الشرع الاسلامي رائدهم في تنظيم أمور المملكـة يرجعون اليـه اذا أشكل عليهم شيء أو عرضت ملمة ؛ فكأنهم كانوا يسعون ان يجمعوا بين طرفي نقيض ، كما قلت آنفـــاً . ومن ثم تراهم يخطئون كثيراً في تطبيق الشرع الاسلامي والتوفيق بينه وبين ميولهم الاستبدادية الارستقراطية

فبينما نرى الملك اورنك زيب — وهو أورعهم وأوقفهم عند حدود الله ورسوله — يضرب الجزية على سكان البلاد ، نجده في الوقت نفسه يهدم معابدهم وأوثانهم ، مع ان الشرع لم يسمح بهدم معابد أهل الذمة الذين تضرب عليهم الجزية .

وبينما نقرأ كثيراً في كتب التاريخ عن كمال خلقه واتزان طبعه واعتدال سيرته ، اذ بحادثة خطيرة تستوقفنا — وان كانت تافهة في باديء أمرها — تجعلنا في حيرة من أمره وبيان ذلك انه « ... في السابع والعشرين من شعبان من سنة ١٠٨٧ للهجرة — السنة التاسعة عشر من توليه الأمر — دنا منه أحد السقاة على سلالم الجامع الكبير وحياه بتحية الاسلام . فنفذ الأمر الملكي بأن يفوض الى الشرطة[1] »

هذه هي غطرسة الملك وكبرياء الارستقراطية . وهذا شأن الملوك في كل بلد وفي كل زمان . وقد أحسن الاسلام اذ قضى على هذه وتلك قضاء لاحياة بعده

وليست تبعة هذا النظام على اورنك زيب فهو من تقاليد ملوك المغول الارستقراطيين وانما يؤخذ عليه أنه لم يتطهر من أرجاس النظام

---

(١) تبصرة الناظرين (من كرائم مخطوطات الخزانة الشرقية في بانكي بور : رقم ١٥٨) للمير السيد محمد بن عبد الجليل البلكرامي . وهاك نص العبارة بالفارسية :
سنه جلوس نوزدهم . . . . بيت وبيغم شعبان آبدارى بز رينهك مجد جامع نزديك سيدة سلام عليك كنفت حكم شد حواله كوتوال نمانيد (الصحيفة : ٥٩)

المهيمن في عصرة تطهراً كاملاً . وقد يعذر من يكون في مثل موقفه الحرج .

وكذلك نجد هذا الملك الصالح يتعاطى بعض البدع مع أنه نفسه قضى على معظم البدع التي كان قد استحدثها أكبر ورجال حاشيته . ومالنا نلومه على ذلك ، حينما نرى علماء عصره متمسكين في ظلمات البدع يخبطون فيها خبط عشواء[1] .

وانا ذاكرون الك شيئاً منها عن قريب ، ان شاء الله تعالى .

وجملة القول ان الملك اورنك زيب قد خدم الدين وأحيا مآثره وبذل الجهد المستطاع لاعلاء كلمته ورفع شأنه في زمان قل فيه ناصره فأدى الواجب وقام بما عليه وله يد على كل مسلم في هذه البلاد لاتنسي أبد الدهر . نضر الله وجهه يوم القيامة وتجاوز عن سيئاته .

(١) راجع تبصرة الناظرين . ص ٩٦، ١١٩، ١١٨، ٨٧، ٨٦ ؛ مخطوطة من كرائم مخطوطات الخزانة الشرقية في بانكي بور . - المؤلف-

الإمام ولي الله الدهلوي

ومن تبعه

١١١٤ - ١١٧٦ هـ

الهند الاسلامية في عصره :

دخل الاسلام الهند من طريق الجبال الشمالية الغربية في أواخر القرن الرابع للهجرة . وقد حدثناك فيما اسلفنا عن غربة الاسلام خلال القرون الستة التي تلت محمودا الغزنوي (٣٨١ - ٤٢١ هـ) وما كان عليه المسلمون من جهل فاضح بدينهم وما نشره بعض ملوكهم من الفساد والضلال فتجاوزوا فيه الحد ، وكذلك مر بك فيما تقدم انه مانبغ في المسلمين طوال تلك القرون من يجدد لهم أمر دينهم ويحيي مآثر الاسلام في هذه البلاد ويعيد لها نضرتها وشبابها الا رجلين صالحين : احدهما كان فقيراً ملك على الناس مشاعرهم وقلوبهم فارشدهم الى مواطن الحق وسعى سعيه في اخراجهم من ظلمات الجهل والشرك والبدعة ، وثانيهما كان ملكا عاش عيشة الزهاد والفقراء واجتهد بكل ما أوتي من عزيمة وقوة في أن

يكبح جماح الفتن ويقمع شرها وفي ماسردنا من عظائم أعمالها كفاية للقارىء المستبصر ، ولكن ، قل لي بالله ماذا يفعل ذانك الرجلان وقد تأصلت جذور الفتنة وامتصت دماء المسلمين السذج ستة قرون أو أكثر ، فتفاقم شرها وأعيا الحذاق النطاسيين دواؤها ، ولو خلف اورنك زيب خلف ، لهم رأي وصلاح واقدام وعزيمة لكان يرتجى أن تثمر جهود ذينك المجاهدين الصالحين وتؤتى أكلها ، لكنه مما يؤسف له أنه قد خلف من بعده خلف كل منهم كان أضعف قوة وأدنى بأساً من سابقه ، حتى أصبحت الدولة المغولية على وشك الانقراض ، فنجمت قرون الفتن من جديد ونفقت سوق البدع والخرافات في المسلمين حسب ما جرت به عادتهم منذ قرون ، وعادت الثقافة الهندكية الوطنية — التي كان قد تقلص ظلها بجهود السيد المجدد والملك اورنك زيب — تسترد سابق عهدها وغابر شأنها ، وكذلك تطاولت الشيعية بأعناقها ، مستظلة برايات امراء الولايات ، متدرجة في اعطافهم واكنافهم .

هذا ما آلت اليه حال الحكومة ورجالها ، اما العلماء والمشايخ فلا تسل عما صاروا اليه من الوهن في عقائدهم والانحطاط في اخلاقهم والتهاون في سائر اعمالهم ،

فهؤلاء المتسمون بالدروشة والصوفية قد بسطوا زرابيهم في زواياهم وانعزلوا عن الناس ، يكيدون للاسلام ويخربون بيوت الله بأيديهم وأيدي أتباعهم من الجاهلين ،

اما المدارس [1] فما زالت ترتج بأصوات أتباع أرسطو وفلاسفة اليونان ، وان تعجب ، فعجب عكوفهم على عظام اليونان ، وان تعجب ، فعجب عكوفهم على عظام اليونان البالية ـ اريد بها علومهم ـ ودراستهم لكتبهم ومؤلفاتهم في القرن الثاني عشر للهجرة وقد نخرت وبليت ، ولم يبق في بلاد اليونان نفسها من يلتفت اليها ويبذل مجهوده في تحصيلها ، لكن علماءنا مازالوا معجبين بها واصلين ليلهم بنهارهم للتبريز فيها ، غافلين عن حاجات العصر ومقتضياته ،

فبقيت تلك المدارس المسماة بالاسلامية ، متسكعة في ظلمات اليونان ، صارفة وجهها عن ينبوع الدين الثرثار * ، فلاتكاد تسمع فيها للكتاب او السنة ذكراً او همساً ، ومن أكبر البليات ان البيوتات العلمية الكبرى وفطاحل علمائها ايضاً ، كانوا يكتفون من كتب الحديث

---

(١) دخلت العلوم الاسلامية في الهند أولا في القرن السابع وظل همهم منحصراً في الفقه والاصول الى القرن الثامن . ثم جاءت كتب التفتازاني (ت سنة ٧٩٣ هـ) فنالت رواجاً عظيما وتلقاها الناس بالقبول وأقبلوا على دراستها اقبالا . ثم جاءت كتب وشروح جديدة لكتب المتأخرين من المناطقة ، حتى جرى هذا المنهاج العقيم ـ المعروف بالدرس النظامي ، نسبة الى الملا نظام الدين السهالوي (ت سنة ١١٦١/١٧٤٨) ـ الذي لايزال العمل به جارياً في مدارسنا «الاسلامية» . والنصيب الاوفر فيه للشروح والحواشي وتعليقات المتأخرين على كتب المتفلسفين والمناطقة ثم أضافوا الى «الدرس النظامي» كثيراً من الشروح والحواشي لكتب المنطق ، فأصبح ضغثاً على إبالة .

المؤلف ـ

* الثرثار : ذو الماء الغزير وقد سبقت الاشارة اليه . ـ الناشرون ـ

بدراسة مشكاة المصابيح[1] ومشارق الانوار ، وهم هم يصرفون سنين طويلة من أعمارهم في العكوف على كتب أرسطو وعلماء اليونان، ينخلونها نخلًا ويقتلونها بحثاً ، فأي عجب اذا بلغ منهم الانحطاط هذا المبلغ ؛ وهل يرتجى للمسلم شفاء من أدواء الجهل والبدع اذا تنكب عيون الكتاب العزيز والسنة النبوية ؟ وكأني بهم ما استفادوا من عظات السيد المجدد والشيخ عبد الحق الا تحلة للقسم ،

وكأني بالشيخين لم ينجحا في ترغيب العلماء في القرآن والسنة الا قليلا ، والذي أراه انه ماحرمت طبقة من المسلمين دعوة السيد المجدد والشيخ عبد الحق ونصائحها الغالية مثل ما حرمها علماؤنا اما اهل الفتوى فجعلوا يقدسون كتب الفقه والفتاوي واتخذوها قرآنهم وآمنوا بها كما يؤمن بالغيب واصبح الشك في مسألة من مسائلها عبارة عن كفر بالله ورسوله ، ومن ذا الذي يجترىء ان ينكر عليهم شيئاً من مسائلهم التي يفتون بها او افتي بها ض من تقدمهم من علمائهم وفقهائهم كابن نجيم المصري (ت ٩٧٠ هـ) او الملا على القارىء الحنفي[2] (ت سنة ١٠١٤ هـ) وان تجاسر أحد على ذلك سلقوه بألسنة حداد ولقبوه بألقاب شنيعة .

---

(١) ومن علمائنا المعاصرين من بلغت به العصبية للاسلاف والجدد ، ان بالغ في الدفاع عن قلة احتفالهم بدراسة كتب الحديث وتهافتهم على خرافات اليونان وترهاتها . وقد أشرنا الى ذلك من قبل أيضاً . — المؤلف —

(٢) ذكرنا هذين العالمين الجهبذين ضربا للمثل ، وليست التبعة على هؤلاء الاعلام ، وانما على الذين يؤمنون بأقوالهم وايمانهم بالكتاب والسنة .

لعل القاريء يسائلني – وقد أسهبت في الكلام عن عصر الامام ولي الله – كيف كانت معاملتهم للكتاب العزيز في مدارسهم وحلقات دروسهم ؟ فالحق – والحق أحق ان يقال – أننا لم نسمع بالكتاب العزيز يدرس في مدارسهم أو يصرف بعض الوقت في الكشف عن وجوه معانيه والتنقيب عن مخبآت أسراره . وكيف يتأتى لهم ذلك ، وقد تهافتوا على المعقولات تهافتاً وتزاحموا عليها بالمناكب .

فلم يكن لأهل العلم منهم أدني المام بمعارف الكتاب العزيز ، دع عنك ذكر العامة والأوساط .

العالم الاسلامي في القرن الثاني عشر للهجرة

ولما كانت دائرة كلامنا في هذا الكتاب تنحصر في تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند ، ماتعرضنا للآن لما كانت عليه الحال في سائر البلاد الاسلامية في تلك القرون ، الا انه يجمل بنا الآن ان ننظر في أحوال العالم الاسلامي ونتأمل أفكار أهله وأعمالهم في القرن الثاني عشر للهجرة ، فنحن الآن بصدد ترجمة رجل عبق أريج فضله في العرب والعجم واخترقت معارفه حدود بلاد الهند . فلايخفى على من له إلمام بماجريات التاريخ الاسلامي ذلك الانحطاط العلمي والفكري الذي أحاط بالعالم الاسلامي سرادقه وأناخ عليه منذ القرن الثامن للهجرة ، فقد أغلق الفقهاء باب الاجتهاد وتلقوا متون مؤلفات المتأخرين وحواشيها بالقبول في حلقات دروسهم . وكذلك تسرب الى المجتمع الاسلامي وهن في خلق أهله وشمائلهم لاستيلاء أمراء الجهلة على أمورهم واستبدادهم بالأمر دون غيرهم

فدب فيهم الانحطاط ، دبيب الديدان في العود ، الى ان استفحل الأمر واشتد الخطب وبلغ الأمر مبلغا في القرن الثاني عشر للهجرة ، بكى عليه الصديق ورثى له العدو الشامت ، وهذا ستودارد Lothsop Stoddard الاميركي ، أحد علماء الاجتماع المعاصرين .

وقد وصف تلك الحال الموجعة المؤلمة وصفاً حقيقياً وصورها تصويراً ، « حتى لو ان فيلسوفاً نقريساً* من فلاسفة الاسلام او مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية أراد تشخيص حالته في هذه القرون الاخيرة ما أمكنة ان يصيب المحز وان يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الاميركي ستودارد – كما قال عنه أعظم كتاب الشرق وامامهم في هذا العصر الامير شكيب ارسلان رحمه الله – وهاك ماوشته بنانه لتعرف كيف يشخص كاتب نصراني أمراضنا الاجتماعية . قال ستودارد وهو يصف حال المسلمين والاسلام في القرن الثامن عشر الميلاد (القرن الثاني عشر للهجرة) : – « في القرن الثامن عشر كان العالم الاسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ومن التدني والانحطاط أعمق دركة ، فاربد جوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ، وانتشر فيه فساد الاخلاق

---

(١) حاضر العالم الاسلامي : ١٦٠،١ (الحاشية)

(٢) Thenew Worldof : ص ٢٥،٢٦ ؛ والتعريب للاستاذ عجاج نويهض (حاضر العالم الاسلامي : ٢٥٩،٢٦٠،١) ، الا اننا ماتقيدنا بتعريبه .

(٣) القرن الثامن عشر للميلاد ١٧٩٩/١٧٠١ يوافق معظم القرن الثاني عشر للهجرة (١٢١٤/١١١٣) الا ثلاثة عشر عاماً . –المؤلف–

* النقوس والنقرس الداهية والمحنك والنقرس ايضاً مرض معروف –الناشرون–

والآداب ، وتلاشى ما كان باقيا من آثار التهذيب العربي واستغرقت الامم الاسلامية في اتباع الأهواء والشهوات ، لافرق في ذلك بين الخاصة والعامة وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة لانعدام من يتعهد المدارس العديدة الباقية بالانفاق عليها والقيام بشؤونها . وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتيال . فليس يرى في العالم الاسلامي في ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول في الهند (أي الذين ملكوا الأمر بعد وفاة اورنك زيب) يحكمون حكماً واهناً ، وقام كثير من الولاة والامراء يخرجون على الدولة وينشئون حكومات مستقلة ، ولكن مستبدة كالتي خرجوا عليها .

وكان هؤلاء الولاة البغاة لايستطيعون اخضاع من في حكمهم من الزعماء وأمراء الاقاليم هنا وهناك . فكثر السلب والنهب وفقد الامن وصارت السماء تمطر ظلماً وجوراً . وجاء فوق ذلك كله رجال الدين المستبدون ، يزيدون الرعايا إرهاقاً فوق إرهاق ، فغلت الايدي وقعد الناس عن طلب الرزق ، وكاد العزم ينعدم في نفوس الاهالي ، وبارت التجارة بواراً شديداً وأهملت الزراعة ايما إهمال . وأما الدين فقد غشيته غاشيه سوداء . فألبس التوحيد النزيه الساذج (Austere) الذي علمه صاحب الرسالة سجفا من الخرافات وقشور الصوفية . خلت المساجد من المصلين وأقفرت ، وكثر عدد الادعياء والجهلاء وطوائف الفقراء والدراويش المشعوذين ، يخرجون من مكان الى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم في

الحج الى قبور الأولياء ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور وظنوا ان الله تقدست أسماؤه بمكانة لايمكن الوصول اليه الا بواسطة هؤلاء الأولياء . وغابت عن الناس تعاليم القرآن وهم بين غافل وجاحد . فصارت تشرب الخمر ويتعاطى الافيون في كل مكان ، وانتشرت الفحشاء وهتكوا ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء . ونالت مكة المكرمة والمدينة المنورة مانال غيرهما من سائر مدن الاسلام فصار الحج الذي فرضه النبي (الله) على من استطاعه هزواً وسخرية وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطاً بعيد القرار . فلو عاد صاحب الرسالة الى الارض في ذلك العصر ورأى ما كان يدعى الاسلام ، لغضب واطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين ، كما يعلن المرتدون وعبدة الاوثان » .

بينما بلغ حال المسلمين هذا الدرك الاسفل من الانحطاط وذهبت بهم الغواية كل مذهب ، بزغت الشمس التي أشرقت بنورها الظلمات وانقشعت بضيائها سحب البدع والمنكرات ونبغ الرجل الذي رتق الفتوق التي ضلت بها العقول وجبر الصدوع التي حارت لأجلها الألباب . ألا وهو الرجل العبقري الفذ الامام العارف بالله الحجة ولي الله بن

عبد الرحيم الدهلوي[1] ، فتبدلت الارض غير الارض وتغير الجو وخفقت راية الكتاب والسنة مرفرفة بعد ما كانت ناكسـة . وظهرت بوادر الاصلاح والتجديد بعد ما كانت خافية . وذلك كله بمساعي الامام ولي الله الدهلوي وأنجاله الغر الميامين الكرام وتلامذته النجباء النوابغ العظام الذين جددوا مادرس من آثار الدين القيم وأحيوا معالمه ورغبوا الناس في الاعتصام بالكتاب والسنة ، الى غيرها من أعمالهم التي تضيق عن سردها بطون الاسفار . ولكن هذه النظرة الاجمالية في تاريخ الاسلام في الهند تبقى ناقصة بتراء ان أغفلنا ذكر أعمال ولي الله ومساعيه الجليلة في احياء دعوة الاسلام واقامة الدين من جديد وها أنا مفض اليك بلمع من جلائل أعماله متوخياً الايجاز حسب ما استطعت .

جلائل أعماله :

ولد الامام سنة ١١١٤ للهجرة قبل وفاة الملك العادل أورنك زيب

---

(١) ولد سنه ١١١٤ للهجرة . وكان أبوه الشاه عبد الرحيم (ف ١١٣١ هـ) معدوداً من كبار الشيوخ في عصره . قرأ الامام على أبيه وتخرج على يده ولما يجـاوز السنة الخامسة عشرة من عمره . ثم اشتغل بالتدريس الى ان تاقت نفسه الى زيارة الحرمين الشريفين ، فسافر اليها سنة ١١٤٣ هـ . وهو اذ ذاك في الثلاثين . [واقام هناك عامين وقرأ الحديث على الشيخ أبي الطاهر محمد بن ابراهيم الكردي المدني (ت ١١٤٥) . ثم رجع الى الهندسة ١١٤٥ هـ وبقي بها يدرس ويصنف ثلاثين سنة ، انتفع به في خلالها خلق كثير ممن لا يأتي عليهم الاحصاء . وتوفي سنة ١١٧٦ للهجرة ؛ رحمه الله ونضر وجهه يوم القيامة .

بأربعة أعوام . وكلما قارنت بين البيئة والعصر [1] اللذين نشأ فيهما الامام وترعرع وبلغ أشده وبين ماجاء به من فكرة سليمة ناضجة ومعرفة صادقة بأدواء الامم وأسباب انحطاطها ، أخذ العجب من قلبك مأخذاً عظيما . نشأ في زمن عمت فيه الفوضي وفشا الجهل وانتشرت الرذيلة والفحشاء بين الملوك والسوقة ، ثم يأتي بمؤلفات وكتب ، يضرب فيهـــا ربقة التقليد الاعمى عرض الحائط وينظر الى التاريخ والمجتمع البشري نظرة الحكيم المستبصر ، ويتكلم ويخوض في دقائقها مستقيـاً من معين الكتاب العزيز والسنة النبوية . هذه مؤلفاته ونتائج قريحته منتشرة بين القاصي والداني ، هل تجد في لغتها وطرق تأديتها للمعاني وأفكارها ونظرياتها والحقائق المبعثرة في مطاوي بحوثها وثنايا كلامها — هل تجد في كل ذلك من أثر لتلك البيئة القذرة المرذولة التي قلما سبق لها نظير في تاريخ الشعوب ؟ هذه حجة الله البالغة

---

(١) ولد قبل وفاة اورنك زيب (١٠٦٨ — ١١١٨هـ) بأربع سنين، وتوفي سنة ١١٧٦هـ في عصر شاه عالم الثاني (١١٧٣—١٢١٨هـ) الذي تقوضت في عهده دعائم المملكة المغولية تقوضاً تاماً ، وان تبوأ سرير المملكة بعده ملوك ، لكنهم كانوا ألعوبة بيـــد الانكليز ، حتى ان آخرهم بها ورشاه الثاني (١٢٤٥-١٢٧٣هـ) لم يكن له الامر الا في داخل الحصن الاحمر – فعاش الامام ولي الله في زمن تتابع فيه ثمانية ملوك على عرش دهلي منهم سبعة ، كل تال منهم أضعف بأساً من سابقه : وهم : بهادرشاه الاول (١١١٨—١١٢٣ هـ) وجهان دارشاه (ف سنة ١١٢٣هـ) وفرخ سير (١١٢٤ – ١١٣١ هـ) ومحمد شاه المعروف بالخليج (١١٣١ – ١١٦١ هـ) واحمد شاه (١١٦١ – ١١٦٧ هـ) وعالم كير الثاني (١١٦٧-١١٧٣ هـ) وشاه عالم الثاني (١١٧٣—١٢١٩ هـ) .

ولغتها النقية الصافية ، هل مر بك شيء من مثلها في الالف سنة من تاريخ المسلمين في هذه البلاد ؟

كلا ! لا والله ، وايم الحق ان الامام نظير نفسه ونسيج وحده في بيانه والكشف عن أسرار القرآن والبيان لوجوه التوفيق بين أقوال الأئمة وتطبيق الشريعة الاسلامية لقوانين الاجتماع والاقتصاد .

وصفوة ماقلنا آنفاً ان الامام ولي الله الدهلوي[1] من الرجال العباقرة الافذاذ الذين يسعون ليل نهار لاحداث انقلاب فكري وتغيير في عقول الناشئة والشبيبة وصقل أذهان الشيوخ ليرقى بهم جميعاً الى المستوى الفكري المنشود الذي يمكنهم من النظر الى الاشياء نظرة الناقد المنصف النزيه ،

---

(١) كل عبقري أو عالم فذ يكون وليد بيئة ، كما يقولون ، او يكون للاساتذة تأثير ملموس في أفكاره وآرائه حسب المعتاد في آراء أعاظم الرجال ومفكريهم . لكن الامام ولي الله نظير نفسه في هذا الباب ،فلن تجد في الهند عالماً او مفكراً سبقه الى مثل هذه الافكار والآراء السديدة التي جاء بها في مؤلفاته . أما بيئته فقد عرفتها آنفاً ، الا انه يظهر لنا من قراءة مصنفاته أنه قرأ ما وصلت اليه يده من كتب من تقدمه من العلماء - أمثال الغزالي وعز الدين بن عبد السلام وأبي طالب المكي وغيرهم - واستفاد منها من غير تعصب أو تحفظ . وكذلك نجد في ترجمته انه درس على الشيخ أبي الطاهر محمد بن ابراهيم الكردي المدني وتخرج على يده في علم الحديث حين زيارته للحرمين سنة ١١٤٣ هـ والمعروف من امر الشيخ محمد بن ابراهيم الكردي أنه كان عالماً نحريراً ومحدثاً جليلا يحب ابن تيمية وجلائل آثاره كما ذكر صاحب (جلاء العينين : ص ٢٦) عنه انه كان « سلفي العقيدة ذابا عن شيخ الاسلام ابن تيمية ». فاستخرجنا من ذلك انه درس كتب شيخ الاسلام واستفاد منها . ثم تحققنا من بعد ذلك بعدما سبرنا غور مؤلفاته وتأملنا بعض بحوثه ، فوجدناها مقتبسة من بعض مؤلفات شيخ الاسلام . هذا ما آثرت الاشارة اليه في هذا المقام وبسط الكلام له موضع آخر .

غـــير متأثر بما تملي عليه بيئته وتدعو اليه من سفاسف القول ومنكرات الافعال . ومن أنعم النظر في مصنفاته ومؤلفاته اعترف بصدق ما قلنا .

وكذلك يعرف الذين لهم اطلاع على تاريخ الشعوب والامم وسير قادتها ورجالها المفكرين ، أن أمثال هؤلاء الرجال قلمـا يتسنى لهم أن يقوموا بأنفسهم بحركة عملية تأتي بالانقلاب المطلوب والتجديـــد المنشود . بل كثيراً ماتمضي حياتهم كلها في صقل الاذهان وتنوير الافكار وازاحة العقبات وحل العقد فتنشأ بذلك ناشئة متوثبة متضلعة من تلك الآراء والافكار ، مشربة قلوبهم حبها وحب العمل لها ، تأخذ بيدها لواء الاصلاح والتجديد وتسير بالامة الى بغيتها وضالتها حتى تدرك غايتها أو تموت دونها . هـذه سنة الله في خلقه ، حسب ما يظهر لنـا من تتبع تاريخ الامم ودراسة ماجريات الشعوب الماضية . فالذي نراه والتاريخ يشهد به ، ان الامـام ولي الله كان من عـــداد أولئك المفكرين المصلحـين الذين استنارت بأفكارهم المبثوثة في تفاريق مؤلفاتهم عقول معاصريهم ومن جاء من بعدهم وتنورت قلوبهم وانجلى مالصق بمرآتها من صدإ الشك والجمود وانحـــل ما انعقد في أذهانهم من مشاكل الزيغ والارتياب .

لكنه رحمه وأسكب عليه سجال رضوانه ، لم يتـأت له أن يقوم بنفسه بالتجديد العملي وينهض بالامة ويرقى الى المستوى الفكري والخلقي الذي أوضحـــه في مصنفاته ، حتى أنه لم يتسن له أن يقضي على البدع

التي كانت فاشية في بيته[1] . وعذره في ذلك أنه كان منصرفا بكل قوته الى صقل مرآة الافكار وتنوير ظلمات الجهل وجلاء أصداء الزيغ وتكوين فكرة صافية مرتوية من موارد الشرع ، ثابتة على دعائم الكتاب والسنة. فما سنحت له فرصة يتناول فيها ما أحاط به وببيئته من الفساد والطغيان ، يتناولهما بالاستنكار ويقوم في وجههما جهراً ، قومة جندي باسل . وانما كانت تلك الخطوة الجبارة في حاجة الى رجال آخرين ، وقد هيأهم الله في أقل من نصف قرن من بين أهل بيته وتلاميذ تلامذته وسيمر بك فيما يأتي من فصول هذا الكتاب من حديث جهادهم المبرور ماتقر به عينك ويثلج به صدرك ان شاء الله تعالى .

أما الامام ولي الله فيمكننا أن نقسم أعماله الجليلة الى قسمين :

قسم يتعلق بتنقيح النظريات والفكر والآراء وانتقاد التاريخ والممالك المسلمة المنبثة في مختلف بقاع الارض من لدن عصر التابعين الى العصر الذي عاش فيه الامام .

وقسم آخر يتعلق بمذهبه المعتدل في الفقه واطلاق سراح العقول من ربقة التقليد الأعمى والامعان في النظم الاسلامية ومناهجها واستخلاص

---

(١) من البدع الفاشية في ذلك العصر أنهم ما كان يحيون بتحية الاسلام على الصيغة المسنونة (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ، بل كانوا يسلمون تسليم الاعاجم بكلمات (الخادم يرفع الى سدتكم آداب التجلة والاكرام) أو (العاجز يعرض عليكم التحيات اللازمة)، حتى ان البيت الولي اللهي أيضاً ما كان خالياً من هذه البدعة ، وكذلك ما كانوا يزوجون الأيامى من بناتهم حسب ماجرت عليه الجاهلية الهندكية .

برأيه الناضج الحكيم الجامع من ثناياها وتفاريقها . وانا لمفضون اليك بشيء من البيان والتفصيل عن القسمين لتكون على بينـــة من الامر وتعرف ما لمؤلفاته وآرائه الحكيمة السديدة من قيمة .

تنقيح النظريات والافكار :

فأول ماقام به الامام ولي الله بهذا الصدد أنه نظر نظرة في تاريخ الاسلام والمسلمين في القرون التي سبقت عهده وانتقده انتقاداً شاملا محيطا بجميع جوانبه . فهو أول رجل – في مـــانعرف – فرق بين تاريخ الاسلام والمسلمين ونظر في تاريخ المسلمين من جهة مقدار التوافق بـين حياتهم وبين تعاليم الاسلام وعقائده . فهل كان المسلمون مثلاً مستمسكين بالاسلام الصحيح ، داعين الى دين الحق الذي جـاء به النبي ﷺ ؟ أم التبس عليهم الامر ، فأدخلوا في حياتهم ومنهاج أعمالهم ونظام حكوماتهم أشياء لم تكن من الاسلام في شيء وهذا موضع دقيق تزل فيه الاقـدام وتلتبس فيه الطرق ويستبهم فيه وجه الصواب ، فقلما تجد في علماء المسلمين ومؤرخيهم – ممن نبغ قبل صاحبنا أو بعده – من تنبه لهـــذا الفرق العظيم بين تاريخ الاسـلام والمسلمين وأراد ان يجلو مرآة الاسلام ممـا لصق بها صدإ الجاهلية والعادات الاعجمية في مختلف القرون .

لكن الامام ولي الله قام بهذه المهمة خير قيام وأشار الى ذلك في معظم مصنفاته ، الا انه استوعب الكلام في ذلك ووفى الموضوع حقه في كتابه الشهير (ازالة الخفاء عن تاريخ الخلفاء) .

ثم هو انعم النظر في الأسباب الجوهرية التي افضت بالمسلميـــن

وملوكهم وعلمائهم الى تنكب المحجة البيضاء والعدول عن الطريق المستقيم وتأملها تأملا دقيقاً فاستخلص من دراسته الطويلة ومثابرته على البحث والتنقيب ان مرجع تلك الاسباب المختلفة التي اشار اليها في ثنايا مؤلفاته وتناولها بالنقد بوجه خاص في كتابه (ازالة الخفاء) الى سببين جوهريين[1] تحول نظام الحكم من الخلافة الى الملك وانعدام روح الاجتهاد وايصاد باب التحقيق واقتناع حملة العلم بالتقليد الجامد .

ولم يكتف الامام بالاشارة الى دينك السببين الجوهريين ، بل افاض فيهما وبين كل واحد منهما تبيينا واوضحه بالامثلة والشواهد من تاريخ المسلمين ، بحيث لا يبقي في القلوب منزعاً للشك وفي النفوس مجالا للريبة .

فبين الفرق بين الخلافة والملك وما كان له من تأثير في تغيير الاحوال وتحويل مجرى التاريخ الاسلامي .

وكذلك ذكر النتائج التي ظهرت في المجتمع الاسلامي من جراء ذلك وعدم اضطلاع أولى الامر بما كان عليهم من القيام بمصالح المسلمين ، ذكرها بوضوح وتفصيل بما لم يسبقه به أحد ممن تقدمه من رجال المسلمين وعلمائهم .

وها أنا ذاكر لك بعض ما أتى به من الآراء السديدة الناضجة في هذا الباب « ... ما أقام امير من امراء المسلمين فريضة الحج بعد سيدنا عثمان بن عفان ، بل اكتفى كل من جاء بعده من امراء المسلمين وملوكهم بارسال من ينوب عنه في اقامة شعائر الحج ، مع أنها من لوازم الخلافة وولاية أمر المسلمين وكما ان تبوؤ العرش ولبس تاج المملكة واعتلاء سرير الملك

---

(١) الفصل السادس (ص ١٢٤ - ١٥٨)

المتوارث كان يعد من امارات الملك عند القياصرة والأكاسرة ، كذلك إقامة شعائر الحج والقيام بأمرها مباشرة من امارات الخلافة وولاية الامر في الاسلام [1] . ومن أقواله في هذا الباب في كتابه (إزالة الخفاء) :

« كان الوعظ والفتيا فيما مضى موكولين الى رأي الخليفة. فما كان لأحد ان يعظ الناس او يفتي فيهم من غير إذن من الخليفة . لكنه لم يبق فيما بعد للخليفة سلطان عليها ، بل بلغ الأمر في الأزمنة المتأخرة الى أنهم ما كانوا يشعرون بحاجة الى ان يستشيروا أهل الصلاح والفضل في أمر الفتيا [2] الى ان يقول :

« مثل حكومتهم كحكومة المجوس ، الا ان هؤلاء يصلون ويشهدون شهادة الحق بألسنتهم . ومن سوء الحظ أننا نشأنا في ظل هذا التغير والانقلاب ، ويعلم الله ماذا يكون من مصير الامر في ما يأتي من الايام » [3] .

وكذلك ندد بالسبب الثاني – أي انعدام روح الاجتهاد وانتشار داء التقليد الجامد – الذي عده بحق من أسباب الانحطاط والتقهقر الحقيقية وأشار اليه في معظم مؤلفاته اجمالا وتفصيلا ، حسب ما اقتضاه المقام . وهذه مصنفاته (حجة الله البالغة ، والتفهيمات ، والمسوى ، والمصفى ، والانصاف ، وازالة الخفاء وغيرها) ، كلها مشحونة بآرائه الثاقبة وأفكاره النزيهة الناضجة في ذم التقليد الجامد وبيان الحاجة الى

( ) ازالة الخفاء : ص ١٣٤ (ملخصاً)

(٢) أيضاً (ص ٣٠)

(٣) ازالة الخفاء : ص ١٥٧

لانعاش روح الاجتهاد والتفكير . فمما جاء في كتابه ازالة الخفاء عن تاريخ الخلفاء – وهو من أحسن مؤلفاته ، الا انه بالفارسية ، يتخللها نتف وشذرات بالعربية : – « ما كان أحد يسمي نفسه حنفياً أو شافعياً الى أواخر دولة الشام – الدولة الاموية – بل كان الجميع يستنبطون الاحكام من الحجج الشرعية حسب طريقة أئمتهم وأساتذتهم .

وانما تسمت كل طائفة باسم ولقب في دولة العراق – عصر الدولة العباسية – وبلغ الأمر الى أنهم جعلوا يتلكؤون عن الحكم بالحجج الشرعية المستخرجة من الكتاب والسنة ، ما لم يبلغهم نص من نصوص فقهاء مذهبهم الذي ينتمون اليه ويتعصبون له .

وهكذا أصبحت الخلافات الفقهية التي نشأت وظهرت بمقتضى الاستدلال من الكتاب والسنة واختلاف أذواق الناس في الفهم والاستخراج مذاهب مستقلة ثابتة الأركان ... »

« ... ثم لما دالت دولة العرب وانتشر الناس في البلاد النائية البعيدة عن العواصم الاسلامية ، أخذ كل منهم بمذهبه الفقهي الذي تلقاه عن مشايخه واتخذه أصلاً يرجع اليه وينبوعاً يستقى منه . فالذي كان مستنبطاً من الكتاب والسنة ، أصبح سنة ثابتة لاتحتمل التغيير والتبديل ، وأصبحوا في دراستهم يرجعون اليها ، يستخرجون من تلك المسائل المستخرجة نفسها ويفرعون من تفريعات من سبقهم (علم الشأن تخريج بر تخريج

وتفريع بر تفريع [1] .

وقد وصف الامام هذا الداء بما لامزيد عليه في المبحث السابع من كتابه[2] (حجة الله البالغة) وفي رسالته (الانصاف في بيان سبب الاختلاف) التي أفردها للبحث في هذه المسألة . وكلاهما بالعربية ، طبعا مراراً في الهند ومصر . فمن شاء التفصيل فليرجع اليهما .

هذا ، وكان من جهود الامام ولي الله في باب تنقيح النظريات والأفكار ان التفت الى ماشاهده من الاحوال في عصره ، بعدما فرغ من انتقاد (أسباب التقهقر والانحطاط في العصور الماضية . وقد عرفت مما تقدم أنه نبغ في عصر طبق فيه الجهل وعمت الفوضى وكادت تدرس معالم الحق . فاستعرض حال عصره ونبه كل طائفة الى مافيها من ازورار عن المحجة البيضاء وانصراف عن منهج الحق ، فخاطب كل فئة باسمها وبصرها بمواقع أخطائها ودلها على ماتسرب الى عقائدها من الوهن وأعمالها من الضعف والانحلال . ومن هذا الباب قوله في مصنفه الشهير – تفهيمات : –

« أما هذا الوصي (يريد به نفسه) فانه وجد في زمان شاع فيه ثلاثة أشياء : –

(١) البرهان ، وذلك لاختلاط علوم اليونانيين واشتغال القوم بالكلام حتى لايكاد يوجد كلام في العقائد الا مزوج (كذا)

---

١) ازالة الخفاء : ص ١٥٧

٢) المجلد الاول ، طبعة سنة ١٣٢٢ هـ (ص ١٠٢ – ١٢٩) .

بمناظرات برهانية .

(٢) والوجدان ، وذلك لاجتماع الناس شرقاً وغرباً على قبول الصوفية وانقيادهم لهم حتى كانت أقوالهم وأحوالهم أعلق بقلوبهم من الكتاب والسنة وكل شيء ، وحتى رموزهم وإشاراتهم قبلت وشاعت الناس . فمن [١] أنكر رموزهم وإشاراتهم او كان لهم مجانباً فانه لايقبل ولايعد من الصالحين .

ومامن واعظ على رؤوس المنابر الا وكلامه ممزوج باشارات الصوفية ، ومامن عالم يعلم الناس الا وهو يعتقد كلامهم ويتأمل فيه اوهو من أصحاب الطبيعة كالبهائم . وما من ناد من أنديه الامراء وغيرهم الا وعرضة ألسنتهم وبذلة أيديهم وفكاهة محافلهم أشعار الصوفية ونكاتهم .

(١) والسمع ، وذلك لدخولهم في الملة الاسلامية . ونشأ في زمان اتبع فيه كل ذي رأي رأيه ولن ترى فيه أحداً يقف على المتشابهات وما أشكل عليه من العلم ، ولن ترى أحداً الا ويخوض في فهم معاني الأحكام وأسرارها ويميل في ذلك الى المعقول ، وصار لكل رجل مذهب حسب مافهمه ، وتجادلوا وتناظروا وتباحثوا ولم يكن الاتفاق والاصطلاح أصلاً .

---

(١) ومن هنا نعرف السبب الذي جعل الامام نفسه يستعمل رموز الصوفية واشاراتهم في مؤلفاته كما تراه يلقب نفسه بالموصلي في أول هذا الكلام . ولاشك ان هذا الامتزاج كلامه باشارات الصوفية ورموزهم ، قد قلل من قيمة مؤلفاته وجعلها عرضة لتأويل المبطلين وتحريف الزائغين .

واختلفوا في أنواع الفقه ، منهم الحنفي ومنهم الشافعي ، وكل يتعصب لأصحابه وينكر على الآخرين وكثرت التخريجات في كل مذهب وخفي الحق [1] » .

وله كلام نفيس في هذا الباب في غير موضع من هذا الكتاب، نقتصر هنا على نقل جملة منه ، حتى تتضح للقراء آراؤه الناضجة التي أثرت في تغيير مجرى الافكار واحداث انقلاب ديني فكري في هذه البلاد . وهاهو يقول مخاطباً لكل طائفة من طوائف المسلمين في عصره وينتقد أعمالهم وأفكارهم انتقاداً واضحاً لاغموض فيه ولا إبهام :

فأقول لأولاد المشايخ المترسمين برسم آبائهم من غير استحقاق .

« يا أيها الناس مالكم تحزبتم أحزابا واتبع كل ذي رأي رأيه وتركتم الطريقة التي أنزلها الله على لسان محمد ﷺ رحمة بالناس ولطفاً بهم وهدى لهم ،فانتصب كل منهم إماماً دعا الناس اليه وزعم نفسه هادياً مهدياً ، وهو ضال مضل ، ونحن لانرضي بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشتروا به ثمناً قليلاً ... ولا بالذين يدعون الى أنفسهم ويأمرون بحب أنفسهم . هؤلاء قطاع الطريق دجالون كذابون مفتونون فتانون ، إياكم وإياهم ...

وأقول لطلبة العلم ، أيها السفهاء المسمون أنفسهم بالعلماء ،اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعاني ، وظننتم ان هذا هو العلم . إنما العلم آية محكمة من كتاب الله ان تتعلموها بتفسير غريبها

(١) التفهيمات الالهية : ج ١ ص ٨٣-٨٢ . طبع الهند سنة ١٣٥٥ ه

وسبب نزولها ... او سنة قائمة من رسول الله ﷺ ... فاتبعوا هديه واعملوا بسننه على أنه هدي وسنة ... وخضتم كل الخوض في استحسانات الفقهاء من قلبكم وتفاريعاتهم . اما تعرفون ان الحكم ماحكمه الله ورسوله ورب انسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم ، فلا يعمل به ويقول :

انما عملي على مذهب فلان لاعلى الحديث ...

اعلموا أنه ليس هذا من الدين في شيء . ان آمنتم بنبيكم فاتبعوه خالف مذهباً أو وافقه وأقول المتقشفين من الوعاظ والعباد والجالسين في الخانقاهات :

يا أيها المتنسكون ، ركبتم كل صعب وذلول وأخذتم بكل رطب ويابس ودعوتم الناس الى الموضوعات والاباطيل وعسرتم على الخلق وانما بعثتم ميسرين لامعسرين .

وأقول للأمراء ،يا أيها الامراء ، أما تخافون الله ،اشتغلتم باللذات الفانية الداثرة وتركتم الرعية تأكل بعضها بعضاً . أما شربت الخمر جهرة وأنتم لاتنكرون ؟ أما بنيت منازل ودور للزنا وشرب الخمر والقمار وأنتم لاتغيرون . أما هي البلاد الكبيرة ، لم يضرب فيها حد منذ ستمائة او اكثر . ومن وجدتموه ضعيفاً أكلتموه ،ومن وجدتموه قوياً تركتموه خاضت أفكاركم في لذائذ الطعام ونواعم النساء ومحاسن الثياب والدور .

وأقول للعسكرية ، أيتها العسكرية ! أخرجكم الله للجهاد ولتظهروا كلمة الحق وتكبتوا الشرك وأهله ، فتركتم ما أخرجكم لأجله

واتخذتم رباط الخيل ، وحمل السلاح كسباً تستكثرون به أموالكم من غير نية الجهاد وقصده .

يامعاشر بني آدم ! اتخذتم رسوماً فاسدة لغير الدين . اجتمعتم يوم عاشوراء في الاباطيل . فقوم اتخذه مأتماً .

أما تعلمون ان الايام أيام الله ، والحوادث من مشيئة الله ، وان كان حسين رضي الله عنه قتل في هذا اليوم ، فأي يوم لم يمت فيه محبوب من المحبين . وقد اتخذوه لعباً بحرابهم وسلاحهم ، وقوم اتخذوه منسكا ، اف لصنيعكم . اجتمعتم يوم البراءة يلعب قوم ويزعم قوم أنه يجب اكثار الاطعمة للموتى . قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . و (اتخذتم) رسوماً تضيق عليكم كالافراط في الولائم وكالامتناع من الطلاق وكامساك المرأة بعد زوجها من النكاح ؛ فضيعتم أموالكم وأوقاتكم ... اتخذتم المأتم عيداً كأن اكثار الطعام واجب عليكم وضيعتم الصلوات . وقوم اشتغلوا بمكاسبهم فلم يقدروا على الصلوات .. وضيعتم الزكاة ومامن غني الا له متعلقون من المحاويج يطعمهم ويواسيهم ، ولو أنه نوى الزكاة لكفاه . وضيعتم صوم رمضان .. وصرتم عيالاً على السلطان ، ولما لم يجد السلطان مايعطيكم ضيق على الرعية ، فما أقبح صنيعكم[1] .

وكذلك يقول في موضع آخر من هذا الكتاب :

---

(١) انتهى بحروفه نقلا عن التفهيمات الالهية : ج ١ ص ٢٤ ١١٩ ٢

كل من ذهب الى بلدة اجمير[٢] او الى قبر سالار مسعود[٣] او ماضاهاهما لأجل حاجة يطلبها ، فانه آثم اثماً أكبر من القتل والزنا . أليس مثله الا مثل من كان يعبد المصنوعات اومثل من كان يدعو اللات والعزى ، الا أنا لانصرح بالتكفير لعدم النص من الشارع في هذا الأمر المخصوص[٤] .

وعلى غرار ذلك ندد بالمتصوفة والفقهاء الجامدين في غير موضع من مؤلفاته .

ولولا خوف الاطالة ستزدنا من أقواله وآرائه ، حتي يكون القاريء على بصيرة منها ، فان بعض أنباء عصرنا — وفيهم العلماء — أرادوا ان يبدعوا فلسفة عصرية توافق أهواءهم ، يستندون فيها الى مصنفات الامام ولي الله وكتبه ، وكأنهم خافوا على أنفسهم من ابداء الآراء الضالة المضلة ، فاتكأوا على كتب الامام وحرفوا بعض أقواله من مواضعها وألبسوها معاني من عند أنفسهم ، مع انها تبرأ الى الله من تحريفات هؤلاء القوم . وهانحن نختم هذه السلسلة بنقل « كلمة » أخرى من هذا الكتاب :

---

(٢) مدينة اجمير مدينة معروفة في الهند من الناحية الغربية الجنربية من دهلي . وفيها قبر الخواجة معين الدين الجشتي (ت سنة ٦٣٣/١٢٣٦) أعظم رجال الصوفية في الهند يحجون الى قبره طول السنة .

(٣) قبره في مدينة بهرائج ، وهي بلدة صغيرة في المقاطعات المتحدة (U.P) من الهند .

(٤) التفهيات الالهية : ج ٢ ص ٤٥ .

« قال رسول الله ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا حجر ضب لاتبعتموهم « قلنا » يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟ أخرجه البخاري ومسلم *

« صدق رسول الله ﷺ ، فقد رأينا رجالاً من ضعيفي المسلمين يتخذون الصلحاء أربابا من دون الله ويجعلون قبورهم مساجد ، كما كان اليهود والنصاري يفعلون ذلك . وقد رأينا رجالاً منهم يحرفون الكلام عن مواضعه ، يقولون « الصالحون لله والطالحون لي » كما قال الذين من قبلهم (لن تمسنا النار الا أياماً معدودة) . *

وان سألت الحق فقد فشا التحريف في كل طائفة . فالصوفية أظهرت أقاويل لايدرى لها توفيق بالكتاب والسنة ، لاسيما في مسألة التوحيد ، وكاد ان لايكون الشرع عندهم ببال . وكم في فقه الفقهاء من أمور لايدري من أين أخذوا ذلك ، كمسألة عشر في عشر ومسألة الآبار وغيرهما . واما اصحاب المعقول والشعراء واصحاب الثروة من الناس والعامة الذين يعبدون الطواغيت ويتخذون قبور الصلحاء مساجد اوعيداً الى اين يذكر ماهم فيه من الغواية [1] .

فيظهر مما نقلنا من آرائه وانتقاده لما شاهده من الحال المحزنة في

---

* سورة البقرة آية ٨٠

* رواه مسلم برقم ٢٦٦٩ واورده البخاري في « صحيحه » بلفظ « حتى لو سلكوا حجر ضب لسلكتموه » — الناشرون —

(١) التفهيمات الالهية : ج ٢ ص ٥ – ١٣٤

عصره وما اطلع عليه من امارات التدهور والانحطاط في القرون الماضية ما كان له من نظرة ثاقبة وتبصر بأدواء المسلمين وآراء سـديدة ناضجة في اسباب انحطاطهم وتقهقرهم ويتبين الناقد المستبصر كيف أحـاط الامام بتاريخ المسلمين واستعرضه استعراضاً وانتقده انتقاداً شاملًا ونبههم على مواطن الضعف والوهن في تاريخهم ، حتى يكونوا على حذر من الوقوع في مثلها في المستقبل .

مذهبه في الاصلاح

ثم هو لايقتصر على التنبيه على مواطن الضعف والوهن في تاريـخ المسلمين وانتقاد بعض آراء من تقدمه من الائمة والعلماء وتنقيـح نظرياتهم ومذاهبهم ، بل يتقدم خطوة أخرى ويعرض آراءه وأفكاره الناضجة في معظم الابواب والمسائل التي انتقدها على غيره او نبه فيهـــا على مواطن الضعف والوهن في آراء غيره من العلماء . فمن أهم ماتـكلم عنه في كتبه وبين فيه وجهة نظره ، هو مذهبه المعتدل في الفقه . وذلك أنه لايتعصب لمذهب ولايندد بغيره . وانما نظر في جميـع المذاهب الفقهية وآراء الائمة ومجتهداتهم واستعرضها استعراضاً واطلع على حججهم ودلائلهم ، فأخذفي كل باب بما رآه أوفق للحديث في نظره وأبلغ في الحجـة ، فلايرى الحق والصواب منحصرين في مذهب من مذاهب الفقهاء وكذلك لايتعصبعلى مذهب مخصوص ، حتي لايأخذ بقول من أقواله وان وافق النصوص واطمأن اليه خاطره . ومن ثم تجده يأخذ بمذهب أبي حنيفة في مسـألة

ويستند الى قول الشافعي في أخرى، وكذلك ينحو نحو المالكية والحنابلة في غير واحدة من المسائل .

فمذهبه في الفقه مذهب التحقيق والاخذ بالدليل من غير تعصب لمذهب او عليه .

وقد بين وجهة نظره في هذا الشأن بوجه خاص في رسالته الصغيرة (الانصاف في بيان سبب الاختلاف) ، وان كانت مؤلفاته الاخرى ايضاً تشتمل على بحوث وآراء في هذا الباب منها ماجاء في (التفهيمات الالهية) :

« ونشأ في قلبي داعية من جهة الملأ الأعلى ، تفصيلها ان مذهبي أبي حنيفة والشافعي هما مشهوران في الامة المرحومة . وهما أكثر المذاهب تبعاً وتصنيفاً .

وكان جمهور الفقهاء المحدثين والمفسرين والمتكلمين والصوفية متمذهبين بمذهب الشافعي وجمهور الملوك وعامة اليونان (كذا) متمذهبين بمذهب أبي حنيفة ، وان الحق الموافق لعلوم الملأ الأعلى اليوم ان يجعلا كمذهب واحد يعرضان على الكتب المدونة في حديث النبي ﷺ .. : فما كان موافقاً لها يبقى ومالم يوجد له أصل يسقط . والثابت منها بعد النقد ان وافق بعضه بعضاً ، فذلك الذي يعض عليه بالنواجذ . وان يخالف تجعل المسألة على قولين ، ويصح العمل عليهما او يكون من قبيل اختلاف أحرف القرآن او على الرخصة والعزيمة ، او يكونان طريقين للخروج من المضيق كتعدد الكفارات او يكون آخذاً بالمباحين المستويين

لا يعدو الامر هذه الوجوه ان شاء الله تعالى [1] »

هذا برض من عد وغيض من فيض . والامام قد بين وجهة نظره في هذا الشأن تبييناً وفصلها تفصيلًا .

ومن أحسن ما كتب في مذهبه المعتدل وعززه ببحوث نافعة وحجج مقنعة قوله : (واعلم ان التخريج على كلام الفقهاء الخ الخ) في الباب الثالث من رسالته الصغيرة « الانصاف » وما جاء من الكلام النفيس في « حجة الله البالغة » في المبحث السابع في فصل (ومما يناسب هذا المقام التنبيه على مسائل ضلت في بواديها الافهام) فليرجع اليها من شاء الاستزادة من آرائه في هذا الباب .

وغير خاف على من له المام بمذاهب الفقهاء والخلاف بين الائمة ، ما في مذهبه المعتدل من لين ومرونة ، تنجذب اليه العقول وتسكن اليه النفس الحائرة . وكان من تأثير انتشار فكرته وآرائه في الفقه ان أخذ ينقشع غبار التعصب للمذاهب الذي كان متغلغلًا في الاوساط العلمية الهندية وبدأت العقول تتخلص من ربقة التقليد الأعمى والجمود على أقوال الفقهاء وكذلك شرع من جاء بعده ومن تلاميذه وأصحابه وتلاميذهم وأصحابهم يرجعون الى الكتاب والسنة ويأخذون من المذاهب بما يظهر لهم أوفق لهما وأقرب الى الحق والصواب ، وذلك ان الامام ولي الله ما اكتفى بالتنديد بالتقليد الأعمى والتعصب الموروث ، بل سن لمن يأتي من بعده سنة حسنة بالخوض في المسائل الشرعية والاستدلال بالحجج المستخرجة

---

(١) ج ١ ص ٢١١-١١٢ .

من الكتاب والسنة وأوضح لهم طريق الاجتهاد في الفقه وسلك مسلك التحقيق في كل ماعن له الكلام فيه من أبواب الفقه ومسائل الشريعة .

وهذه كتبه مشحونة بالبحث على الاجتهاد والتحقيق . وكذلك بين في مصنفاته أصول الاجتهاد ومايلزمه من شروط وفصل فيها القول تفصيلا . على أنه ما تكلم في مسـألة او خاض في قضية ، الا وهو مستمسك بأذيال التحقيق والبحث العلمي النزيه ، لايتقيد بمذهب بعينه او يتعصب لرأي ارتآه رجل تقدمه بقرون وأجيال . وانما عمدته في جميع بحوثه وآرائه التحقيق والاجتهاد ، مستنداً الى الكتاب والسنة . فكأن القاريء المستبصر او الطالب المتعطش لايستفيد من كتبه الاصول العلمية والقواعد المجردة فحسب ، بل الامر ان مؤلفات الامام في الوقت عينه تروض القاريء على التحقيق وأعمال الروية وتدربه على تحري منهج الصواب والحق.هذا ، ومن أهم ماقام به صاحبنا في باب الاصلاح وتجديد الفكر ، على ماذكرنا آنفاً ، اهتمامه بنظام الاسلام الكامل المشتمل على نواحيه الفكرية والخلقية والشرعية والمدنية والامعـان في خصائصه ومقوماته واعتناؤه بتدوين نظام الاسلام في شكل علمي مرتب ترتيباً علمياً ، بحيث يظهر اتصال بعض نواحيه ببعض ويتبين للناس ان الاسلام نظام شامل يحيط بنواحي الحياة البشرية كلها ، لايخرج عن دائرته شيء ولايشذ عن حوزته نقير ولاقطمير * . وذلك من مزاياه التي لم يسبق اليها أحد ، فانه اول من اعتنى بذلك اعتناء كلياً في مانعرف .

---

* نقير وقطمير يستعملان للقليل الزهيد . — الناشرون —

ومما لاننكره أنه نبغ في من تقدمه من العلمــــاء في مختلف القرون ، من كانوا ينظرون الى الاسـلام نظرة الدين الكامل ، ويرون أنه نظام للحياة شامل يحيط بجميع نواحي الحياة البشرية ، الا انه لم يهتم أحد منهم بتدوين نظام الاسلام ، وعرضه على الانظار كنظام شامل ، مرتب ترتيباً علمياً منطقياً . اما صاحبنا ، فانه عنى بوجه خاص بترتيب نظام الاسلام والاهتمام بدراسة جميع نواحيه المتشعبة ، بحيث كل من يدرس كتبه ومؤلفاته ، يعرف ان الاسلام له نظام(Shstem)فكري خاص . وله فلسفة للحياة مخصوصة به ، تدور حول قطبيها رحى سـائر مسـائل الحياة ومشاكلها من العقيدة والعبادات والاخلاق والسياسة والاجتماع .

ولايغرن أحداً « الفلسفة » التي نسمع بها ونقرأ عنها في مؤلفات العلماء الذين سبقوه بقرون وأجيال ، فانها لم تكن من فلسفة الاسلام في شيء ، وانما كانت فلسفة تمت بصلة من النسب الى فلسفة اليونان والروم والفرس والهند ، اخترعها وأبدعها رجال من المسلمين تأثروا بعلوم اليونان وغيرهم ، فما أحراها ان تسمى « فلسفة المسلمين » وفرق بين مايشتمل عليه الاسلام من أفكار سليمة ومعان سامية وتعاليم قيمة عالية وماتنم عليه فلسفة المسلمين ــ المقتطفة من اليونان والفرس والهند ــ من آراء باطلة وأفكار معوجة وطريق للتفكير غير مستقيم .

فالامام ولي الله الدهلوي هو أول من شق لنفسه طريقاً جديداً في هذا الباب وأمعن في الخوض في النظم الاسلامية واستخرج منها فلسفة

مرتبة متصلة الحلقات بينها ارتباط منطقي .

وكذلك له آراء نفيسة وأفكار ناضجة في نظام الاخلاق ، حيث بني على أساسه فلسفه للعمران وشؤون الاجتماع سماهـــا (الارتفاقات) وعقد لها باباً خاصاً في كتابه الشهير (حجـة الله البالغة) ، تناول فيـه بالكلام شؤون تدبير المنزل وآداب العشرة وسياسة البلاد ونظام القضاء والضرائب وأمور المملكة وتنظيم الجيش وغيرهما ، مما قل ان نظفر بمثله في كتب القوم . وكذلك أفاض في نظام الشريعة وأسرارها وفصل القول في العبادات والاحكام والقوانين الشرعية وكشف النقاب عما تنطوي عليه من مرام سامية وحكم بالغة . هذه نتف من أعماله الجليلة العلمية في باب تنقيح النظريات القديمة وتدوين نظام الاسلام وترتيب فلسفة للاسلام ، مستقاة من ينبوع الكتاب والسنة واطلاق العقول من ربقة التقليد الاعمى وتجريد الافكار من داء التعصب الجامد . وكان من فضل الله عليه وتوفيقه اياه أن أثمرت مساعيه وآتت أكلها ونبغ في أنجاله (أحفاده وتلاميذه من سعوا سعيهم وجاهدوا جهاداً مشكوراً في اكمال مهمته وافراغ دعوته في قالب الجد والكفاح والعمل وسيأتي بيانه ان شاء الله .

مايؤخذ عليه :

والذي لابد من الاشارة اليه في هذا المقام أن الامام ولي الله على مابه من علم غزير ونظرات في اسرار الشريعة ثاقبة واطلاع واســع على تاريخ الاسلام وأسباب تقهقر المسلمين وبصر نافذ بأدواء الامة ودوائها ما سلم من تأثير البيئة التي نشأ فيها ، فلم يتخلص من مصطلحات التصوف

وعلوم اليونان واشاراتهم ورموزهم البتة . وذلك مما لاعهد لنا به في كتب أئمة السلف من المحدثين والمحققين . ولولا هذا الخلل في كتبه ومصنفاته لفاقت ، مؤلفات كبار أئمة المسلمين وثمرات قرائحهم وناهزت افكاره آثار ابن تيمية واضرابه -- ان كان له اضراب لكن اصطباغ كتاباته بصبغة التصوف واختياره لمصطلحاته واشاراته ورموزه التي ربما لا يفهمها الا المتصوفون ، قلل من نفعها وأضر بغايتها ومقصودها . فهو يقول تارة في كتبه أنه « وصي هذا الزمان » ، وأنه يلقى اليه الكلام من جهة الملأ الأعلى وطوراً يتكلم في السلوك وطرق التصوف المتشبعة . وكذلك يبحث في وحدة الوجود ويقرر آراء ابن عربي ونظريته الباطلة «الوجودية» ويجتهد في التوفيق بين (وحدة الوجود) التي يقول بها (ابن عربي) وبين (نظرية التوحيد) التي انتصر لها الشيخ السرهندي ودافع عنها وجاهد في سبيلها جهاداً مشكوراً كما سبق . وكذلك لاتخلوا كتبه من اثاره من فلسفة اليونان العتيقة البالية .

وهذا التأثير اليوناني والاصطباغ بصبغة التصوف والتكلم بكلام فلاسفة المتصوفين تختلف درجاته باختلاف مؤلفاته . فأحسن مؤلفاته وأكثرها نفعاً في باب الشريعة والكشف عن اسرار الدين ونظمه ومناهجه والبحث في تاريخ الاسلام والمسلمين (حجة الله البالغة) (وازالة الخفاء) . ولذلك قال من قال من أولي العلم : —

« نحن نعرف (ولي الله) المحدث الفقيه صاحب (حجة الله البالغة)

و (ازالة الخفاء) ونحله ، أما (ولي الله) المتصوف والفلسفي ، فـلا صلة لنا به » .

وهذا هو القول الفصل في هذا البـــاب . ومن ذا الذي ترضى أفكاره كلها ؟ وقدماً قال امام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله :

« كل واحد يؤخذ من قوله ويرد عليه الا صاحب هذا القبر ﷺ

انجاله وتلاميذه :

قد قلنا في ماتقدم أن بدء الاصلاح الحقيقي في بلادنا كان بجهود الامام ولي الله الدهلوي ومساعيه المشكورة ، فانه هو أول من نقـــح النظريات القديمة واستعرض تاريخ المسلمين وانتقده انتقـاداً وبحث في أسبـاب تقهقر المسلمين وزوال ممالكهم واستجلى صورة كاملة لنظام الاسلام ورتبه ترتيباً علمياً فأبرز للناس نظاماً متصل الاجزاء مرتبط الحلقـات ،

لكنه لم يتح له ان يقوم بنفسه بذلك الاصلاح الحقيقي المنشـود الذي مهد له السبيل بكتاباته وآرائه الناضجة ودعا اليه في كتبه ومؤلفاته بل الذين قاموا بذلك الاصلاح المطلوب وجاهدوا في سبيله جهاداً مبروراً هم رجال من أحفاده وتلاميذه وتلاميذ تلاميذه ممن اغترفوا من بحـــار أفكاره وارتووا من معين مصنفاته وكتاباته ، كما سيأتي بيانه .

ومـــن منن الله البـــالغة عليـه وفضله العظيم أنـه رزق

أنجالاً[1] اربعة كلهم علم في رأسه نار . وهم الذين أضاؤوا سراج الكتاب والسنة في ظلمات الهند الحالكة وسعوا سعيهم وجاهدوا جهاداً عظيماً في نشر تعاليم الدين الصحيحة النقية وبث معارف الاسلام القويمة . وقد تخرج على أيديهم ألوف من الرجال في أقصى الارض وأدناها جعلوا همهم نشر الكتاب والسنة والقوا بين أعينهم عزم الجهاد في سبيل القضاء على البدع والمنكرات واحياء مآثر الاسلام واقامة الدين من جديد . ونبغ في حلقات دروسهم وحلقات تلاميذهم — ولا سيما نجله الاكبر وخليفته في اعماله الشاه عبد العزيز وتلاميذه - رجال متضلعون من علوم الكتاب والسنة ؛ مطلعون على أسرار الشريعة وقضوا حياتهم لخدمة الكتاب العزيز والسنة النبوية وافادوا جما غفيراً من الناس ، كانوا في طليعة النهضة الدينية وأصبحوا في مابعد من رواد اليقظة الدينية الحديثة .

---

(١) هم الشاه عبد العزيز (١١٥٩-١٢٣٩ ﻫ) والشاه رفيع الدين (١١٦٣-١٢٣٣ ﻫ) والشاه عبد القادر (ت ١٢٣٠) والشاه عبد الغني (ت ١٢٢٧ ﻫ) . ولكل منهم مؤلفات ومصنفات سائرة مسير الشمس ، ولاتزال تضيء ظلمات العقول وتنور حلك الافكار وتحارب جنود الشك والزيغ والالحاد ، الا ان اكبرهم - الشاه عبد العزيز - كان يعد خليفة أبيه ووارث علومه . وقد انتفع به خلق عظيم ممن لا يأتي عليهم الاحصاء ، واخترقت شهرته حدود الهند وأمه المتعطشون للعلم من أقصى بلاد العالم وأدناه . وأصغرهم الشاه عبد الغني توفي وهو حدث السن ، لم يكد يخدم الدين والامة بشيء يذكر في بطون التاريخ ، الا ان الله رزقه مولوداً جعله الله من مجددي هذه الامة وكبار مصلحيها في هذه البلاد ، الا وهو الشاه اسماعيل الشهيد بن عبد الغني ولي الله الذي سيأتي ذكره مفصلا .

وهؤلاء الرجال الذين تخرجوا على ايدي أنجال الشـــاه ولي الله وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم ، لم تكن جهودهم منحصرة في دائرة ضيقة من مسائل الفقه وفروعه ، بل كانت جهودهم ومساعيهم في سبيل الاصلاح والتجديد شاملة محيطة بجميع شعب الحياة البشرية ، حتى انه قام من بينهم من خرج من دياره ، مهاجراً الى الله وجرد السيف وقاتل وخاض المعارك الدامية في سبيل اعلاء كلمة الله واقامة الدين في هذه البلاد ، كما سيأتي بيانه ان شاء الله . وكذلك خدموا الكتاب العزيز والسنة النبوية وعكفوا على دراستها وعنوا بتأليف كتب في التفسير وتدوين شروح لكتب الحديث وبلغوا في اهتمامهم بالسنة النبوية واحياء مادرس من معالمها وكشف كنوزها ودفائنها مبلغاً لم تبلغه جماعة من المسلمين في القرنين الأخيرين .

والامر أشهر من أن يذكر وينوه به . هذه مؤلفات علماء الهند المشتغلين بالحديث وشروحهم وحواشيهم على متون الحديث مبثوثة منتشرة في معظم الأقطار الاسلامية .

وقد أشاد بذلك ونوه به عالم مصر وعلمها المغفور له العلامة الجليل الاستاذ محمد رشيد رضا في مقدمته لكتاب مفتاح كنوز السنة ، (ص ق) حيث ذكر فيها :

« لولا عناية اخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هـذا العصر ، لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق . فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة ، حتى بلغت منتهى الضعف في اوائـل هذا القرن الرابع عشر » .

وكذلك ذكر خدمات علماء الهند للحديث النبوي والسنة الشريفة في القرون الاخيرة ، كل من تصدى لتدوين تراجم العلماء والتأليف في طبقات المصنفين والمؤلفين ، ذكروها بما فيه كفاية وغنى عن اعادته في هذا المقام . وانما أشرنا اليه بمناسبة الموضوع .

الامامان الشهيدان

السيد احمد الشهيد واسماعيل الشهيد.(١)

لقد عرف القاريء ان الامام ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦ هـ) هو اول من بذر بذور الاصلاح والتجديد الحقيقين ، وان كل ماظهر في بلادنا من امارات التجديد والاصلاح الديني والنهضة العلمية الصالحة في القرنين الاخيرين ، يرجع فيها الى الامام ولي الله وأنجاله وتلاميذه وتلاميذهم وأتباعهم . وكذلك أشرنا في ماسبق الى أنه لم يتمكن ان يقوم بنفسة بحركة علمية تأتي بالاصلاح المطلوب والتجديد المنشود ، وذلك لاشتغاله بتنقيح النظريات والآراء وصقل الافكار وتنوير الاذهان . وكان ذلك طبيعياً اذا نظرنا الى طبائع الامم وتاريخ الانقلابات في العالم رأينا انه ربما تمضي حياة الرجل كلها في صقل الاذهان وحل المعضلات والكشف عن دياجير الشكوك والاوهام .

---

(١) ولد السيد أحمد الشهيد سنة ١٢٠١ للهجرة واستشهد سنة ١٢٤٦ هـ . أما الشاه اسماعيل الشهيد بن عبد الغني بن ولي الله ، فكانت ولادته سنة ١١٩٣ وتوفي شهيداً مع شيخه وجماعة من كبار مشايخ الهند وعلمائها في معركة دامية سنة ١٢٤٦ هـ . رحمهم الله رحمة الابرار الصالحين من عباده ونضر وجوههم يوم القيامة .

ينشيء بذلك طبقة أخرى مرتوية من ينبوع أفكاره مثقفة بثقافته متوثبة متطلعة الى النهوض والعمل فتخلفه في عمله وتقوم بالدعوة وترفع كلمة الاصلاح الحقيقي وتحمل لواء الجهاد بيدها وتخوض غمار المعركة من غير خوف ولا وجل .

وهكذا كان في تاريخ الهند الاسلامية ودعوتها التي نحن بصدد تاريخها الان ، فانه لم يمض على وفاة الامام ولي الله زمن قليل ، حتى نبغ من أهل بيته وتلاميذهم وممن أخذوا عنهم رجال قاموا بالدعوة أحسن قيام وجددوا سنة النبي ﷺ تجديداً . وهذه الدعوة التي قام بها الامامان الشهيدان السيدان احمد بن عرفان واسماعيل بن عبد الغني ولي الله ، كانت اول دعوة في الهند ، في مانعرف ، قامت باحياء الشريعة واقامة الدين من جديد وأهابت بالامة الى الاستقاء من معين الكتاب والسنة واللجوء الى كنف الشريعة في جميع شؤون الحياة وشعبها . والذي مهد السبيل لهذه الدعوة المباركة واحياء مآثر الاسلام في هذه الديار ، هو مؤلفات الامام ولي الله الدهلوي وآراؤه الحصيفة وأفكاره الناضجة الحكيمة التي أحدثت انقلاباً فكرياً فنشأت طبقة مثقفة بتلك الآراء السليمة والافكار الاسلامية الخالصة .

ثم عممها وبث خيراتها ومعارفها أنجاله الفطاحيل الاربعة والكواكب النيرة ؛ الشيوخ الاجلاء (عبد العزيز ورفيع الدين وعبد القادر وعبد الغني ؛ الذين وقفوا حياتهم لنشر معارف الكتاب والسنة وجعلوا همهم تعميم التعاليم القويمة الصحيحة ، فأفادوا جمعاً غفيراً من الناس

وانتشرت طريقتهم المثلى في الدين والعلم في طول البلاد وعرضها وظهرت في سائر أنحاء هذا القطر العظيم جماعات متضلعة من علوم الشريعه متخرجة على طريقة الامام ولي الله وعلى أيدي أنجـاله وتلاميذهم . فكانت هذه النهضة العلمية التي وضع أسسها وشيد بنيانها الامام ولي الله ومن تخرج على يده ويد أنجاله ؛ نواة صالحة للدعوة العملية والجهاد المبرور والنهضة الجبارة التي قام بها وحمل لواءها ورفع منارها (السيدان الشهيدان والعلمـــان الشامخان ، سليل بيت النبوة ورضيـع لبان العلم والشرف السيد احمد بن عرفان [1] (١٢٠١-١٢٤٦ هـ) وزميله وصاحبه قرة عين بيت ولي الله ودرة تاجـه الشيـخ اسماعيل بن عبد الغني ولي الله (١١٩٣-١٢٤٦ هـ) فقاما بالدعوة خير قيـــام ونشرا السنة المحضة وعمما تعاليم الدين الصحيحة وساحا في الاقطار وجابا الاراضي النائية لتبليـغ الدعوة وأداء الامانة .

---

(١) الامام المجاهد العارف بالله السيد احمد الشهيد بن عرفان ولد عام ١٢٠١ للهجرة في في قرية من الولايات المتحدة في الهند ، في بيت معروف بالعلم عريق في المجد والشرف وكان منذ الصغر ميالاً الى الورع والانقطاع الى الله مشوقاً الى الجهاد . وما كاد يبلغ من عمره السنة السابعة عشـــرة حتى حدا به حادي الاسفار فاقتعد غارب الاغتراب وساح في البلاد وتدرب على فنون القتال واخذ من انجال الشاه ولي الله الدهلوي ثم اشتهر امره وعرف من فضله وورعه ماجعل بعض كبار علماء بيت ولي الله الدهلوي. يأخذون عنه ويرافقونه ويبايعونه على الجهاد والسمع والطاعـــة ، منهم الشاه اسماعيل الشهيد (حفيد الشاه ولي الله) ومولانا عبـد الحي (ختن الشاه عبد العزيز بن ولي الله) وغيرهما .

فانتفع بهما وبأتباعهما البررة مئات الالوف من الناس وأسلم على أيديهم خلق كثير لا يأتي عليهم الاحصاء . وجملة القول أنه حصلت في الهند نهضة دينية جديدة لم يكن لها سابق عهد بمثلها ، نهضة دينية مستقيمة معتدلة سائرة على طريق الشريعة المستقيمة ، اخترقت السهول والجبال واجتازت العقبات والعراقيل حتى بلغت الحدود الشمالية الغربية واستقرت في كهوفها وشعابها وتغلغت في مغاراتها وأوديتها ، تدعو الى الاعتصام بالكتاب والسنة والجهاد في سبيل الله ، الى ان التفت حول الشهيدين جماعة وافرة من المجاهدين – وفيهم العلماء والمحدثون والقراء ممن تخرجوا على أيدي الشاه عبد العزيز بن ولي الله (ت سنة ١٢٣٩ ﻫ) وتلاميذه الميامين النجباء واجتمعت لديهم كمية لا يستهان بها من عتاد الحرب وعدتها . وكذلك انضوت تحت لوائهم غير واحدة من الشعائر الافغانية القاطنة في الحدود الشمالية الغربية من أحلاس الخيول وأبطال الوغي . فأعلنوا الجهاد على السيك [١] (Sikhs) الطغاة الذين كانوا يعبثون في الارض فساداً ويتعاطون المنكرات من قتل النساء والعجزة وهتك الاعراض وسفك دماء الابرياء من أبناء الاسلام واهانة المساجد وتعطيل شعائر الاسلام الى غيرها مما جعلهم أعدى عدو للأسلام وأشدهم بغضاً وأكثرهم خبثاً وعداء للمسلمين في هذه البلاد .

---

(١) طائفة من أهل الهند نشأت منذ أكثر من أربعة قرون . والذي قام بتأسيسها كان رجلاً من الهنادك اسمه كرونانك Gurunanak ، وكرو « معناه » المعلم والمرشد ، يميل الى التصوف والتنسك . ثم خلفه بعد وفاته سنة ١٥٣٣ م رجال في القيام بأمر النحلة واحد تلو الآخر ، الى ان اصطدمت بالحكومة –

المسلمة في عهد ملوك المغول وتحولت الطائفة الى عصابات عسكرية تقطع السبيل وتأتي المنكرات وتعبث في الارض فساداً . والاسف ان الحكومات المسلمة ، على قوتها ومنعتها، لم تجرد جيشاً لقمع ثورتهم وكبح جماحهم ثم ظهر معلمهم العاشر - كوروكوبند - فأعلن انه هو المعلم الاخير وانه يكفيهم بعده للرشاد كتابهم المقدس كرنته صاحب (Garath Sahib) فانتظموا من بعده وتدربوا على القتـــال وشن الغارات والفتك بالآمنين والابرياء الى أن استفحل أمرهم وعرا الحكومة المسلمة الوهن والضعف بعد وفاة الملك المسلم العادل أورنك زيب (١٠٦٨ -١١١٨هـ) فزادوا قوة الى قوتهم وتمادوا في الشر والطغيان . ولما ضعفت الحكومة المسلمة المركزية واستولى الامراء على المقاطعات ونجم قرن الثوار من كل صوب ، أخذ السيك زمام مقاطعـة (بنجاب) وما جاورها من البلدان بأيديهم وجعلوا يحكمونها بنوع من الشدة والقسوة . واصبحت لهم صولة ومنعة في الاقطار الشمالية لاضمحلال نفوذ المسلمين وعدم تمكن الانكليز بعد من تلك الاقطار . وذلـك في بدء القرن الثالث عشر للهجرة - القرن الثامن عشر الميـلاد ، لكنهم لم يسوسوا أمرها كما تسوس الامم المتحضرة العارفة بقوانين المملكة وطبائع الملك . وانمـا دبروا شؤونها وحكموها جفاة غلاظا كما استولوا عليها . لم يرقبوا في أهاليها وسكانها الاً ولا ذمة ، بل ساقوا الشعب بأجمعه بعصا القهر والاستبداد . أما المسلمون فقـد خصوهم باضطهادهم وأنزلوا عليهم من أنواع المظـالم والشدائد ما تقشعر له الجلود وتنفطر لسماعه القلوب . وناهيك منها باغلاق ابواب المساجد وتحويلها الى ثكنات للجند ومرابط للخيول ومنع الأذان وهتك الحرمات والاعتداء على أعراض النساء الى غيرها مما لا يمكن أن يتصوره العقل البشري السليم - فالذي اصاب أبناء الاسلام بأيديهم من أنواع الخزي والهوان في بدء القرن الثالث عشر للهجرة ، هيـج كامن أشجان المجاهدين البررة وحرك عزائمهم وحرضهم على القتال ، حتى نهضوا الحربهم

أعلنوا الجهاد الشرعي على أولئك الكفرة الفجرة ، فبايعوا الامام العارف بالله السيد أحمد بن عرفان على السمع والطاعة واتخذوه أمير المؤمنين ، وذلك في جمادي الآخرة سنة ١٢٤٢ للهجرة (يناير ١٨٢٧ م) ، وان كان القتال قد بدأ فعلا قبل ذلك بزمن ، الا ان المعارك الدامية قد اشتدت بعد البيعة لأن البيعة واجتماع الكلمة وانخراط المجاهدين في سلك واحد زادهم قوة الى قوتهم وحرضهم على القتال وخوض المعارك وجرأهم على الاهوال والشدائد . ومما يؤلمنا ان المقام لا يتسع لاستيفاء ذكر الوقائع التي خاض المجاهدون غمراتها وسرد الفتوح التي أَحرزوها ووصف القلاع التي امتلكوا ناصيتها . وجملة ما نستطيع قوله في هذا المقام أن المجاهدين ، على ما بهم من قلة في العدة والعتاد وعوز في الاقوات والرجال ما كانوا ليظهروا بوادر الضعف والوهن أمام العدو بل ظلوا ثابتين في مكانهم غير متضعضعين . وبقيت الحرب سجالا بين الفريقين أربع سنين . اعترف خلالها العدو الغاشم بشدة مراسهم وصلابة قناتهم لكنهم اتوا من قبل داء التشتت والتفرق وظهور عقارب السوء بين الاهالي ، فقد لعبت

وهزموهم في عدة معارك دامية الى ان استأثرت بهم رحمة الله واستشهد الامامان الشهيدان وتوارى النجمان اللامعان في تربة (بلاكوت) سنة ١٢٤٦ للهجرة ، أثر معركة شديدة خاضوا اغمارها بأنفسهم وارخصوا فيها ارواحهم ومهجهم . أما ما أصاب المسلمين منذ ثلاث سنين في شرقي (بنجاب) بيد هؤلاء الفجرة من هتك الاعراض وضروب الذل والعار .... فلايزال جرحه دامياً ، وهيهات أن يلتئم على مر الغداة وكر العشي .

بالمسلمين في تلك الاقطار دواعي التفرق ونفث علماء السوء شرور الفتنة وأثاروا الخلافات وحدثت أمور غيرها ثارت لأجلها العشائر الافغانية . وكان من سوء حظ الاسلام في هذه البلاد ان المنتسبين له في الحدود الشمالية الغربية من عشائر الافغان ماعرفوا قدر هؤلاء المجاهدين المهاجرين النازحين عن أوطانهم النازلين بينهم ليبلغوهم كلمة ربهم ويعلموهم دينهم وينشئوهم على اقامة شعائر الاسلام ، وما وفوا بذمتهم فضلا عن مساعدتهم ومد يد المعونة اليهم ، بل غدروا بهم وفتكوا بهم فتكا ذريعـا على غرة منهم ووضعوا السيف في رقاب العلماء والصالحين الذين كانوا قدوة صالحة ونجوماً للهداية لامعة في ظلمات القرون الاخيرة ، بئس ماسولت لهم أنفسهم ومااكتفى اولئك الأشرار بذلك ، بل أصبحوا عيوناً لأعداء الاسلام على المجاهدين وجعلوا يتربصون بهـم الدوائر ، الى أن ادركوا سؤلهم في معركة (بالاكوت)[1] ، فبينما كانت المعركة حامية وطيسها بين المجاهدين والسيك الطغاة ، وكانت كفة المسلمين راجحة وكانوا مستيقنين من النصر والفتح بتوفيق من الله ، اذ حمل عليهم العدو من خلفهم ، من وراء طرق وشعاب ملتوية في الجبال بدلالة من اولئك الجواسيس ، فخسر المسلمون في المعركة واستشهد الامامان وصفوة من خيار علماء المسلمين ورجالهم . وبـذلك توارى في تربة (بالاكوت) الامل في احياء الاسلام وتنفيذ الشريعة

---

(١) موقعها الآن في مديرية (هزاره) من مقاطعة الحدود الشمالية الغربية على تخوم ولاية (كشمير) وهي كلها بلاد جبلية .

واقامة الدين من جديد في هذه البلاد . ولا جرم أنه كان يوماً مشؤوماً على الاسلام والمسلمين . اللهم اغفر لهم وارحمهم رحمة الابرار الصالحين من عبادك واحشرهم في زمرة المجاهدين الأولين الذين جاهدوا مع نبيك محمد ﷺ .

دعوة الامامين الشهيدين السيدين :

كل من ألم بتاريخ الاسلام في الهند وبحث في تطوراته وتطرق الى ذكر المصلحين وحملة لواء التجديد من أساطير الكتاب وحملة الاقلام في هذا العصر ، متفقون على أن بدء الاصلاح كان بجهاد المجدد السرهندي (ت ١٠٣٤ هـ) ، والذي شاد بناء التجديد وكمل بناء الاصلاح الحقيقي ، هو الامام ولي الله الدهلوي (١١١٤ - ١١٧٦ هـ) ، وكذلك اتفقوا على ان الامام ولي الله لم يتأت له أن يقوم بحركة عملية تأتي بالاصلاح المنشود ، وانما قام بهذه الحركة وجدد دعوة الاسلام الحقيقية الامامان الشهيدان السيد أحمد بن عرفان والشيخ اسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله لكنهم اختلفوا في من يرجع اليه الفضل في اكمال صرح التجديد الذي وضع أسسه وشيد بنيانه الامام ولي الله . فيرى الاستاذ أبو الكلام - كما ذكر في كتابه (تذكره[1]) ، وهو أول من كتب في الموضوع حسب

---

(١) كتاب نافع جداً ، دافع فيه عن السلفية وابن تيمية دفاعاً مجيداً . وكذلك أشاد بموقف الامام ابن حنبل الجليل بازاء فتنة خلق القرآن ، بما لا مزيد عليه . ألفه قبل بضع وثلاثين سنة في المعتقل .

ما نعرفه – « ان الذي كمل بيده صرح التجديد وتمت به حجة الله على خلقه هو اسماعيل بن عبد الغني بن ولى الله » ، ويرى استاذنا المحقق السيد سليمان الندوي « أن حركة تجديد الدين كان زمامها بيد الامامين معا ، لا يفرق بينهما ، كأنهما شخصية واحدة افرغت في قالبين » .

وكذلك كتب الاستاذ ابو الاعلى المودودي « ان الشهيدين وحركتهما التجديدية كانت تكملة وذيلا للحركة الاصلاحية العظيمة التي قام بها الامام ولي الله الدهلوي » .

اما هذا العاجز فيرى ان الفضل في حركة التجديد والجهاد يرجع بعد فضل الله وتوفيقه الى السيد احمد الشهيد . وهذا أمر يرجع الى الذوق والوجدان :

وللناس في مايعشقون مذاهب

وقد ظهر من ذلك ان الكل متفقون على ان الحركة الاصلاحية العظيمة التي قامت وظهرت وازدهرت بمساعي الشهيدين وأتباعهما من بعدهما ، هي الحركة التي كمل بها صرح الاصلاح المنشود وعاد بها للاسلام رواؤه وبهاؤه في هذه الديار .

اما دعوة الامامين الشهيدين ، فلاشك أنها كانت ترمي الى اقامة الدين واحياء مآثر الاسلام من جديد ، فما كانت لتنحصر في ناحية من نواحي الدين او تدور حول مسائل في فروع الفقه . وانما كانت دعوتهما الى النظام الشامل الجامع الذي جاء به الاسلام خيراً وبركة للعالمين . ومن أعاجيب القرن العشرين ان بعض المتسمين بالعلم يتقولون عليهما أنهما كانا يجتهدان في استرداد المملكة المغولية التي استولى عليها الانكليز .

كأن هؤلاء لايرضون منها الا ان يظهرا بمظهر الوطنية والقومية الممقوتتين . ومن حيث ان مثل هذه الأقاويل قد ظهرت وشاعت في الآونة الأخيرة ، نرى من المناسب أن ننقل من كتاب للسيد الشهيد الى بعض رؤساء العشائر الأفغانية ، مايبين وجهة نظره وغايته من القتال والجهاد ، وهاك ماقال بنصه وفصه ليتبين الحق وتنقشع سحب الشكوك والأوهام : —

رب غيور كر عليهم بذات الصدور
است براين معنى كه اين جانب را
از قبول اين منصب غير ازا قامت
جهاد بروجه مشروع وحصول معنى
انتظام در عساكر ايل اسلام ،
غرض ديكراز اغراض نفسانية
نيست آرى اين قدر آرزو دارم
در اكثر افراد بني آدم در جميع
اقطار عالم احكام رب العالمين
كه ممن بشرع متين است بلا
منازعت احدى نافذ كررد [١]

والذي نفسي بيده ان هذا العاجز لايريد بهذا المنصب غير اقامة فريضة الجهاد على الوجه المشروع وتنظيم جيش المسلمين على الطريق الاقوم ، والله العليم بذات الصدور شهيد على ما أقول .

نعم مما اتمناه على ربي وارجوه من صميم فؤادي أن يجري العمل بقانون الشرع وتنفذ احكام الرب العلي العظيم في معظم بلاد بني آدم بل في جميع اقطار العالم ، حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله .

---

(١) راجع كتاب (سيرة سيد أحمد شهيد) بالاردية للاستاذ ابي الحسن علي الحسني الندوي (ص ١١١ — ١١٠)

هذا ما كان عن غاية الجهاد والهجرة . أما ماجاء على اثر هـــذه الدعوة المباركة من النهضة الدينية والاصلاح والتجـديد في مختلف نواحي الحياة في طول البلاد وعرضها ، فحدث عن البحر ولا حرج . وجملةالقول ان كل ماظهر في القرن الماضي من الحركات الدينية والنهضات العلمية وما جد من حركة التدوين والتأليف في علوم الكتاب والسنة ، وكذلك كل ما تلمسه الآن من تباشير اليقظة وأمارات الاصلاح الديني القويم ، انمـا يرجع الفضل فيه الى هذه الدعوة المباركة الجليلة ، دعوة الاحياء والتجديد التي قام بها الامامان الشهيدان وزملاؤهما وأتباعهما .

هل نجحت هذه الدعوة :

والذين في قلوبهم مرض ولا يعجبهم التنويه بهذه الدعوة الدينيـة الخالصة ولا يروقهم ظهوردعوة دينية شاملة في هذا العصر ، يطعنون في هذه الدعوة من جهةأخرى ، يقولون ان تلك الحركة التي قامت وازدهرت بجهود الامامين الشهيدين لقيت حتفها في معركة (بالا كوت) وما قدر لها النجاح المنشود أبداً .

كأني بهم يريدون بذلك ان يقولوا لنا « اذا لم يدرك الغاية أمثال أولئك الائمة الفطاحل والمجاهدين الابرار الذين ماوقعت عين الزمان على جماعة أحسن منهم علماً وعملاً بعدعصر الصحابة ، فمابال امثالكم المستضعفين تدعون الى اقامة الدين وتنفيذ القانون الالهي وبسط نظام العدل والنهضة على وجه الارض ! »

والحال ان الحقيقة ليست كما يصورونها تمويهاً وتزويراً .

فالذي ينبغي ان لا يغيب عن الاذهان ان للنجاح والخسران عندنا معنى يختلف عما يزعمون ويتصورون . فاننا ماخلقنا الا عباداً لله الاحد الفرد الصمد ، وليس من وظيفتنا في هذه الدنيا الا ان نظل ساعين وراء اقامة دينه واعلاء كلمته في أرضه وابتغاء لمرضاته ورجاء في المثوبة عنده تعالى شأنه .

اما الوصول الى الغاية والحصول على النجاح الظاهر في هذه الدنيا ،فليس هذا من وظيفة العبد القانت ، انما ذلك يرجع الى الرب تعالى انما نجاحنا في هذه الحياة الدنيا ان لا نتزحزح قيد شعرة عن خطة الجهاد ونظل مستمسكين بالعروة الوثقي والطريقة المثلى الى آخر نفس من أنفاس حياتنا .

هذه واحدة . والحقيقة الثانية التي يليق بالقاريء المستبصر ان يتفكر فيها ويسائل نفسه عنها هي : « أحقاً خابت هذه الدعوة في مسعاها كما يزعمون ؟ ترى ألم يحدث في أوساطنا الاجتماعية والسياسية انقلاب ملموس بعد الجهود العظيمة التي بذلها الشهيدان واتباعهما من بعدهما ؟ ألم تتغير الحال الدينية عما كانت عليه قبل الامام ولي الله وفي زمنه ؟ هل بقي نكاح الايامى يعد سبة وعاراً الى اليوم ؟ او سمعت اليوم أحداً من أهل العلم او حملة الدين يستبدل تحية عادية بتحية الاسلام ؟ وفوق ذلك ، أوليس من صميم الحقيقة والواقع أنه لم يخل زمن بعد شهادة الامامين من رجال بررة ظلوا مرابطين في الحدود الشمالية الغربية ، يدعون الى الجهاد في سبيل الله ويرخصون في ذلك مهجهم وأرواحهم .

فاذا كان هذا كله مما تشهد به الحقيقة وماجريات القرن الغابر ، فما أجمل هذا الخسران والفشل الذي يتشدقون به . وأنعم بهذه الدعوة التي لاتزال آثارها مشاهدة متجلية للعيان تجذب اليها القلوب والانظار ، مع أنه قد انقضى على معركة (بالاكوت) - التي استشهد فيها الامامان - نحو مائة وثلاث وثلاثين سنة.

أسباب الفشل الطبيعية :

هذا ؛ وهناك اسباب طبيعية لهذا الفشل الذي أصاب الدعوة في (بالاكوت) وبعدها ، لا يسمح المقام باستيفائها الا أنه لابد من الاشارة الى سبب قوي من تلك الأسباب التي افضت الى انهزام المجاهدين وانكسار شوكتهم . وذلك ان الامامين - السيد احمد واسماعيل الشهيدان - وزملاءهما قد اختاروا الحدود الشمالية الغربية مركزاً لجهادهم واتخذوها مقراً لحركاتهم وتنقلاتهم العسكرية . اختاروا تلك البلاد الجبلية والمعاقل الافغانية واتخذوها مركزاً للجهاد والامارة قبل أن يمهدوا الارض وينشروا فيها الدعوة ويهيؤوا نفوس أهل البلاد لقبولها ينشؤوا شبانهم وناشئتهم على آداب الاسلام وأخلاقه الفاضلة .

ومن الغريب أن جميع دعاتهم وعلمائهم ومجاهديهم كانوا من أقطار الهند الشرقية [1] التي نبتت فيها الدعوة ونمت وازدهرت بعد ماعمل فيها الامام وأتباعه سنين عديدة يعظون الناس ويلقنونهم عقيدة التوحيد

---

(١) وبين هذه الاقطار الشرقية (مقاطعات بنضال وبهار) وبين مقاطعة الحدود الشمالية الغربية الف ميل بل أكثر من ذلك .

الخالص ويرشدونهم الى طريق الخير والفلاح في العاجل والآجل ولما عزموا على قتال السيك واختاروا الحدود الشمالية الغربية مقراً للامارة والمجاهدين ، جاؤوا بالمتطوعين من تلك الاقطار الشرقية ، متجشمين الاخطار والاهوال .

لكنهم ، ويا للأسف ، لم يهتموا بتربية سكان البلاد التي اتخذوها مركزاً للقتال والجهاد . ومما لا حاجة الى بيانه ان العشائر الافغانية القاطنة في الحدود كانت اذ ذاك في جاهلية جهلاء ، لا تعرف من الاسلام الا اسمه ، ولا تمت الى الدين الا بأسباب من الرسوم الظاهرة العادية ، وقد تمكنت منهم العصبية النسبية والقبلية تمكنا وتطبعت عاداتهم واخلاقهم بعوائدهم القبلية التي كان لها عليهم سلطان وأي سلطان فكانت نتيجة هذا الخطأ الفادح أنه لما جد الجد واستمر القتال بين المجاهدين والسيك أصبح كثير من القبائل الافغانية عيونا للاعداء وعونا لهم على المجاهدين .

وكذلك كلما اهتبلوا غرة من المجاهدين لم يترددوا في التنكيل بهم ووضع السيوف في رقابهم . هذا كله جهلًا منهم بالدعوة وتهافتاً على حكام الدنيا الدنيئة . فلو اعتنى القائمون بالدعوة والجهاد بنشر الدعوة بين سكان تلك الاقطار وصرفوا جزء يسيراً من جهودهم وأوقاتهم في تلقينهم مباديء الدين وتنشئتهم على الاخلاق الفاضلة والآداب الاسلامية ، لما كان موقفهم من الدعوة والقائمين بها ذلك الموقف المخجل الذي قصم ظهر الدعوة يومئذ وسود وجوههم في الدنيا والآخرة .

الفصل الخامس

ثورة الهند الكبرى

ومابعدها

١٢٧٣ - ١٨٥٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحیم

الثورة وما بعدها

لعل القاريء العربي يعرف أن المملكة المسلمة في الهند بدأ يضعف أمرها ويتقلص ظلها منذ أواخر القرن السابع عشر للميلاد ، ومنذ ذلك اليوم أخذ الامر ينتقل الى « شركة الهند الشرقية » البريطانية ، حتى كاد يستتب لها الأمر في معظم أقطار الهند في بدء القرن التاسع عشر . اما المملكة المسلمة المركزية ، فقد أصبحت منحصرة في العاصمة (دهلي) في « الحصن الاحمر » الذي كان يسكنه الملك . ومن غريب المصادفات ان حركة تجديد الدعوة والجهاد ما قامت الا بعد ما تمكن الانكليز من ناصية الأمر في اكثر انحاء البلاد ولم تخرج عن صورة ملكهم الا مقاطعة (بنجاب) وبعض المقاطعات النائية . ولما استشهد المجاهدون في معركة (بالاكوت) سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣١ م ، اعترى اليأس والوجوم جمهرة سكان البلاد الذين كانوا يتذمرون من قسوة عمال الشركة وسوء صنيعهم في الحكم . وكذلك انتشر الاضطراب وعم القلق في الجيش الحكومي المؤلف من الاهالي لاسباب عديدة لا يتسع نطاق المقام لذكرها . وجملة القول انه انفجر بركان ثورة عظيمة دامية في البلاد وامتد لهيبها الى جميع

انحاء القطر ، الا انها كانت على أشدها في العاصمة (دهلي) وماحولها ومايليها من مقاطعة الولايات المتحدة (U. P.) حيث استولى الجيش والاهالي على معظم الاماكن الاستراتيجية ونشبت معارك دامية بين الجيش البريطاني والثوار واستمر القتال عدة أشهر أبلى فيها الثوار والاهالي بلاء حسناً .

وقد ساعدهم على ذلك فتوى العلماء بوجوب الجهاد ومشاركتهم في الثورة فعلًا .

ولعمر الحق ، أنها كانت ثورة هائلة جبارة كادت تذهب بالسلطة البريطانية في سيلها الجارف ، الا ان القدر ماساعد اهل الهند وتمكن الجيش الانكليزي ومن لم يفارقهم من الجيش الاهلي من كبح جماح الثورة والقضاء على الثوار . وفي غضونها أسروا الملك المسلم (المحبوس) في الحصن الاحمر ونفوه الى بلاد (برما) ، حيث استأثرت به رحمة الله وامحى اسم المملكة المسلمة من خريطة الهند . وأيضاً أخذت الحكومة البريطانية زمام الامر بيدها رأساً وانتهى حكم الشركة المشؤوم الجائر ، الى غير ذلك من التغيير والتبديل الذي طرأ على البلاد وقلب اوضاعها رأساً على عقب . واما انواع المظالم وصنوف الشدائد والاهوال التي صبها الجيش الانكليزي على الاهالي وماسامهم من سوء العذاب والذل المهين . فهي من أفظع أنواع الهمجية والقسوة التي يندى لها جبين الانسانية ويحمر لها وجه المروءة والشرف خجلًا وحياء . وناهيك بها من قتل وتشريد ونفي وتعذيب واجلاء وسفك لدماء الابرياء العزل الوادعين

ومصـادرة للأموال والأراضي وانتهاك الحرمات والاعتداء على ربات الخدور ، مما سود وجه التاريخ البريطاني في هذه البلاد . ولما كان ابنـاء الاسلام هم الذين تولوا أمر البلاد من قبلهم – ولو بالاسم منذ مائة سنة – وأنهم هم الذين حملوا بيدهم لواء الثورة وكانوا في طليعة المقاتلين وعلى رأس كواكب الثوار ، أصابتهم بهذا الانقلاب صدمة عظيمة انستهم كل مصيبة أصيبوا بها من قبل في هذه البلاد .

صدمة وأي صدمة ياترى ؟ كأني بالدهر الغشـوم ما ابقى في جعبته سهما الا ورماهم به . فان الانـكليز، بعد ماظفروا بالثوار وتمكنوا منهم ، جعلوا نصب اعينهم ان يستأصلوا شأفة المسـلمين ويبيدوهم عن آخرهم ويقضوا عليهم قضاء لاتقوم لهم قائمة من بعده أبداً . وكل من أمعن في تاريخ الهند في المائة سنة الماضية ودرسه درساً وافياً ، يشـهد لهم بأنهم لم يغفلوا عما عزموا عليه ، ولاطرفة عين ، وأنهم لم يجدوا فرصة للتنكيل بالمسلمين الا انتهزوها .

وهيهات ان يلتئم هذا الجرح على مدى الايام والليالي .

تأثير الثورة في حياه المسلمين

ان لهذه الثورة مابعدها في تاريخ الهند ولاسيما في تاريخ مسلميها ولقد عرف القاريء ، مماسردناه في الفصول الاولى من هذا الكتاب ان الدين الخالص لم يتمكن من قلوب الاهالي ولم يتغلغل في عروقهم قط . وانما نشأت في هذه البلاد امة متسمة بالاسلام ، مثقفة بثقافة ممتزجة من ثقافات الهند والفرس والترك .

وازدهرت هذه الثقافة المدخولة في ظل الملوك المسلمين من الترك والافغـــان والمغول على اختلاف نزعاتهم وميولهم وأهوائهم الفردية والقبلية .

فمنهم من جعلها هندكية وثنية ، ومنهم من أرادها ممتزجة مشتملة على ألوان من جميع الاصناف .

ومنهم من أحب ان يطهرها ويصبغها بصبغة الاسلام. الا انها بقيت ثقافة مدخولة ممزوجه من شتى العناصر والالوان .

هذا من جهة الثقافة . اما العقائد ، فقد سبق لنا القول في شأنها بما لامزيد عليه . واما الاخلاق التي بها قوام الامة وملاك أمرها ، فلم تكن على شيء من المتانة والقوة . وانما بقي ضعفهم الخلقي مستوراً من وراء صولة الحكومة ومنعتها الظـاهرة . ولكنه لما تسرب الضعف والوهن الى الحكومة واعتلى سرير الملك بعد الملك العـادل المسلم (عالم كير اورنك زيب) : ١٠٦٨ — ١١١٨ هـ) رجال ، كل تال منهم أخف عقلًا وأضعف بأساً من سابقه ، ظهر هذا الضعف الخلقي المستور وعرف الصديق والعدو ان أمراء المسـلمين وأعيان المملكة منهم ، مثلهم كمثـل السلع ، تباع وتشترى في سوق المطامع والشهوات ، وان وزراءهم وولاتهم يمكن مراودتهم على الباطل واستمالة أهوائهم بالذهب الوهاج ، وان أهل العلم والفتيـا منهم لايختلفون عن الاحبار والرهبان ، يشترون الحياة الدنيا بالآخرة ولايتحرجون في عرض فتاويهم المزورة المحرفة على كل من يساومهم فيها في مثل هذه الحال المؤلمة وفي مثل هذا الضعف

الخلقي المتغلغل في عروق الامة ، وفي مواجهة الاستعمار والتسلط (Imperialism) ، فوجدت الارض ممهدة والجيوش مغلولة وقلوب ملوك المسلمين وامرائهم مشتتة ، كل منهم ينطوي على حقد لأخيه وينصب الحيل والمكايد للتنكيل به ويستعين بالعدو الشرس على صاحبه وابن عمه وأخيه . ولولا مخافة الخروج عن الموضوع الذي توخيناه ، لأتينا على شيء من تفاصيل هذه المأساة المخزية التي مثلها أمراء المسلمين وقوادهم في القرن الثامن عشر الميلاد وبعده ، الا ان الامر أشهر من قفا نبك . وما يوم حليمة بسر .

هذا ماوصلت اليه حال المسلمين يوم دخلت الشركة البريطانية في ميدان الاستعمار وبدأت تتوسع في الملك ، ومازالت الامة المسلمة منذ ذلك اليوم تنحدر من علو الى سفل وتنقلب من سوأ الى اسوأ منه ، حتى استتب الامر للشركة البريطانية ودانت لها رقاب الاهالي وتقلص ظل الامارات المسلمة من فلول الحكومة المغولية وانعدام نفوذهم ، الا من انحاز الى العدو ولجأ الى كنفه وساعده على اخوانه وبني جلدته .

وبينما وصل المسلمون الى هذا الدرك الاسفل من الانحطاط الخلقي والسياسي وأصبحوا في حيرة من مصيرهم لايهتدون اليه سبيلا ولايجدون ملجأ يلجأون اليه ويجتمعون بحماه ، اذا انفجر بركان الثورة الكبرى فاصطلوا بنارها وخاضوا معاركها ، وكانوا حملة لوائها وقادة جيشها ، لكن القدر ماواتاهم وباءت الثورة بالفشل والنكبة على الاهالي ، كماذكرنا آنفاً ، فكانوا هم الغرض الذي رماهم العدو المتغطرس بسهمه وأخذهم

بجريرة ايقاد نار الثورة واشعال لظاها . فكان من نتيجة الاضطهادات والشدائد التي ذاقوها خلال الثورة وبعدها ان المسلمين تشتت شملهم وتفرقت كلمتهم وكادوا يصبحون عالة على غيرهم يتكففون ولا يجدون مايسدون به رمق حياتهم . ومن شر مافعلت بهم الحكومة البريطانية أنها سدت في وجوههم أبواب الرزق في دواوينها وصادرت أملاكهم وأراضيهم وتركتهم حيارى لايدرون ماذا يفعلون وكيف يعيشون . وجملة القول ان الحكومة ارادت ان تجعلهم كالمنبوذين من الوجهة السياسية والاقتصادية . وكذلك قررت منهاجاً للتعليم في مدارسها ينفر المسلمين من ارتياد مناهلها ، ان أرادوا ان يبقوا مستمسكين بعقائدهم ، فتخلف المسلمون عن جيرانهم في موكب التعليم الجديد ، تخلفاً لايزال يشاهد أثره الى اليوم .

انقلاب في الحال الدينية

لقد ظهر مما ذكرنا آنفاً ان الثورة أحدثت انقلاباً عظيماً في أوضاع البلاد ، وأكبر من تأثر به وأصيب في الصميم بحياته من جرائها ، هم المسلمين الذين حملوا لواء الثورة بيدهم وكانوا في طليعة المحاربين . وهذا التأثر والانقلاب الملموس والتبدل العظيم ، كان مشاهداً في جميع نواحي حياتهم ، الا ان مناط بحثنا في هذا الكتاب بوجه خاص ، هو الدعوة ، فلننتظر في الحال الدينية وماطرأ عليها من تغيير وتبديل بعد هذا الانقلاب . وانما ذكرنا شيئاً ماجريات الثورة وأثرها في حال المسلمين العامة في هذا المقام ليكون كلامنا في هذا الصدد متناسقاً ، متصل

الحلقـات .

هذا ، وليذكر القارىء ان جميع من ذكرنا من المصلحين والمجددين من الامام ولي الله الدهلوي الى السيدين الشهيدين وأتباعهما ، كلهم نشأوا ودرجوا قبل الثورة الكبرى . ولما انفجر بركان الثورة وانتهت بالقضاء التام على المملكة المسلمة وتولي الحكومة البريطانية لزمام الامر مباشرة ، تبدلت الارض غير الارض وانقلب الحال ظهراً لبطن . ومن هذا الانقلاب تضييق [1] الخناق على العلماء وحملة الدين ونفيهم الى جزر (اندمان) واعتقالهم في السجون من غير محاكمة ، حتى يخلولها الجو ولا يبقى من يعارضها في ماتريده من « الاصلاحات » .

سيد احمد خان وحركة علي كره

بينما كان جمهور المسلمين مشتتين في الاقطار وعلماؤهم محبوسين في السجون او منعزلين في الجوامع والزوايا ، والحكومة وأعوانها ينظرون اليهم بعين الازدراء والاحتقار وجيرانهم – الذين كانوا بالامس من رعاياهم – يتبوأون أعلى المناصب في دواوين الحكومة ، اذ قام (سيد

---

(١) يظهر تضييق الحكومة على علماء الدين يومئذ بما كتبه الكاتب الانكليزي الشهير بلنت (W. Blunt) الذي زار الهند بعد الثورة بقليل .

« تراقب الحكومة كل « مولوي » ينال سمعة ثم تضيق عليه بكل طريق . وان استقر على طريقته ، نفته الى جزر (اندمان) . [في زمن اللوردين] .

احمد خان [١]) الشهير ، فسعي سعيه لاصلاح ذات البين وتقريب مابين الحكومة ورعاياها المسلمين من سوء التفاهم وشقة الخلاف . ومما ساعده على ذلك وجرأه على الاضطلاع بهذه المهمة الخطرة، هو مساعدته للانكليز إبان الثورة وموقفه المعروف بجانب الانكليز المهددين بالخطر والهلاك أيام اشتداد الثورة واضطرام لهيبها ، مما أكسبه دالة وحظوة لدى ولاة الحكومة وعمالها . فلما رأى (سيد أَحمد خان) مصير بني قومه وما آل اليه أَمرهم من التشتت وتفرق الكلمة وسوء معاملة عمال الحكومة لهم ، شمر عن ساق الجد ووقف موقفاً كريماً في الدفاع عن قومه وشعبه وجرد لذلك قلمه ولسانه ، فألف كتاباً لطيفاً جامعاً في (أسباب الثورة) ، كشف القناع فيه عن علل الثورة الحقيقية وبرأ ساحة المسلمين من كثير من التهم والمفتريات التي كانت تلصق بهم .

وكذلك الف في الرد على الدكتور وليم ولس هنتر (W.W. Hinter) الذي قال في كتابه السائر مسلمو الهند (Iddian Muslimans) ان المسلمين لن يكونوا رعية صالحة لأية حكومة

---

(١) هذا هو سيد أحمد خان الشهيد ، مؤسس كلية (عليكره) الاسلامية ، التي ترقت في مابعد وازدهرت الى ان اصبحت جامعة راقية . نعم ، هذا هو سيد أحمد الذي رد عليه السيد جمال الدين الافغاني في (العروة الوثقى) رداً عنيفاً . ولهذا الرجل أثره البالغ في سياسة المسلمين ومنهاج تعليمهم وطرق معيشتهم بعد الثورة وكل من يريد معرفة تاريخ المسلمين في هذه الحقبة من الزمن لابد له من ذكر (سيد أحمد خان) والتنويه باعماله ومساعيه أو التنديد بسيآته واجتهاداته . ودعوته اليوم تعرف باسم حركة (على كده) ، المدينة التي أسس بها كليته الشهيرة .

مادا موا عاملين بالقرآن » .

هذا من ناحية . وفي جانب آخر أهاب بقومه الى الاغتراف من بحر التعليم العصري والاقتطاف من ثمرات الثقافة الجديدة الاوروبية التي بدأ غراسها الانكليز والارساليات المسيحية منذ ثلاثين او اربعين سنة وتهافتت عليها الهنادك منذ ذلك الحين ؛ لكن المسلمين استنكفوا من ادخال ابنائهم في تلك المدارس لما وجدوا فيها من رائحة « التبشير » او التضليل والتنفير عن الاسلام .

فكان سيد احمد خان ، اول من قام من المسلمين بهذه الدعوة بعد الثورة ووقف حياته ومواهبه للسعي وراء انجاحها وألف لذلك جمعيات وأصدر مجلة لبث أفكاره ونشر آرائه الحديثة العصرية في هذا الشأن .

ولو اكتفى بذلك أي الدعوة الى الاقتطاف من ثمرات التعليم الحديث ، لما كان في عمله ضرر كثير ، ولما خالفه علماء عصره وأولي الرأي منهم ، لكنه خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً .

وذلك ان سيد احمد خان ومن حذا حذوه من زملائه ومعاصريه قد استولت على قلوبهم هيبة اوربا العلمية استيلاء يكاد يذهب بعقولهم وألبابهم كأني بهم دهشوا لما شاهدوه من فخفخة الانكليز الظاهرة وأساليبهم المزخرفة في التحقيق والبحث ، فجعلوا يحسنون الظن بكل مايأتي من أوربا من علم او نظرية وأرادوا ان يطبقوا روائع محكمات القرآن ومعجزاته عليها ، كأنهم افترضوا في أذهانهم ان كل مايأتي به هؤلاء القوم

قضايا مسلمة ، لايتسرب اليها أدنى شك ولا ريب ، فاذا رأوا في الكتاب العزيز مالايوافق آراء القوم ونظرياتهم المتغيرة المتجددة ، عمدوا الى آي الكتاب فحرفوها عن مواضعها وألبسوها معاني توافق أهواءهم وأغراضهم جعلوا هذا ديدنهم وعادتهم في كل مسألة عارضت فيها أقوال الافرنج كتاب الله . وهذا تفسير سيد احمد خان ومؤلفات أتباعه وزملائه محشوة بمثل هذه الخرافات والتحريفات الزائغة الباطلة . ومن غريب أمر تلك الطائفة المتجددة أنهم ما أتوا بشيء طريف في باب التحريفات الزائفة بعد سيد احمد خان على كثرة عددهم ، حتى ان (محمد علي اللاهوري) زعيم القاديانية اللاهورية ، ايضاً يقفو اثر سيد احمد خان في هذا الشأن .

وضغث على ابالة أنهم بدأوا يصيحون بالالحاد وينادون بالويل والثبور ويقولون بملء أفواههم « الدين ! الدين !! خذوا بيده واحموه من هجمات الاعداء والعلوم العصرية » والحال أنه لم يكن وقتئذ الحاد ولا زندقة ، وما كان للمسلمين معرفة بنظريات الغرب وآرائها الا قليلا خوفوا بالالحاد والزندقة ، واستعدوا لمعارضتها وبهذه الحجة تركوا افكارهم وآراءهم تجري في سيل الفتنة نفسها واطلقوا عنان أقلامهم للمطابقة بين آيات الله وأحكامه وآراء الافرنج ، ففتحوا بذلك للفتنة باباً عظيماً وجنوا على الدين جناية لاتغتفر .

ومما لابد من ذكره في هذا المقام ان سيد احمد خان نجح في الدفاع عن المسلمين الى حد بعيد . مما لاريب فيه ان سياسة الحكومة قد تبدلت قليلاً وجنحت الى اللين مع المسلمين بعد مساعيه المشكورة وأدرك

عقلاؤهم ان المسلمين قد ظلموا واضطهدوا بغير حق فكان له بذلك تأثيراً على الشعب فولى وجهه شطر القبلة الجديدة التي بناها له سيد احمد خان وزملاؤه . أريد بذلك ان القوم أَخذوا يرسلون أبناءهم الى المدارس العصرية ويتهافتون على مناصب حقيرة في دواوين الحكومة . ومما أيده في مهمته هذه أَنه رزق زملاء وأعواناً مخلصين اقتضوا إثره وحذوا حذوه واضطلعوا بأعماله بعد وفاته وقاموا بها أحسن قيام . فما اضمحلت فكرة (سيد احمد خان) التجديدية او حركة (علي كره) الجديدة - كما تسمى اليوم - وما قل نفوذها بعد وفاته ، بل رسخت جذورها واستوثقت عراها بتأسيس كلية (عليكره) وأخواتها ، لان القائمين بها وطلبتها ومتخرجيها جعلوا فكرة قائدهم ، نصب أعينهم ومطمح أبصارهم .

معهد ديوبند [1]

قبل ان نبدأ بذكر معهد (ديوبند) وحركته الدينية التي أصبحت رمزاً للحركات المعارضة لحركة (عليكره) ، يجمل بنا ان نشير الى ان (ديوبند) و (عليكره) أصبحتا بعد قليل مدرستين في الفكرة متعارضتين وانبثت المدارس على كلا النوعين في طول البلاد وعرضها ، وان معظم المدارس والكليات التي تأسست بعد الثورة بثلاثين اواربعين سنة كانت تستوحي فكرتها وتستنبط منهاج عملها من هاتين المدرستين

---

(١) هذا المعهد الديني أسس سنة ١٢٨٣هـ أي بعد الثورة بعشرة أيام ، وكذلك قبل تأسيس كلية (عليكرة) بنحو عشر سنين . وديوبند هذه قرية في مديرية (جهاركبور) على مقربة من دهلي .

المتعارضتين في المبدأ والمنهاج .

وكذلك ما أحرانا ان نستعرض الحركة الدينيةوأعمال القائمين بها وتحولهم الى أحزاب وطوائف عديدة منذ عهد امام النهضة الدينية ولي الله الدهلوي (١١١٤ - ١١٧٦ هـ) الى العصر الذي تأسس فيه معهد (ديوبند) فظهرت دعوة (سيد احمد خان) المعارضة لتلك الحركة الدينية ، حتى يكون القاريء على بصيرة من تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند .

لقد عرفت في ماسبق ان الامام ولي الله كان محققاً في الفقه ، لايتقيد بمذهب دون مذهب . لكن نجله الكبير الشاه عبدالعزيزالدهلوي (ت ١٢٣٩ هـ) كان يميل الى الحنفية ولم يكن على غرار أبيه في التحقيق والاجتهاد . فانقسمت تلامذةهذا البيت الكريم الى الحنفية البريئة[٢] عن البدع وأهل الحديث .

فبينما ترى معظم تلامذة الشاه عبد العزيز مائلين الى الحنفية ، تجد فيهم الامام ولي الله وابن شقيق الشاه عبد العزيز - امام أهل الحديث في الهند وحامل لوائهم . فاتصلت الحنفية وأهل الحديث كلهم بهذا البيت العلمي الكريم ، كأن هذه كلها دوحات وأغصان تفرعت من هذه الشجرة الزكية التي أصلها ثابت وفرعها في السماء .

وكان من بين تلاميذ الشاه عبد العزيز ، سبطه الشاه محمداسحاق

---

(٢) قلنا « البريئة عن البدع » لان في الهند فرقاً من الحنفية كثيرة ، تنتمي الى الامام أبي حنيفة رحمه الله ، لكنها غارقة في بحار البدع والمنكرات ، تعبد القبور والاولياء. ومعاذ الاله ان تنتسب أعمالهم المنكرة الى أبي حنيفة وأصحابه الكرام .

(توفي بمكة المكرمة سنة ١٢٦٣ هـ) والشاه عبد الغني المجددي (من سلالة المجدد السرهندي الذي تقدم ذكره مفصلًا استفاد منهما وانتفع بعلومهما خلق كثير . وممن تخرج على يدهما الشيخ محمد قاسم النانوتوي (ت سنة ١٢٩٧ هـ) والشيخ رشيد احمد الكنكوهي اللذان قويت بهما شوكة الحنفية . وأسس أولهما المعهد الديني الشهير في قرية (ديوبند) الذي نحن بصدد البحث في شأنه الآن والذي يعد اليوم معقل الحنفية — وهم الاغلبية الساحقة — وموئلهم في الهند . فالحنفية الديوبندية ينتسبون الى الامام ولي الله بطريق الشيخ محمد قاسم النانوتوي عن الشيخ عبد الغني المجددي عن الشاه عبد العزيز الدهلوي . اما اهل الحديث ، فيقل نسبهم العلمي بالبيت الدهلوي بطريق الشيخ نذير حسين [1] البهاري الدهلوي عن الشاه محمد اسحاق عن الشاه عبد العزيز . وفي انتشار مذهب اهل الحديث يد عظيمة للعالم الشهير السيد صديق حسن القنوجي البخاري (ت

---

(١) محدث جليل من كبار تلامذة الشاه محمد اسحاق الدهلوي . وهو الذي تبوأ منصب تدريس الحديث في (دهلي) بعد استاذه . فأفاد جماً كثيراً من الناس وربما يزيد عدد تلامينه على الالوف . وهو نظير نفسه في هذا الباب . وقد رزق عمراً طويلا ، حتى انه قد تخرج على يده الجد والابن والحفيد من بعض البيوتات العلمية . فكانت حلقة دروسه اكبر وسيلة في تعميم مذهب اهل الحديث في الهند . أصله من قرية في أيالة (بهار) جاء (دهلي) طالباً ثم استوطنها . توفي سنة ١٣٢٠ هـ عن مائة سنة تقريباً .

سنة ١٣٠٧ هـ) - زوج اميرة بوفال -

فانه اتصل بالشيخ حسين بن محسن السبعي الانصاري اليمني (ت ١٣٢٧ هـ) تلميذ بن الشوكاني واستفاد منه . وأتاح له القدر أن يترك مئات من المصنفات في مختلف العلوم . و كذلك عني بطبع كثير من كتب الحديث النادرة ونشرها وتوزيعها بين الناس الى غيرها من مكارم الاعمال التي لا يتسع لها نطاق المقام . وهو أول من عرف علماء الهند بكتب علماء اليمن المحققين .

اذا قرأت هذا ، فاعرف ان العلماء لما رأوا ما آل اليه أمر المسلمين بعد انكسار الشوكة من تفرق الكلمة وتشتت الحال وشاهدوا مايدعو الناس اليه من متابعة الانكليز واقتفاء أثرهم في مناهج العلم وطرق المعيشة وآداب الاجتماع - لماشاهدوا ذلك بأم أعينهم أحسوا بالخطر المحدق بكيان الامة وشمروا عن ساق الجد لأداء ماعليهم من واجب الدعوة والدفاع عن حظيرة الدين والذود عن حياضه . فاستقر رأي بعض أولي العلم والنظر منهم ان يؤسسوا معهداً دينياً في قرية تسمى (ديوبند) ، فبدأوا بالامر في كوخ صغير بمدرس وطالب فقط ، وذلك سنة ١٢٨٣ هـ . ثم كان من فضل الله وصدق عزائم القائمين بها ، أن ازدهر المعهد وترقى رقياً باهراً وافتتحت معاهد دينية أخرى في مختلف مدن الهند أصبحت حصونا للدين منيعة في تلك الايام المظلمة التي اتسع فيها الخرق على الراتق واصبح القابض على الدين كالقابض على الجمر .

خدمت هذه المعابد الدين في هذه البلاد خدمات تشكر عليها وتؤثر وبلسان الثناء تذكر ، الا ان منهاج [1] التعليم في تلك المعاهد مكان عقيماً لا يصلح لهذا العصر الذي تغيرت فيه أوضاع العالم ولا يؤهل الطالب المتخرج على ذاك المنهاج ان يخدم الدين ويذود عنه في هذا الزمان الذي تطورت فيه النظريات وتجددت الافكار والآراء . فكما ان كلية (عليكرة) وأخواتها جعلت من همها اقتفاء اثر الغرب وتتبع معالمه في كل شيء وما اهتمت بالتعليم الديني في قليل ولا كثير ، كذلك هذه المعاهد الدينية ، حصرت جهودها في كتب وشروح ومقررات للدرس ورثوها عن شيوخهم ولم يتفكروا شيئاً في مايتطلبه العصر الحاضر من علوم وآداب ومايحتاج اليه العالم من الفنون والمعلومات للدفاع عن حرمة الدين والذود عن حياضه . فكانت النتيجة ان هذين المركزين العلميين

---

(١) منهاج التعليم الرائج في معاهد الهند الدينية كان يدعي الدرس النظامي نسبة الى أحد علماء الهند ملا نظام الدين (ت ١١٦١ ه) . وكان هذا المنهاج يشتمل على كتب المنطق والفلسفة اليونانيتين وشروحها وتعليقاتها وجملة من كتب النحو والبلاغة على الوجهة النظرية وشيء من التفسير والحديث . لكن أهل ديوبند ، كذلك اهل الحديث ، بعدما ألقي اليهم زمام التدريس في المعاهد زادوا في القسم الديني المشتمل على التفسير والحديث والفقه وقللوا من علوم اليونان ، الا انهم لم يعتنوا بتدريس اللغة العربية أصلا . وان اهتموا بتدريس بعض كتب في الادب العربي ، واهتموا بلغات ميتة كالسنكريتية ، لا يكتب ولا ينطق بها .

ـ (يوبند وعلي كره) ـ اللذين نشآ وازدهرا بعد الثورة ، أصبحا على طرفي نقيض وتكونت بذلك فكرتان جديدتان تناقض احداهما الاخرى وبدأ الصراع بين القديم والجديد ، بين المولوي المتخرج في معهد (ديوبند) واخوانه ، والمتعلم (Graduate) الناشيء في الكليات العصرية .

وان شئت الاستزادة من هذا الباب وأحببت الاطلاع على تفاصيل ذلك الصراع ، فلنعد الى الوراء قليلاً ولنتصور المجتمع الاسلامي الهندي قبل خمسين او ستين سنة .

وهب أنك دخلت أحد الأندية الكبرى العامرة في احدى العواصم يومئذ : فماذا ترى فيه ؟ انك ترى أحد المتحمسين لدعوة (سيد احمد خان) من زملائه ، القائمين بحركة (علي كره) يصعد المنبر وينادي بأعلى صوته قائلا : هلو ، ايها القوم ، هلموا الى ما أدعوكم اليه من اجتناء ثمرات الحضارة الجديدة الاوربية واقتطاف أزهار هذا التعليم العصري الذي طالما غفلنا عنه ، فتقهقرنا عن الركب . والى تتبع معالم الشعوب الراقية الاوربية المتحضرة التي غيرت سنن الكون وأحدثت انقلاباً مدهشاً في عالم الابداع والاختراع . هلموا الى ما أدعوكم اليه ، والا ، فالويل ، كل الويل لكم في الحاضر ولأبنائكم في المستقبل الذي يكاد يكشر عن أنيابه لمن يتخلف عن ركب الحضارة ويبقى جامداً على تراث العصر الغابر الذي أكل عليه الدهر وشرب وهاهم جيرانكم الهنادك ورعاياكم بالأمس ، يتربصون بكم الدوائر ويريدون ان يستمتعوا بموارد الثروة كلها ويستبدوا

بمكاسب العيش دونكم » .

هذا ماتشاهده في ناحية من النادي . ولا يكاد يمضي على هـذا الخطاب الرائع المزخرف الا دقائق ، حتى ترى في ناحية أخرى شيخاً وقوراً من مشايخ ديوبند يعظ الناس ويرشدهم الى الاعتصام بالدين والاستمساك بالآراء والافكار التي ورثوها عن آبائهم وشيوخهم . واذا بالنادي يمتلىء ضجيجاً وصياحاً وترتفع أَصوات الفريقين بالاحتجاج والاستنكار .

وقد بلغت الحال وقتئذ الى ان اصبح من العسير اتفاق الفريقين على كلمة واحدة ولا تكاد ترى دعاة الطائفتين يجتمعان في مجلس واحد . وان اجتمعا ، فهنالك الجدال والخصام . ويعلم الله ، كم من مثل هذه المجالس وأندية الخطابة تحولت الى معترك للجدال وميدان للشقاق والخصام .

وجملة القول ان (سيد أحمد) وزملاءه وأنصاره واتباعه من بعده كانوا يستهزؤون « بالمتدينين » عامة ويرمون المشايخ والعلماء منهم بالجمود خاصة ، وكذلك العلماء والمشايخ يكفرونهم وينسبونهم الى الزندقة والالحاد « فكاد الاسلام يضيع بين جامد وجامد كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله .

وزاد الطين بلة والطنبور نغمة ، تضارب العلماء والمشايخ وتشاجرهم في مابينهم وتكفير بعضهم لبعض ، كأني بهم ، لم يبق لهم من عمل في هذه الحياة الدنيا الا الجدال والنقاش في مسائل معدودة

من فروع الفقه .

فلاتجد مجالس المسلمين ومحافلهم خالية من مناظرة بين الحنفية وأهل الحديث او جدال بين الديوبندية والقبوريين من الحنفية . ومن دواعي الأسف والألم ان معظم تلك المناظرات والمجادلات كانت تدور رحاها حول مسائل تافهة وترهات لاصلة لها بالحياة العملية البتة ، وما كان العبد ليحاسب عليها بين يدي ربه . ومن المبكيات الموجعات في ذلك الزمان ان عدداً غير قليل من بيوت الله لم تكن أبوابها مفتوحة لجميع المسلمين . وان تجرأ أحد ممن لاينتمي الى الطائفة المستبدة بالجامع على الدخول فيه او دخل فيه خطأ ، ظاناً أنه بيت من بيوت الله ، فهناك الطامة الكبرى . وان تعجب ، فعجب لجوامع يشرف عليها الصبوريون كانت تغسل بالماء غسلا اذا وضع فيها قدمه من لم يكن من نحلتهم وطائفتهم .

ولمثل هذا يذوب القلب من كمد ان كان في القلب اسلام وايمان

ندوة العلماء

لما بلغ الامر الى ماتقدم آنفاً من انحياز طائفة الى الغرب وايمانها بعصمة أهله وتلقيها بالقبول كل مايأتي من آوربا من علم وأدب او عقيدة ومبادىء خلقية ، وجمود طائفة على ماورثته من شيوخها من منهاج التدريس وأوضاع في المعيشة وطرق للتفكير ، ناظرة اليها نظر تقديس واجلال لما وصل الامر الى هذا الحد واتسعت شقة الخلاف بين الفريقين حتى ظهرت آثاره في كل فرع من فروع الحياة ، أحست

جماعة متفقهة من العلماء وأولي الرأي بالخطر الداهم وأرادوا ان يتداركوه قبل ان يتفاقم الخطب ويتسع الخرق على الراقع ، فشمروا أذيالهم لسد هذه الثلمة الشنيعة ورتق هذا الفتق العظيم الذي ظهر في المجتمع الاسلامي الهندي ، فأسسوا جمعية (ندوة العلماء [1]) وفتحوا أبوابها لكل من يريد المشاركة فيها من المؤمنين بالله ورسوله من غير فرق بين طائفة وطائفة وجعلوا من أهم مقاصدها اصلاح مناهج التعليم في المعاهد الدينية حتى تكون جامعة بين علوم الكتاب والسنة والعلوم العصرية ، تتخرج فيها جماعة مثقفة بالثقافتين الجديدة والقديمة وتتقدم الى ميدان العمل حاملة بيمينها لواء الكتاب العزيز والسنة النبوية وآخذة مصباح العلوم الحديثة والمعارف الجديدة بشمالها ، فتدافع عن حوزة الملة الحنيفية دفاع المجاهدين المتنورين . وكانت غايتهم القصوى من تأسيس الجمعية ودار علومها التابعة لها ان لاتتسع شقة الخلاف بين الطائفتين المتجددة والجامدة ولا يتعذر اتفاقها على كلمة واحدة في الاعمال والمشاريع التي تتعلق بصالح المسلمين العام . وهذه الفكرة ، وان كانت بدعاً عند العلماء والمتجددين قبل خمسين سنة ، ولذلك خالفها من خالفها من المتجددين وكفر القائمين بها من كفرهم من الجامدين ، الا انها أصبحت في مابعد فكرة سائدة ورأياً محكماً مستولياً على قلوب الامة وزعمائها ، آخذا بمجامع قلوب العلماء والمتعلمين الجدد .

---

(١) تأسست سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م ، ثم اسس بنيان دار العلوم التابعة لها بعد خمس سنين .

وكان من نجاحها في مهمتها أن مدرسة (ديوبند) واخواتها من الدينية جعلت تقفو اثرها وتحذو حذوها في اصلاح مناهج التعليم والدعوة الى الوئام بين فرق الاسلام من حيث تشعر ولا تشعر ، فان الزمان خير معلم ومدرب ، ويا ليتهم تنبهوا من غفلتهم وتيقظوا من رقدتهم من قبل . وكذلك نبغ من نبهاء المتعلمين الجدد رجال مؤمنون بالدين يدعون الى الاصلاح والتجديد أمثال الزعيم الخالد مولانا محمد علي [1] والشاعر الحكيم الدكتور محمد اقبال [2] — رحمهما الله واسكب على تربتيهما سجال العفو والغفران — ممن ارتووا من مناهج العلم الحديث والعقلية الجديدة في عواصم أوربا وفاقوا فيها أقرانهم في جانب وبذوا العلماء والمشايخ في حبهم للدين وتحمسهم في الدفاع عن كيانه في جانب آخر . وكذلك نشأت من متخرجي دار العلوم التابعة لندوة العلماء نفسها جماعة مختاره فنهلت من الينبوعين وتضلعت من الموردين القديم والجديد وقامت بأعمال مشكورة وخدمات جليلة معروفة في عرض الاسلام باسلوب حسن وابراز محاسنه بطرق توافق روح العصر ، حتى اصبح لها مقام مرموق في الادب الاسلام الهندي . وقد ذاعت واشتهرت مؤلفات الندويين ونالت حظوة لدى المتعلمين الجدد بوجه خاص . وذلك ان المشايخ الجامدين لا يزالون مستمسكين بنصوص الفقهاء المتأخرين . غير عارفين بأحوال العصر

---

(١) الزعيم المسلم الشهير المتوفي سنة ١٩٣٠ م .

(٢) شاعر الشرق الاكبر الدكتور محمد إقبال المتوفي سنة ١٩٣٩ م .

ومقتضياته ، فلايلتفت الناشئة الجديـــدة الى مايكتبون ويقررون في دروسهم .

أما المنتسبون الى ندوة العلماء المتشبعون بهـذه الفكرة الندوية المعتدلة ، فجعلوا الكتاب العزيز والسنة النبوية أصلا لهم وسنداً ، يرجعون اليها في حل المعضلات وفتح أبواب المشكلات ، وفي جانب آخر لاتروعهم حذلقة المتجددين وتعويلهم على النظريات الغربيـة في كتبهم ومقالاتهم ، فانهم تذرعوا بتلك الاسلحة الجديدة حتى زاحموهم فيها ، فجاءت مؤلفاتهم ثابتة على أساس الكتاب والسنة ، رافلة في حلل الاساليب الحديثة العصرية. وذلك سر نجاح مصنفاتهم وتلقى المتعلمين لدعوتهم بالقبول . وبقي لنا أن نشير الى مزية اخرى لندوة العلماء ودار العلوم التابعة لها ، لا تضاهيهـــا ولا تزاحمها فيها مدرسة ولا كلية ولا جامعة في الهند . وذلـك ان القائمين بها اعتنوا في اول ما اعتنوا بتدريس اللغة العربية اعتناء عظيما ، فانهم جعلوا تدريس لغة القرآن نطقاً وكتابة من أهم ما يشتمل عليه منهاج دار علومها . ومن ذلك انهم سعوا سعيهم في جميع أدوارها ، لأن يجلبوا أساتذة اللغة العربية من بلاد العرب نفسها ، ليتدرب الطلبة على الكلام ويتمرنوا على الكتابة. وقد رزقهم الله نجاحاً باهراً في هذا الشأن، حتى ان أشد الناس محاربة لدعوة الندوة ومعارضة لها ، يعترف بذلك . والفضل ماشهدت به الاعداء .

وقد بلغ الامر ببعض الجامدين في ذلك الى انهم يعيرونها بهـذه المزية قائلين « مافي الندوة غير العربية » .

نظرة في المناهج الثلاثة

هذه هي المناهج الثلاثة التي سار عليها نظام المسلمين التعليمي في الهند من بعد الثورة الى اليوم . والمنهاج السائد الشائع من بينها الذي نال قبولا ورواجاً بين الاغلبية ، هو المنهاج العصري الجديد الذي دعا اليه سيد أحمد وأتباعه وتربى وترعرع في حضن الحكومة وكنفها ، والذي كان جل دعوته الى محاكاة الغرب في علومهم وآدابهم ومعيشتهم وملابسهم ، والى الحصول على وظائف في دواوين الحكومة . فما كان من ثمراته الا الضعف في العقيدة والانحلال في الاخلاق والخور في العزيمة . وضغث على ابالة ان الوظائف الحكومية التي ألهتهم عن الدين والخلق وصرفتهم عن ارتياد مناهل الكتاب والسنة ، طمعاً فيها قد سدت أبوابها في وجوه جمهرة المتعلمين بعد قليل لقلة عدد الوظائف وكثرة المتزاحمين المتهافتين عليها .

ويتلوه في الذيوع والرواج المنهاج القديم العقيم المتبع في المعاهد الدينية القديمة ، فانها ، وان أدت بعض خدمات تشكر عليها ، لم تكن أهلا للقيام بواجب الدعوة في الاحوال المتبدلة الجديدة لايمانهم بعصمة شيوخهم وعصمة الكتب التي كانوا قرروها للتدريس قبل مائتي سنة واعراضهم عن مجاراة الزمن ومراقبة سير الحوادث عن كثب ، فاصبحوا في معزل عن شؤون الدنيا وكذلك أصبح العالم وشؤونه الجديدة في غنى عن خدماتهم ومساعدتهم .

وقد بلغوا في انعزالهم عن شؤون الدنيا وسياستها مبلغاً ، أنهم كلما تدخلوا

في شأن من شؤونها ، أخفقوا في مسعاهم وما تمكنوا من الاضطلاع بأعبائه ، وكان ذلك حجة للمتعلمين الجدد عليهم وعلى التعليم « الديني » القديم ، ، لعدم كفاءتهم وقلة خبرتهم بأمور الدنيا وتسيير شؤونها .

أما المنهاج الثالث المعتدل ، الجامع بين التالد والطريف والقديم والجديد ، فلاجرم أن القائمين به والمتخرجين عليه قد قاموا بمهمتهم أحسن قيام وأدوا واجب الدعوة والدفاع عن الدين أحسن تأدية ، الا ان نفوذهم بقي منحصراً في دائرة محـــدودة وبقيت الاغلبية الساحقة من المدارس اما منضمة الى صفوف الكليات الحديثة أَو منخرطة في سلك المعاهـــد القديمة . فالمدارس التي آثرت هذا المنهاج وسارت عليه ، كان عددها قليلًا جداً . اما الذين تأثروا من المتعلمين وجمهرة القراء بمؤلفات الندويين ومن على شاكلتهم من حملة الفكرة المعتدلة ، واستفادوا منها وأَشربوا فكرتهم فلاشك ان عددهم غير قليل ، وهم الصفوة المختارة من الامة ، والامـل منوط بأمثال هؤلاء .

هذا ، ولابد من الاشارة في هذا المقام الى شيء مهم كان يعوز هذه المناهج الثلاثة بأجمعها ، بل الحق ان كل ما اطلعنا عليه ودرسناه من مناهج التعليم في الهند ومصر وغيرهما من بلاد المسلمين ، ينقصه هذا الشيء الخطير الذي كان السبب الاعظم في تقهقر الدعوة الاسلامية وخيبة المسلمين في مشاريعهم التعليمية وتسييرها على الوجه الاسلامي الصحيح .

وذلك ان جميع المصلحين كالشيخ محمد عبده وشبلي النعماني ومن في طبقتهم في البلدان الاخرى قد اقتنعوا ورضوا بتقسيم العـــلوم الى

الدينية والدنيوية في أول أَمرهم بالاصلاح والتغيير ، فكل ماغـــيروه وبدلوه وأصلحوه ، انما كان من هذه الوجهة وبهذه الفكرة الخاطئة الـتي ترى ان العلوم تنقسم الى دينية ودنيوية . و كأني بهم زعموا ان التفسـير والحديث والفقه وما اليها من العـــلوم التي تدرس في الازهر وديوبند وغيرهما من المعاهد (الدينية) هي علوم (دينية) ، والاقتصاد والتاريـخ السياسي والكيمياء والهندسة والميكانيكا وغيرها من العلوم المستحدثـة المستوردة من بـلاد الغرب التي تلقن وتدرس في الـكليات العصرية ، علوم دنيوية . فلما اعتزموا اصلاح منهاج التعليم بعدما قرروا هذا المبـدأ السقيم واعترفوا بهذا التقسيم الخاطىء من حيث يشعرون أو لا يشعرون أرادوا أن يجمعوا بين النوعين ، كما فعلت دار العلوم الندوية في الهنـد ودار العلوم في مصر ، فأصبحت هذه المدارس بعد هـذا « الامتزاج » مدارس نصف عصرية - كما يراه بعض الناس — فاقدة شيئاً من صبغتها الدينية ، كما يزعم المنتمون الى معهد ديوبند عندنا مثلا . والمدارس التي أَعرضت عن علوم الدين بتاتاً وما اكترثت لها أصلا واشتغلت بالعــــلوم الحديثة فحسب ، سميت مدارس دنيوية مثل الـكليات والجامعات العصرية في جميـع البلدان .

أما المعاهد التي اقتنعت بالعلوم « الدينية » التي ورثتها عن شيوخها وما التفتت الى العلوم العصرية في قليل ولا كثـير ، فهي التي تستحق لقب المدارس « الدينية » ، حسب هذا الاصطلاح الخاطيء .

ومن البين الواضح ان هذا التقسيم خاطيء برمته ، باطـــل من

أساسه ، وأنه ينم على فكرة خاطئة باطلة ، استحكم بنيانها وتوثقت عراها في القرون المتأخرة ، قرون الجمود والتقهقر الفكري . وبيان ذلك ان الاسلام كلمة جامعة تشمل جميع نواحي الحياة البشرية من عقيدة وعبادة وخلق وسياسة واجتماع ، وأنه ليس بعبارة عن صلة فردية بين العبد وربه فحسب ، بل الامر أنه نظام شامل كامل كافل لجميع الشعوب البشرية في جميع العصور والازمنة ، محيط بمختلف شعب الحيـاة وفروعها . وليس الاسلام بنحلة كالنحل الاخرى قد تنحصر في دائرة مجموعة من الرسـوم والشعائر يؤديها العبد بين يدي ربه في داخل المعبد والمسجد ، ويكون حراً طلقاً لايتقيد بشيء ، اذا دخل معترك الحياة وعالج شؤونها المختلفة . بل الحق الذي لاخفاء فيه ولا مراء ان الاسلام هو الدين الجامع الشـامل الكافل للحياة البشرية بأسرها ، محيط بجميع فروعها وشعبها ، لايند عن دائرته شيء ولايشذ عن نفوذه شأن من شؤون البشر . فاذا قلنا «العلوم الدينية » او « المعاهد الدينية » و « التعليم الديني » فمعناها أننا نريد بذلك علوماً او منهاجاً للتعليم يؤهل الطالب الدارس له ، المتخرج فيه كي يقوم بمهمة « الدين » بمفهومه الاسلامي والدعوة اليه .

ويقدر على ان ينتزع زمام الزعامة العـــالمية من أيدي الفجرة والطواغيت ويأخذه بيده ويسير شؤون العالم حسب الاوامر الالهية ، فكيف يقوم بهذه المهمة الجليلة ، مهمة الدعوة الى الدين الكامل الشـامل لسعادة البشر ورفاهيتهم في جميع نواحي حيـاتهم ، من لاخبرة له أصلًا بأمور الدنيـــا وشؤونها وحوادثها المتقلبة ونظمها المتجددة المتبدلة ،

وكذلك كيف يقدر ، ياترى ، على تسيير دفة الملك والاضطلاع بأعباء السياسة والاقتصاد ، من تلقى نبذة يسيرة من مباديء بعض العلوم التي لها علاقة بشؤون الحياة ؟ فمما لاريب فيه ان الذي درس العلوم على المنهاج القديم او تربى ونشأ على المنهاج المعتدل ، لايقدر على ادارة شؤون الحكم والاضطلاع بأعباء الشؤون المتنوعة المتجددة التي تعرض للحكومات في هذا العصر . اما الذين تخرجوا في الجامعات العصرية الحديثة التي تفتخر بكونها لادينية (Secular) ، فما لهم ولتنفيذ الشريعة الاسلامية وتطبيق أحكامها في نظم الحكم وادارة شؤون المملكة ؟ نحن في واد وأولئك في واد آخر . فالطريق الوحيد لاصلاح مناهج التعاليم واعداد الشبان للاضطلاع بمهمة اقامة الدين الكامل ، هو ان نضرب نظرية التقسيم بين العلوم الدينية والدينوية عرض الحائط ونسخر علوم الارض كلها لخدمة الدين القيم ونضع منهاج تدريبها على أساس اسلامي متين يمكن الطالب اذا درس الفلسفة او علم الاقتصاد مثلًا ان يعرف من اول يوم منزلة ذلك العلم من النظام الالهي وصلته بالقوانين الابدية التي جاء بها الكتاب العزيز وشرح أحكامها وبين تفاصيلها الرسول الامي ﷺ .

فلسنا بحاجة الى مدارس وكليات ومعاهد كمدارس الندوة وكليات عليكره ومعاهد ديوبند ، وانما نحن في حاجة الى مدارس جامعة لاتفرق بين العلوم الجديدة منها والقديمة وتلقن الطالب مباديء جميع العلوم المهمة بعدما تفرغها في قالب اسلامي وتصبغها بصبغة دينية . وبعدما يتخرج الطالب من التوجيهية أو الثانوية مثلا ، ينضم الى الفرع الذي يميل اليه

ويتخصص فيه. ولا يثقل كاهل كل واحد بأعباء العلوم كلها. وهذا القسم الذي يتخصص فيه الطالب يكون تابعاً للفكرة الاسلامية، مسخر لها ملائم لطبيعتها. لكن هذا العمل، عمل ادخال العلوم كلها في حوزة الدين وجعلها مذعنة بطبيعة الشريعة الالهية الخالدة، ليس بهين، وانما يتطلب ايماناً أصيلا محكما وعبقرية فكرية وجهوداً جبارة متواصلة متتابعة من أقطاب الفكر والروية في العالم الاسلامي.

هذا هو الحل الوحيد لمشاكل المنهاج التعليمي، وهذه هي الطريقة المثلى الجديرة بالاتباع، اذا أردنا اقامة الدين من جديد وبسط سلطان الاسلام - لا المسلمين فقط - على وجه الأرض في هذا العصر. وانما أردنا أن نقول هذا كله للذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويعتقدون الاسلام هو دين الانسانية، وأنه هو الدين الخالد والنظام الشامل المرضي عند الله ورسوله المتبع الغالب الى يوم القيامة. أما الذين يريدون اقتفاء آثار الغرب وتتبع معالمه في نظم الحكم والاصلاح الاقتصادي وفي السلم والحرب ويرون أن الدين صلة بين العبد وربه فحسب، فلا كلام لنا معهم عسى الله أن يهديهم وينبههم من غفلتهم.

شبلي النعماني :

ذكرنا النهضة الفكرية التي حصلت بعد الثورة وما كان لمناهج التعليم الثلاثة من تأثير في تغيير مجرى الأفكار، وتكوين مناهج مختلفة في النظر والرأي.

ومن البين الظاهر أن شجرة هذه النهضة ما أثمرت وآتت أكلها

الا بعدما سعى لها عدد غير قليل من اقطاب الأمة وعيون رجالها ، لايمكن تسمية كل واحد منهم بأعيانهم في هذا المقام . ولكننا ما ننس ، لاننس عالم الهند وعالمها المغفور له العلامة المحقق شبلي [1] النعماني . فان للمرحوم خدمات جليلة مشكورة في سبيل انهاض المسلمين من كبوتهم وتثقيف عقول الناشئة ونشر معارف الاسلام والدفاع عن حظيرة الدين . وكذلك هو الذي تعهد دار العلوم التابعة لندوة العلماء من اول يومها ونشأهـا احسن تنشئة وغذاها بعلمه وقلمه ولسانه . وهو الذي بث فكرة الاعتدال والجمع بين القديم والجديد وعممها بمجلة « الندوة » الشهرية التي كان يحررها بنفسه . ولعل العارفين من قراء العربية يتذكرون دفاعه المجيد عن الاسلام والعرب وانتقاده الجريء النزيه لكتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » الذي الفه الكاتب القصصي المسيحي جرجي زيدان .

---

(١) ومما لابد من الاشارة اليه ان المرحوم اخذ العلم عن شيوخ زمنه على المنهاج القديم، ثم صحب (سيد احمد خان) وعين استاذاً للعربية والفارسية في كلية (عليكره) ، حتى تأثر بأفكاره واخذ الناس يريبهم بعض آرائه ، ثم تطورت أفكاره وانفصل عن كلية (عليكره) واصبح في اواخر ايام حياته من العلماء الراسخين المتنورين . ومن غريب المصادفة ان مولده كان عام الثورة – سنة ١٨٥٧/١٢٨٣ هـ ، وتوفي سنة ١٩١٤/١٣٣٣ هـ في بدء الحرب العالمية الاولى .

الفصل السادس

المفكرون الجدد

قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها

بسم الله الرحمن الرحيم

نصيب السلفية في الهند

ذكرنا أكثر الآراء والافكار الدينية التي وجدت سبيلا الى قلوب العلماء في الهند منـــذ استضاءت أرجاؤها بأنوار الدين المبين ، لكن فاتنا ان نشير الى شيء مهم في هذا الباب . وهــــو ان علماء الهند قديماً وحديثاً الا من رحم ربك ، ما كانوا يعرفون شـيئاً من مصنفات الائمة الاعلام المحققين امثـال الامام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) وتلميذه ابن القـــيم (ت ٧٥١ هـ) ومن نحا نحوهما من علماء السلف كمحمد بن اسماعيل الامير اليمني (ت سنة ١١٨٣ هـ) ومحمد بن علي الشـوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في المتأخرين . وكل ماجاءهم من خبر ابن تيمية وآرائه وأفكاره انما جـاءهم بواسطة الشيخ احمد حجر المكي[1] (ت ٩٧٤ هـ) الذي ما اطلع على كتب الشيـخ بنفسه ، وانما كتب عنها حسب ماروي له ، كما قال بعض العلماء . والأمر أشهر من قفا نبك !

فكان من دأب علمـائنا وديدنهم ان يطيلوا لسـان القدح في ابن تيمية ومن على شاكلته من الائمة الاعلام . ولم يخل من هذه المعرة الانزر

---

(١) من شاء القول الفصل في هذا الباب ، فليراجـــع (جلاء العينين في المحاكمة بين الاحمدين) لخير الدين نعمان الالوسي .

قليل ممن اغترفوا من بحر علوم الامام ولي الله . وهذه مصنفات مشايخنا وفقهائنا مشحونة بمطاعن في شيخ الاسلام ، تنم على قلة علمهم وعدم الاطلاع على مصنفات الشيخ وتلاميذه .

ومن أعجب ما كتب في هذا الباب ماجاء في كتاب سوط الرحمان للمولوي فضل رسول البدايوني (ت سنة ١٢٩٧ هـ) امام المبتدعة والقبوريين في الهند :

« كان داوود الظاهري من أتباع الشيطان ، ثم ظهر ابن حزم الظاهري الذي كان خبيثاً ، ثم جاء تلميذه ابن القيم (كذا) وابن تيمية ، تلميذ (؟) ابن القيم ...

وكان أصحابه أشراراً جهلاء .

فهل لناقد مجال للقول في هذه اللآلي « الغالية » من عقد التحقيق البليغ ؟ ولم يكن البدايوني هذا بدعاً من علماء الهند ، وانما جاء على غرار مشايخه وأسلافه . وكذلك كتب عالم كبير من علماء لكهنو في الرد على أحد معاصريه من العلماء الاعلام .

« لاتذكروا الشوكاني في الفقه . وانما كان أديباً [١] »

ابو الكلام احمد المولود سنة ١٨٨٨/١٠٣٥

نحن الآن في مفتتح القرن الرابع عشر للهجرة او في بدء العقد الثاني من القرن العشرين الميلادي ، والعالم الاسلامي يومئذ مهدد بالخطر من جميع أطرافه هاهي غيوم متلبدة في جو مراكش النائية وهناك

---

(١) راجع (تذكرة) لأبي الكلام ص ٢٢٨ - ٢٢٦

سحب من الدماء متكاثفة تكاد تقطر على حصون أدرنه وسهول طرابلس الغرب ، وههنا في الهند ، في داخل البلاد شارع [1] من الشوارع العامرة متعطش الى دماء المسلمين — هذا من الناحية السياسية .

اما الناحية الدينية فقد تقدم لنا الكلام في شأنها بتفصيل وقد عرفت آنفاً ما كان عليه مشايخ الهند من العلم وسعة المعرفة (!!) ولاننكر ان الامام العارف بالله الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي وأنجاله وتلاميذه وتلاميذهم قد نشروا المعارف ، معارف الكتاب والسنة ونوروا البلاد بأضواء العلم الصحيح والفكرة السليمة ، الا ان سحب الجهل المتراكمة وأغشية الظلام المتلبدة منذ قرون ما كانت لتنقشع في يوم او يومين .

في مثل هذه الحال وفي مثل تلك الظروف برز الى ميدان العمل شاب ألمعي متوقد القريحة ، متنور الفكر ، مشبع بروح القرآن والسنة النبوية ، متحمس في العمل بالغ الغاية في الكتابة ، مستول على الأمد في الخطابة — خاض غمار المعترك ، وهو شاب لم يتجاوز عمره بضعاً وعشرين

---

(١) اشارة الى حادث عظيم وقع سنة ١٩١٣ في بلدة (كان بور) من المدن الكبيرة في الأيالات المتحدة (U. P.) حيث هدم جزء من أحد الجوامع الكبيرة ليستقيم شارع من شوارعها ويزول مابه من عوج . ولما أراد المسلمون ، شبانهم وشيوخهم وصبيانهم ، أن يبنوا الجزء المتهدم من الجامع من جديد أطلقت عليهم النيران من غير هوادة ولارفق ، فاستشهد مئات من أبرياء المسلمين وكان مشهداً جللا وكارثة فاجعة ، كان لها مابعدها في تاريخ سلمي الهند .

سنة وأصدر صحيفة « الهلال »[1] الاسبوعية التي كانت فاتحة عهد جديد في تاريخ الصحف المسلمة الهندية . طلع الهلال من سماء شرقي الهند المتلبدة بغيوم الحوادث الخطيرة ، وما ان مضت عليه أيام حتي أصبح بدراً متلألئاً ينور القلوب ويثلج الصدور بأشعته القدسية المقتبسة من مشكاة الكتاب والسنة ، ثم تحول هذا البدر المتلألىء شهاباً ثاقباً ينقض على رؤوس الاستعمار والنفاق والزندقة والالحاد نعم ! لم تمض على ظهور الهلال الا اسابيع عديدة حتى بدأت الاحوال تتبدل وجعل العلماء يتنبهون من غفلتهم والمتعلمون يفيقون من سكرتهم وأحست الامة بأسرها بنفحة من الحياة تسري في جسمها .

وكذلك الحكومة ما كانت لتبقي نائمة فوقفت للحركة الجديدة بالمرصاد وجعلت تتربص بها الدوائر .

طلع الهلال وصاحبه شاب لايعرفه أحد ، وما ان اطلعت الامة على أفكاره ودعوته القرآنية ،حتى لقبته بامام الهند، دينا وامام الاحرار سياسة — ألا وذاك الشاب هو احمد بن خير الدين الشهير بأبي الكلام ، الذي نفخ في قلوب الامة روح الحياة وقادها الى ميادين الجهاد والكفاح، في حركة عظيمة وجهود جبارة متواصلة مما لا يتسع المقام للافاضة فيه . والذي يعنينا في هذا المقام من اعماله بوجه خاص هو الناحية الدينية وتجديد الدعوة الى الدين الخالص . وكذلك لايثنينا عن اعطائه مايستحقه من الشكر والاعتراف بالجميل والثناء على أعماله الخالدة ودعوته المباركة، ماطرأ

---

(١) ظهر أول عدد من « الهلال » في يوليو سنة ١٩١٢ الميلادية .

عليه من تقلب وما ظهر من تبـــدل في أفكاره وما كان من جنوحه الى الهنادك في السنين الاخيرة ، فان لكل مقامه في التاريخ والتـالي لايمحو ماتقدم وسبق .

فلاجرم ان دعوة الهلال كانت دعوة قرآنية خالصة وفتحاً جديداً في تاريخ الهند الديني . دعا عامة المسلمين الى الاعتصام بالكتاب العزيز والسنة النبوية والرجوع اليهما في كل مايعترضهم من مسائل ومشاكل دينية كانت أو سياسية ، على حسب الاصطلاح الشائع .

فان المسلمين لايصلح أمرهم في هذا الزمان ، الا بما صلـح به في زمن الصحابة والتابعين . ودعا العلماء والمشايخ الى الامعان في كتاب الله العزيز واستخراج درره ولآلئه وابرازها للناس وأهاب بالمتعلمين الجدد ان لاتغرنهم مموهات الافرنج وأباطيلهم وان يعطوا كتاب الله حقــــه من العناية ويعكفوا على دراسته وتدبر آياته ومعانيه ويثابروا عليها ... الى غير ذلك مما كان ينشر على صفحات الهلال الأغر من معارف الكتاب العزيز ونفائس أسراره بقلمه المعجز البليـغ واسـلوبه البديـع الانيق . فأدرك الناس خاصتهم وعامتهم ، ان كتاب الله جدير بالدرس والتأمل ؛ وان فيه من غرر الحكم وبدائع المعـاني مالايوجد في كتاب مجموع بين دفتين على وجه الارض .

وكان من عادة صاحب « الهلال » الزاهر في مقالاته ان لايبدأها الا بآي من الذكر الحكيم ، وقد جعل كتاب الله شعاره وعنوان بيانه ، وتبعه في ذلك ، كما اتبعه في اسلوبه الفذ المبتكر ، كثير من الزعماء والعلماء

والكتاب ، وان لم يرزقوا النجاح الا قليلًا . وأعانه على نجاح دعوته « قلمه السيال بالفوائد وطبعه الريان من اللغة وبراعة الاسلوب ومنطقه السديد الذي لم يقارع به خصمامها علاكعبه ، الا أفحمه وألزمه »

ومانسى ، لاننسى ، كتابه الخالد الممتع (تذكر) الذي كشف فيه عن عورات علماء السوء واماط اللثام عن جهلهم وتهافتهم على حطام الدنيا الدنيئة وحيلهم ومكايدهم التي أبدعوها وتفننوا فيها . وذكر غفلتهم عن واجبهم وتأييدهم الباطل في عصر الملك (أكبر) ، العصر الذي تنكرت فيه وجوه الامراء والاعيان للدين الحنيف ، كما تقدم بتفصيل . ثم تطرق الى التنويه بأعمال السلف وجهادهم في سبيل الحق ، فأشاد بجهاد امام اهل السنة احمد بن محمد حنبل (ت سنة ٢٤٦ هـ) وسمو منزلته وجلالة قدره وعظم شأنه . وكذلك بين منزلة شيخ الاسلام ابن تيمية ومواقفه المشهودة وجهاده المشكور لاعلاء كلمة الدين ، وصرح لاول مرة في تاريخ الهند الديني ان تعصب العلماء الجامدين على شيخ الاسلام ومطاعنهم في شخصه وعقيدته ، لم تكن الا عن قلة العلم وعدم الاطلاع على مصنفاته وأفكاره . وكل ذلك بلهجة قارعة محرجة متحدية مستفيضة من معين الذكر الحكيم ، لم يقرأها أحد الا طأطأ رأسه امام بلاغته وبراعة اسلوبه واستسلم لدعوته وأذعن لحججه وبراهينه . وعلى غرار ذلك بين مكانة الائمة المتجددين في الهند ونوه بمآثرهم وجلائل اعمالهم ومنازلهم في العلم والدعوة والتجديد امثال المجدد السرهندي والامام ولي الله الدهلوي وحفيده اسماعيل الشهيد .

وجملة القول أنه هو الذي سن للناس سنة التفكير في الكتاب العزيز وبين لهم مزايا العلم الصحيح الخالص من شوائب الجمود والتقليد ونوه بجملة السنة الصحيحة من المتقدمين والمتأخرين وأشاد بذكرهم . فأخذت السلفية الصحيحة – لا التقليدية العمياء – من قلوب المسلمين وصفوة مختارة من علمائهم وحلت منها محلها اللائق بها .

الدكتور محمد اقبال ١٢٨٩ – ١٣٥٧ هـ – ١٨٧٣ – ١٩٣٨ م

نشأ محمد اقبال ونبغ في نفس العصر الذي نشأ فيه ابو الكلام . ولكل منهما يد في النهضة الجديدة وبعث الحمية الدينية من مرقدها وانهاض النخوة الاسلامية من كبوتها ، واليهما يرجع الفضل ، بعد فضل الله وتوفيقه ، في تكوين روح اليقظة الحديثة التي عمت وشملت جميع طبقات الامة وساعدت العاملين وشحذت عزائمهم وحفزت هممهم للقيام بحركات دينية قوية سمع دويها في سائر أرجاء العالم . لكنهما نشآ في بيئتين مختلفتين وعملا في حقلين متعارضين ، ربما لم يجتمعا في ناد ولم يجمعهما الجهاد في صف واحد .

درس محمد اقبال في كلية من الكليات العصرية وتخرج فيها . ثم سافر الى اوربا ودرس في كمبردج وبرلين ونال شهادة الدكتوراه في الفلسفة وتعاطي المحاماة بعد الرجوع مدة من الزمن ثم تركها لما بين قريحته الشاعرة وطبعه الريان من الحكمة وبين المحاماة العصرية من منافاة .

اشتهر صاحبنا بقرض الشعر وهو في مقتبل الشباب . وكان في أول عهده بالشعر شاعراً مطبوعاً يميل الى الوطنية ، يتألم لما يرى بعينه من سوء حال وطنه وبني جلدته ويبكي دما على ما آلت اليه حال البلاد في

مفتتح القرن العشرين من تفرق الكلمة وتشتت الحال . ولما سافر الى اوربا سنة ١٩٠٥ وأقام بها ثلاث سنين وشاهد خلالها المدنية الغربية عن كثب وأطلع على سوآتها ومافيها من تمويه وبريق كاذب ، تنبه فيه الشعور الاسلامي الكامن وتحولت طبيعته الشاعرة من حمى الوطن الضيق الى كنف الاسلام الرحيب الواسع .

والذي أثر فيه بوجه خاص وجعله يتلهف أسى وحسرة على ذلك ، ما كان يشاهده صباح مساء هنالك في لندن وبرلين من افتتان الشبيبة المسلمة النازحة عن أوطانها بالغرب ومظاهره الخلابة وما يلاحظه من انخداعهم بدعايته الكاذبة الملفقة . وكذلك تأثرت نفسه الشاعرة بما اطلعت على ما يحاك من الدسائس وما يدبر من المؤامرات في العواصم الاوربية للمسلمين وأوطانهم وبما لكم . وجملة القول أن محمد اقبال عاد من اوربا بعد ثلاث سنين شاعراً مسلماً يتوقد غيرة على الاسلام ومصير المسلمين ويعطف على أبناء الاسلام في سائر أنحاء المعمورة يخطب ودهم ويشيد بذكرهم وينوه بمآثرهم .

هذا ، ويبتديء جهاده الموفق المبرور بعد رجوعه من أوربا اذ شرع يبث أفكاره وآراءه الناضجة الحكيمة ، مفرغة في قالب الشعر البليغ المعجز ، فقد نشر دواوين عديدة باللغتين الفارسية والاردية ، ضمنها آراءه في السياسة العالمية والحضارة الغربية ودسائس الاوربيين ومكايدهم . وكذلك أهاب بالمسلمين وحثهم على الاستمساك بعروة الدين المبين ، وعدم الانخداع بأباطيل الغرب المموهة . كل ذلك جعله أساس

دعوته والقطب الذي تدور رحاها حوله . والذي ساعده على ذلك وحبب اليه دعوته الى الشبيبة الناشئة هو ارتواؤه من معين الغرب وتمكنه من الفلسفة الجديدة وتضلعه منها مضافاً الى عقيدته المحكمة الراسخة وتفننه في القول المنظوم تفنناً يبلغ حد الاعجاز .

ثابر محمد اقبال على دعوته وجهاده ثلاثين سنة متتابعة ، شاهد خلالها بأم عينه ثمرات أعماله ونتائج دعوته المشكورة ، فان مئات من المثقفين الجدد ، ممن تخرجوا في أوربا ، كادوا يزيغون عن جادة الحق ويضلون سواء السبيل ، لولا شعر محمد اقبال وافتتانهم ببلاغته وحكمه الخالدة . فالذين لم يؤثر فيهم مواعظ المشايخ ومقالات المحققين من العلماء ، والذين ما كانوا ليلتفتوا الى دعوة المصلحين من الزعماء لاغترارهم بأباطيل الغرب وولوعهم بزخارفه .

كثيراً ما اتفقت لهم أن يردوا عن شعره الصافي ويرتشفوا من مناهله العذبة ، فيتأثروا بآرائه وأفكاره من حيث لا يشعرون . وهنالك رجال لا يقنعهم مافي كتاب الله وسنة رسوله الكريم ، الا اذا أفرغ في قالب من الحكمة أو ورد بما يؤيده من ثمرات عقول الفلاسفة والمتكلمين فأمثال هؤلاء الرجال اذا قرأوا مقالات محمد اقبال الفلسفية وأفكاره الحصيفة الناضجة ، اقتنعت بها عقولهم وأطمأنت بها قلوبهم وسكنت اليها خواطرهم . وكذلك انتفع بشعره وكتاباته وآرائه الحكيمة جماعة من الناشئة الجديدة لا تحسن الظن بالمشايخ والفقهاء ، فلا تقبل منهم شيئاً ولا تثق بشيء مما يأتون به من أوامر الشرع ، وذلك لمرض في قلوبهم

وانخداعهم بالحضارة الغربية واغترارهم بزخرفتها الكاذبة وتكالبهم على حياتهم المادية الفاتنة - انتفعت هذه الجماعة وأمثالها بشعر اقبال وآرائه الحكيمة فاهتدت واقتربت من الاسلام بعدما نفرت عنه وتباعدت . وذلك أنهم ما كان في مكنتهم ان يتهموا محمد اقبال في آرائه الدينية وعقيدته الراسخة ودعوته المباركة أو يرموه بالجمود والرجعية أو بعدم الاطلاع على مقتضيات العصر ومطالبه المتشعبة .

فان صاحبنا كان من خيرة من أنجبتهم الجامعات العصرية في بلادنا ، وله المحل الاسمى في الاوساط العلمية الاوربية ، ولآرائه الفلسفية ونظرياته في الحكمة المقام الارفع بين المشتغلين بالفلسفة في بلادنا .

وللدكتور محمد اقبال آراء اخرى طريفة في سياسة البلاد ونظريات مبتكرة كانت تعد بدعاً من أخوتها حين ابداها لأول مرة قبل عشرين سنة ، الا ان ماجريات السياسة أيدت فكرته وتقلبات الحوادث اكثرت من أنصارها ، والايام أثبتت ان شاعرنا كان محقاً في ما ارتأى وتفكر ، وان نبوءته كانت صادقة . فانه أول من بدا له تأسيس دولة مسلمة في الناحية الشمالية الغربية من الهند . وقد أظهر هذا الرأي بادىء ذي بدء في مؤتمر الرابطة الاسلامية سنة ١٩٢٩ الميلادية .

وهذا الرأي ، وان ظهر للناس غريباً اذ ذاك ، وقد سخر منه الناس واستهزأت به الصحف جميعاً ، قد عاد فكرة ثابتة بعد سنين عديدة وهذا الحلم الذي رأته نفس اقبال الشاعرة ، قد تحقق بعد ثمانية عشر عاماً من رؤياه . وله مواقف اخرى مشهودة في ميدان السياسة ، ليس من

موضوعنا الافاضة فيها والاحاطة بتفاصيلها . وانما استطردنا الى ذكر ماتقدم من « تنبؤه السياسي » لأهميتها وخطورتها ، وعسى ان يكون ذلك عذراً عند من يلومنا على الخروج عن دائرة البحث .

ولصاحبنا مأثرة جليلة أخرى في باب الدعوة الدينية والدفاع عن حرمة الدين المبين ، لاتنسى أبد الدهر . ولو لم يكن من أعمـــاله الجليلة الخالدة الا هذه المأثرة العظيمة لكفته فخراً في الدنيا وذخراً في الآخرة . ألا ، وهو موقفه الجليل المشهود بازاء النحلة [1] القاديانية الضالة المضلة في في السنين الأخيرة من حياته . وبيان ذلك أن هذه الطائفة الضالة التي رباها الاستعمار في مهده وغذاها بلبان مكره ودهائه ، استفحل أمرها وتفاقم خطبها بعد الثلاثين من السنة الميلادية ـ أى قبل عشرين سنة ـ لتدخلها في السياسة وأخذ الاستعمار بناصرها وتشجيعه اياهـا على تبوؤ المناصب العالية من الحـكم والقضاء في جانب ، وانحراف الشبيبة المثقفة الجديدة عن الدين ونفورهم عن العلماء والمشايخ وأرباب الفتيا في هذه الديار في جانب آخر . فـكان من نتائجه السيئة أن المتعلمين الجدد المتخرجين في الجامعات العصرية

---

(١) النحلة المعروفة في الهند باسم القاديانية نسبة الى الكذاب غلام احمد القادياني الذي ادعى النبوة ، وظهر أمره في الثلث الاخير من القرن الغابر . ووافاه الاجل المحتوم سنة ١٩٠٨ الميلادية . وانما ذاع صيته واشتهر أمر نحلته الكاذبة لتأييده للاستعمار البريطاني وتشجيع السلطة الغاشمة له ولاتباعه ولولا مساعدة السلطة البريطانية لاتباع القادياني ، لانعدموا قبل ان يستفحل امرهم . و (قاديان) اسم قرية من قرى (بنجـاب) ، ولد فيها الكذاب وبها قبره .

الذين لم يدرسوا الدين ولم يعرفوا منه الا كما تعرفه عجائز القرية بـدأوا لايخلطون بين الاسلام والقاديانية وشرعوا ينظرون اليها بعين واحـدة . واذا قال لهم أحد من العلماء أو المنتمين الى الدين باجتناب شرور هـــذه الطائفة الخبيثة اوحذرهم عواقب الاتصال بها ما اكترثوا لقوله ، بل قالوا: « هذا من جمود العلماء ، وفي دين الله متسع للجميع » .

وضغت على ابالة ان بعض المثقفين المتنورين من زعماء الهنادك جعلوا يزعمون ان الحركة الجبارة التي اثارتها الجمعيات الدينية في مقاطعة (بنجاب) لفصل القاديانية عن المسلمين في دواوين الحكومة وسجل الاحصاء الرسمي ، انما هي حركة رجعية ، وان القاديانية طائفة متنورة من المسلمين تدعو الى الاصلاح والرقي والاخذ بأسباب الحضارة ، حتى ان الزعيم (جواهر لال نهرو) كتب مقالتين في « المجلة العصـــرية (Modern Review) — احدى كبريات مجلات الهنـــادك باللغة الانكليزية — ينكر فيها على الجمعيات المسلمة الدينية هذه الحركة ويؤيد جانب القاديانية في مثل هـــذه الحال ، في السنين الاولى من العقد الرابع من السنة الميلادية ، انـبرى المسلم المؤمن محمد اقبال للدفاع عن حظيرة الاسلام ورد كيد القاديانية في نحورها وتطهيرها على حسب تعبير الشاعر الحكيم نفسه — الدين المبين من ارجاسها وأدناسها . فنشر تصريحات عديدة في الصحف ، بين فيها موقف الاسلام بازاء هذه النحلة المارقة التي تؤمن بنبوة الغلام القادياني الكذاب،

---

(١) نشرت هذه المقالة في رسالة مستقلة أسماها « الاسلام والاحمدية » (Islam and Ahmadism) وزعت منها ألوف من النسخ بالانكليزية والاردية .

وكشف عن عورات القاديانيين وأماط اللثام عن خدماتهم للاستعمار البريطاني وتمسكهم بأذياله ، وان ننسى ، لاننسى مقالته القيمة الحكيمة التي دبجتها براعته البليغة رداً على الزعيم (جواهر لال نهرو) في مزاعمه عن هذه النحلة المارقة وتفنيداً لتعاليم القاديانية الكاذبة وتبيينا للحقائق الغامضة المستورة في هذا الباب .

ولعمر الحق ان مقالته تلك كانت فريدة في الموضوع وآية في سطوع الحجة ووضوح البرهان ، فكانت قاصمة لظهور دعاة القاديانية وكاشفة عن فضائحهم ودسائسهم . وما ان ظهرت مقالاته وتصريحاته المتتابعة حتى انكشف الحق للذين كانوا في شك مني امرهم وتجلى الصبح لكل ذي عينين وعاد الشبان المثقفون « المتجددون » ينظرون الى الفئة المارقة بعين الريبة والحذر وادركوا ان هؤلاء القوم مطية للاستعمار وخطر على الاسلام والمسلمين في هذه البلاد . وذلك لايمانهم بعلم اقبال وتأثرهم بشعره وحكمته وعلمهم بأنه ليس من المشايخ والفقهاء الجامدين .

ومن مزايا محمد اقبال ومآثره في هذا الباب انه ما اقتنع بنشر المقالات واذاعة التصريحات فحسب ، بل حمل عليهم حملة شعواء من جهات عديدة . منها انه اصر على ان لا يقبل احد منهم عضواً في جمعية من جمعيات المسلمين . وبدأ في ذلك بجمعية « حماية اسلام[1] » الكبيرة في لاهور التي كان صاحبنا رئيساً لها . فاستقال منها محتجاً على انضمام القاديانيين اليها .

---

(١) جمعية تعليمية ثقافية مضى على تأسيسها اكثر من خمسين سنة ، ولها مدارس عديدة وكلية كبيرة وصحيفة ودار للطبع والنشر .

ومازال ثابتاً على استقالته ثلاثة اشهر حتي « تطهرت » الجمعية وفروعها المتشعبة وكلياتها ومدارسها من كل من ينتمي الى تلك الطائفة المارقة . وكان لعملية « التطهير » هذه ضجة عظيمة في الاوساط المسلمة ، وكذلك حسبت لها الحكومة الف حساب .

ومن تصلبه في باب القاديانية أنه لم يفرق بين الطائفتين القاديانية والاحمدية اللاهورية وأصر على تطهير دوائر جمعية (حماية اسلام) من كلتا الطائفتين ، وقد أصاب في ذلك وأحسن . أجزل الله مثوبته في الدارين . وهذه حسنة من حسناته جديرة بأن تكتب بماء الذهب وتدون في سجل الخلود ، فان كثيراً من المتسمين بالتجدد والتعليم العصري لايشددون في أمر الاحمدية اللاهورية التي تقول بأن غلام أحمد الكذاب لم يكن نبياً ، وانما كان « المسيح الموعود » ظهر في صورة المجدد « وأن الوحي لم ينقطع بمحمد ﷺ » و « أن الله يكلم الصالحين من عباده الى هذا اليوم » كما كان يكلم الكذاب غلام أحمد ونزل عليه الوحي وأن .. وأن الخ » لايشددون في أمرهم زعما منهم أن هؤلاء لا يقولون بنبوة الغلام القادياني ولا يكفرون من لم يؤمن بنبوة الكذاب . والحال ان اللاهوريين هؤلاء أشد من القاديانيين الخلص الذين يؤمنون بنبوته ويكفرون من لايؤمن به ضرراً بالاسلام واكثر بلاء لاهله . ومن لابسهم وخالطهم عرف سرائرهم وخبيآتهم . ولسنا الان بصدد البحث في القاديانية وتفنيد مزاعمها وأباطيلها حتي نتناول المسألة بالشرح والتفصيل .

وانما استطردنا الى ذكر ما تقدم تبيينا لموقف محمد اقبال الحاسم

المحمود بازائهم وتنويهـــاً بجهاده المشكور في كبح جماحهم والقضاء على غوايتهم .

هذا جهاد شاعر الشرق وحكيم الاسلام في سبيل الحق ، وهذه نتف من مساعيه في القضاءعلى فتنة القاديانيه وشرورها . وقد رزق نجاحاً عظيما في كل ذلك بفضل من الله وتوفيق من عنده ، حتى ان الناس أيقنوا أن النحلة المارقة أخذت في الانقراض وبدأ طالعهـا النحس يجنح الى الأفول . الا أن الاحوال قد تغيرت بعد الاستقلال وتطلعت رؤوس الشياطين من مناصب الحكم وآفاق الامر من جديد . ومن لي بأخبار محمد اقبال ، المسلم المؤمن في مثواه ان أتباعه والمتغنين بفكرته وأناشيده من ولاة (باكستان) وأولي الامر فيها ، قد عادوا يشجعون تلك الفئة المارقة على أعمالها الضالة المضلة ويبوأون أتباعهـا أعلى المناصب في الحكم وينيطون بهم مقاليد الوزارات وتسيير دفة المملكة ! أعاذنا الله من الحور بعد الكور والفسوق بعد الايمان .

الفصل السابع

الحركات السياسيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تأثير الحركات السياسية

قد مضى على المسلمين بعد الثورة الكبرى - أي ثورة سنة ١٨٥٧ الميلادية - حين من الزمن تنكرت فيه وجوه الوجهاء للدين الحنيف ، فما كان « المتجددون » والمتعلمون والاغنياء المتزلفون للحكومة ليتدينوا ويعيشوا عيشة المؤمنين المحافظين على صلواتهم وشعائرهم بحال من الاحوال حتى أثمرت حركة ندوة العلماء وبدأت طائفة من المتعلمين تميل الى الدين وتمد يد المصافحة الى العلماء . ثم كان لأبي الكلام وصحيفته ما كان من التأثير العظيم في احداث انقلاب عام وتكوين فكرة دينية وجنوح جمهور الامة الى التمسك بأهداب الشريعة الى ان طارت شرارة الحرب في طرابلس الغرب وولايات بلقان ، ثم انفجر بركان الحرب العالمية الاولى، فقامت في البلاد حركات سياسية دينية أقامت الحكومة وأقعدتها . ولما كانت هذه الحركات كلها منشقة نبعتها من عاطفة الاخوة الدينية والوحدة الاسلامية ، مالت قلوب المتعلمين والمتجددين الذين كانوا في طليعة القائمين بالحركة ، طبعاً الى الدين وامتثال أوامره واختيار منهاج الحياة الذي تتطلبه الشريعة الاسلامية . فنشأ منهم رجال بلغوا الغاية في التحمس الديني وفاقوا أقرانهم من العلماء في الحمية الدينية - والدفاع عن شعائر الاسلام .

أمثال المغفور له مولانا محمد علي (ت١٣٤٨/١٩٣٠) الزعيم الشهير ومولانا مظهر الحق ومن نحا نحوهما من الزعماء .

ثم لم تمض على الحرب عشية او ضحاها ، حتى ظهرت حركة (الخلافة) الجبارة ، مساعدة للاتراك حملة لواء الخلافة وقتئذ وخروجاً على بريطانية التي وعدت رعاياها المسلمين وعوداً كاذبة خلال الحرب وعللتهم بالآمال والاماني المعسولة . وكانت حركة دينية بحتة أثارتها الغيرة على مقام الخلافة والحرص على تطهير البلاد المقدسة من نفوذ الاجانب ، شرعوا فيها حسب ما أفتى به العلماء في مؤتمر عظيم لهم عقدوه خاصاً لهذا الغرض ، حضره خمسمائة عالم من شتى أنحاء البلاد . فارتفعت مكانة العلماء ونزل الزعماء السياسيون المتخرجون في جامعات أوربة عند ارادتهم واهتدوا بهديهم وائتمروا بأوامرهم . وكذلك اقتفى اثرهم المحامون والدكاترة من حجاج لندن وباريس في الزي وأدوات المعيشة وأساليب الدراسة . فتغيرت الازياء وطرق المعيشة واستبدلت الازياء الهندية بالملابس الافرنجية وتبدلت مناهج التفكير وعادوا ينظرون الى الكتاب والسنة مصدراً للدستور والقانون ، ومصباحاً يستنيرون به في ظلمات العصر الحالكة ومناراً يسترشدون به اذا أشكل عليهم الامر وعميت عليهم الطريق .

ومما ساعد على تحسن الحال الدينية واحترام الجمهور لشعائر الدين ورغب الخاصة والمتعلمين في الرجوع الى حظيرة الشريعة الغراء والاقتطاف من ثمرات التعليم الديني ، مشاركة العلماء اياهم في ميدان السياسة وتقدم

جمعيتهم الكبيرة « جمعية العلماء » الى حقل الكفاح السياسي . وكذلك تقدمت العلماء خطوة أخرى في الهند الشرقية بأن أسسوا جمعية الامارة الشرعية في مقاطعة (بهار) ونصبوا لهم ، أميراً شرعياً في تلك المقاطعة يتولى أمورهم ويقوم على مصالحهم الدينية من جمع أموال الزكاة وفصل الخصومات وفسخ العقود والدعوة والارشاد الى غيرها من الامور التي تمكنوا من القدرة عليها في النطاق المحدود المضروب عليهم تحت سلطة أجنبية مالكة لأزمة الأمور فحدث بذلك انقلاب عام في حال البلاد الدينية وانقادت الخاصة والعامة لارشادات العلماء في كل مايعرض لهم من مشاكل الحياة ومسائلها .

تبدل الفضاء وأسبابه

فمما لايختلف فيه اثنان ان الحال الدينية في هذه الاقطار قد تحسنت بعد الحرب العالمية الاولى وحدث انقلاب ملموس في عقائدالجمهور وطرق تفكيرهم في المسائل ، الا ان هذا التحول والانقلاب لم يبق طويلا فانه مالبث ان هدأت البلاد وانخمدت نيران الحركات السياسية المتأججة حتى هبت رياح الخمول على النشاط الديني ايضاً وبدأ المتجددون من المتعلمين يعودون الى سيرتهم الاولى ، فنكص من نكص وثبت من ثبت على طريق الحق .

ولله في خلقه شؤون لايدرك سرها الا الراسخون في العلم . وعلى كل فان البلاد في سنتي ١٩٢٣ و ١٩٢٤ ، كانت أحسن ديناً وأمتن خلقاً وأقوى عملاً وأملاً مما كانت عليه في السنين التي سبقت الحرب .

ولكنه لم يمض على ذلك زمن حتى انقلبت الحال ظهرا لبطن وبدأ النفوذ الديني يفقد تأثيره في قلوب المسلمين وشرع المتجددون في حركات متواصلة متتابعة للقضاء على الحمية الدينية ، ونجحت على أثرها فتن وشرور وطلعت رؤوس الفساد والفوضى من كل حدب وصوب الى ان أصبح الاستهزاء بالدين وحملته شيئاً عادياً ونشأت طائفة من المتعلمين لاتقبل سنة الرسول ﷺ حجة شرعية ولاتذعن لها ، تخليصاً لأنفسهم من تبعه الأوامر والواجبات المفصلة في كتب الحديث الصحيحة المضبوطة بدأ هذا التبدل السيء في حياة مسلمي الهند منذ سنة ١٩٢٤ الميلادية ، ومن دواعي الأسف ان هذا الانحطاط الديني الذي ظهرت اماراته قبل خمس وعشرين سنة ، مازال يعمل عمله ولم يبلغ قراره الى اليوم . وهذا التبدل المشؤوم وذلك التحول الممقوت ، له اسباب وعوامل ، نذكرها في مايلي على سبيل الايجاز ، ليكون القاريء على بصيرة من الامر .

الغاء نظام الخلافة في تركية :

لما بلغ أهل الهند ، المتحمسين لنصرة مقام الخلافة المجاهدين في سبيل المحافظة عليها ، خبر الغاء الخلافة ، سقط في أيديهم وكادت جماعة منهم مخلصة تفقد رشدها وتقع في حيرة من أمرها : ماذا عسى ان تفعل في مثل ذلك الموقف الحرج الذي لاناقة لها فيه ولاجمل . وبازاء تلك الفئة الصادقة المؤمنة — وعلى رأسها الزعيم الشهير دفين الحرم القدسي الشريف مولانا محمد علي رحمه الله — انبرت جماعة منهم للدفاع عن مصطفى كمال وأيدت زعيم الاتراك في صنيعته هذه وأعلنت في الصحف بأنه كان محقاً

في عمله وان نظام الحكم الجمهوري اللاديني (Secular) المتبع في أنقرة هو أقرب شيء الى نظام الحكم في الاسلام . ومن المبكيات الموجعات في هذا الصدد ان مولانا أبا الكلام هو الذي حمل بيده لواء هذه الطائفة ونشر مقالاً طويلاً بقلمه ، أيد فيه جانب الاتراك ونظام الحكم المتبع في أنقرة فكأنه سحب بذلك ذيل النسيان على مادبجته براعته في العشر سنين الماضية وماعاد اليه من احياء نظام الاسلام ووحدة المسلمين وانخراطهم في سلك واحد بقلمه ولسانه وعمله .

ثم بدأت الاخبار تترى بتجديد الاتراك واصلاحاتهم ، فاشتد بها ساعد الذين كانوا يجدون في أنفسهم على « الدين » وحملته في هذه البلاد وجعلوا يظهرون بين حين وآخر ان لاسبيل الى نهوض المسلمين الا القضاء على العلماء والمشايخ والسير على خطة الاتراك « المتجددين » .

ب ـ بدع أمان الله

ثم كان من أمر أمان الله ملك الافغان السابق ما كان من محاربة لشعائر الدين ودعوة الى السفور واتباع لأهل الغرب في مدينتهم وطرق معيشتهم ... فاتخذته تلك الفئة فرصة أخرى للطعن على العلماء والتنديد « بجهودهم ورجعيتهم » ونشبت معركة عظيمة على صفحات الجرائد بين الفريقين ، فريق من المحافظين ؛ ينكر على أمان الله تجديده المتحلل « وافتنانه بمظاهر الغرب وفريق من « المتجددين » يؤيد اعماله وما أتى به من « الاصلاحات » (!!) المنكرة في بلاده ، فذاق وبال أمره .

ج ـ قانون الزواج الباكر

واتفق في تلك الغصون ان الحكومة شرعت قانوناً [1] للزواج خاصاً أرادت به تحديد سن الزواج بان لا يكون عمر الفتى والفتـاة أقل أقل من ثمانية عشر وأربعة عشر عاماً على الترتيب . فاستنكر المسلمون هذا القانون وأعلنت جمعية العلماء بملء صوتها :

ان هذا القانون تدخل في شؤون المسلمين الدينية وقوانينهم الشخصية (Personal Low) ، وانه ماجاء شيء في الكتاب والسنة عن تحديد سن الزواج ، فلايرضى المسلمون الا ان يكون الاذن عـاماً والبـاب مفتوحاً على مصراعيه كما أبقاه الشارع ، مع أنهم لا يستحسنون الزواج الباكر ، وان هذه السوءة الشنيعة من تزويج الصبيات والاطفال لاتوجد في المسلمين أصلاً ، وان كان لها وجود في بعض الطبقات الجاهلية فهو نزر قليل جداً لايؤبه له ، وسيفنى عن قريب بمساعي الوعـــاظ والمرشدين » .

وما اكتفت الجمعية ببيان موقف المسلمين ازاء ذلك، بل خالفت القانون علناً وجاهدت في سبيل ذلك جهاداً عظيماً ،حتى لاتتجرأ الحكومة في المستقبل على التدخل في شؤون المسلمين الدينية ، فاغتنم الملاحـــدة والمتجددون من أذناب الاتراك ومطـايا الاستعمار هذه الفرصة للتعريض بالعلماء والزراية على المانعين لمثل هذا القانون والطعن الفاحش في الدين الذي يدعو الناس الى الرجعية والتقهقر بزعمهم .

---

(١) وذلك في سنة ١٩٢٩ الميلادية

غفلة العلماء

ومن أهم الاسباب التي أفضت الى هذا التدهور الديني والانحطاط الخلقي الذي لم يستقر قراره الى اليوم ، غفلة العلماء عن واجب الدعوة والارشاد وانقطاع جمعيتهم الكبيرة – جمعية العلماء – الممثلة لعلماء الهند كافة الى السياسة الوطنية والشؤون الوقتية المتجولة كل صباح ومساء وتهافت اعضائها والقائمين بأمرها على المناصب والمقاعد في الجمعيات السياسية المتشعبة المبثوثة في سائر أنحاء البلاد .

أما أنه هل نفع البلاد وأهلها انغماسهم في أوحال السياسة الوقتية وتزاحمهم للمتعلمين بالمناكب في حقل السياسة الوطنية ام لم ينفع ؟ فهذا مالم نسق الكلام لأجله في هذا المقام ، والمسألة فيها آراء متضاربة ولكل منها وجه ومتسع من الوقت .

والذي يهمنا في هذا الشأن ان غفلة العلماء عن واجب الدعوة والسعي للاصلاح الديني الحقيقي وعدم اكتراثهم لنزعات الالحاد والزندقة وقلة اهتمامهم بفريضة الدفاع عن حوزة الدين ، وقد أخذت بالدعوة الاسلامية ضرراً عظيماً ، فانها حرمت جهود العدد الكبير من حملتها المطلعين على مناهج سيرها وخطط تعميمها ونشرها ، لاشتغالهم وانصراف هممهم الى اعمال من دونها ، كانوا يعملون لها ويبذلون جهودهم في سبيلها .

الفصل الثامن

ظهور الإلحاد

بسم الله الرحمن الرحیم

الدعوة الى الالحاد وجحود الحديث النبوي
سنة ١٣٤٦ / ١٩٢٧ ، ومابعدها

كل ماذكر آنفاً من تبدل الفضاء والانحراف عن جادة الحق والسخرية من شعائر الدين انما كان تمهيداً لسبيل الالحاد وتوطئة لما كان يضمره بعض أعداء الدين من المتسمين بالاسلام من الكره والحقد للدين المبين . فما ان رأو الجو صالحاً والفضاء ملائماً لاهوائهم وقلوب الشبيبة المتعلمة مستعدة لقبول آرائهم الباطلة وأفكارهم الواهية ، حتى جاهروا بدعوتهم الكاذبة وبدأوا بانكار الخوارق من مولد السيد المسيح – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – من غير أب ووجود الخضر والتقام الحوت لنبي الله يونس وغيرها من أمثالها .

ثم لما أحست هذه الطائفة المارقة ان السنة الشريفة وكتب الحديث النبوي تحول دون أمانيهم وتعوقهم عن تحريف الآيات حسب مزاعمهم ، تجاسروا على انكار الحديث النبوي برمته . وقد بلغت الوقاحة من بعضهم ان جعل يسخر من الله تعالى شأنه في مقالاته وكتاباته . ومنهم من أداه اجتهاده الكاذب المشؤوم الى ان الصلوات المكتوبة ثلاث ، الى غيرها مما تخرصوا به من الاباطيل والخزعبلات .

ولا يحسبن القاريء ان هؤلاء الملاحدة كان لهم اي تأثير في الخاصة والعامة غير طلبة الكليات العصرية وطائفة من المتعلمين . وكذلك لا يظنن احد ان حماة الدين القويم واعلام الجهاد الاسلامي كانوا ساكتين عن الحق . وانما الامر بالعكس من ذلك ، فان اعلام الجهاد وحملة لواء الدفاع عن الاسلام وعلى رأسهم علم الهند وعالمها الاكبر الاستاذ المحقق العلامة السيد سليمان الندوي ونخبة من زملائه وتلاميذه - كانوا يرقبون الاحوال عن كثب ويردون عليهم ردوداً علمية بالغة الغاية في قوة البيان ونصوع البرهان ووضوح طريق الحق والصواب ، عسي ان تنفعهم وتردهم عن غوايتهم . وكذلك بالغوا في النصح لهم ولم يألوا جهداً في افهامهم بالقلم واللسان ، لكن الذين أشربت قلوبهم الكفر وحب اثارة الفتن ، ما أصاخوا الى نصائح هؤلاء الاعلام ولم يكترثوا لأقوالهم .

فأعلن السيد سليمان الندوي وزملاؤه بذلك في صحف الامة . وحاكموا اولئك المفسدين في الارض الى الرأي الاسلامي العام قائلين :

« ان هؤلاء الطغاة لايريدون الا بذر بذور الشقاق والفساد واحداث الثلم في بنيان الامة ، فهم جناة الله وجناة عباده في أرضه ، فالى الامة أمرهم واليها المشتكى بعد الله جل وعز شأنه » .

وما ان أعلن بذلك ونشرته الصحف السائرة حتى اهتاجت الامة وثار ثائرها وشددت الصحف المسلمة في استنكار اعمال تلك الفئة الماردة فخاف الجناة على أنفسهم والتجأوا الى الامة متضرعين خافضي رؤوسهم ، متذرعين بكل وسيلة من الدين والعلم والرحم ان تصفح عن زلاتهم

وتسحب ذيل العفو على مآثمهم . فقبلت الامة اعتذارهم وتذللهم واذعانهم لصوت الحق بعدما تابوا الى الله من سيئاتهم وعاهدوا ممثلي الامة على ان لايعودوا لمثلها في المستقبل .

ثم لما رأى اولئك الملاحدة ان الامة قد غفلت عن أعمالهم واطمأنت الى أعذارهم عادوا الى سيرتهم الاولى وأخذوا في بث دعاية الالحـــاد وترويج بضاعة الضلال من جديد . وكذلك اعلام الجهاد والدفاع عن حوزة الدين الحق ، ما كانوا ليغفلوا هذا الامر العظيم ، ومن جراء اولئك ظلت الحرب قائمة على ساقها بين الملاحدة والمسلمين المعتزين بدينهم وعقائدهم .

وهذا الذي ذكرته في ماتقدم ، يتعلق بالسنين التي خلت بين سنتي ١٩٢٧/٣٤٦ هـ ، ١٣٥٣/ ٩٣٤ ، الا أن « فتنة جحود الحديث النبوي » والغض من شأن الرسالة المحمدية على صاحبها ألف تحية وسلام قد استفحل أمرها وتفاقم خطبها مرة أخرى بعد الاستقلال وتكون الدولة الجديدة باكستان . ومن دواعي الألم الشديد أن الذي تولى كبر هذه الفتنة والذي يسخر من السنة الشريفة في مقالاته وكتاباته صباح مساء ، هو رجل من الموظفين في وزارة الداخلية . ومن غريب أمر هذا الرجل الموظف أنــه لايعرف من العربية الا ماتعرف عجائز القرية من علوم الهندسة والكيمياء ومع ذلك ألف تفسيراً للقرآن الكريم في أربعة مجلدات ضخمة . فياللجهل ويا لضيعة الدين . وهذا كله لجهل الناس باللغة العربية وعدم تمكنهم مــن الارتشاف من مناهل الكتاب والسنة ، فتروج عليهم هذه الضلالات ، كما راجت من قبل ضلالات الغلام القادياني ، عليه لعنــة الله الى يوم القيامة .

ومن ثم نرى أن الدواء الناجع لامراض الامة الدينية والطريق الايسر للقضاء على تلك الاضاليل والدعايات الكاذبة ، هو نشر اللغة العربية وتعميمها بين جماهير المسلمين وتلقين كل مسلم ومسلمة مباديء لغة القرآن نرى هذا الرأي ونؤمن به وندعو اليه .

سليمان الندوي المولود ١٣٠٢ هـ :

عودا الى الحديث السابق. ذكرنا أن الحرب ظلت قائمة بين جاحدي الحديث والمسلمين المؤمنين المعتزين بدينهم المتمسكين بسنة نبيهم والفضل في ذلك الجهاد في سبيل نشر معارف السنة النبوية والدفاع عن حظيرة الدين الحق ، يرجع الى علم الهند وعالمها الاكبر الاستاذ المحقق السيد سليمان الندوي صاحب مجلة (معارف) الشهيرة ورئيس جمعية « دار المصنفين » والمشرف على دار العلوم التابعة لندوة العلماء في لكهنؤ (الهند) مما لا يختلف فيه اثنان أن السيد سليمان الندوي ـ حرسه الله وأبقاه ذخراً للاسلام والمسلمين ـ امام الدفاع الاسلامي وبطله المغوار بلا مراء . فان لمؤلفاته العلمية المستفيضة من عيون الكتاب والسنة تأثيراً بالغاً في تكوين عقائد المسلمين وتقويم أود أفكارهم .

ولو جاز القول بأن دين الله مدين في بزوغ شمسه ووضوح محجته لرجل من رجال الاسلام ، لقلنا أنه مدين للسيد سليمان وزملائه حيث دافعوا عن حمي الدين الحق دفاع الابطال وانتصروا للاسلام في محنته التي أصابته بيد بعض المتعنتين الجاحدين .

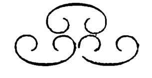
ولعمر الحق أنه لولا السيد سليمان ومجلته ومقالاته المتتابعة

ودفاعه المجيد لانتكست راية الاسلام في ذلك العصر الذي نحن بصدد تاريخه الآن ، فانه كان يومئذ ، الركن الوحيد الذي يأوي اليه العلماء اذا استعصى عليهم شيء من مهمات المسائل .

ويرجع اليه رواد العلم ويستندون اليه في حل مشكلاتهم وفك معضلاتهم ؛ والطود الشامخ الذي تنطحه طواغيت الالحاد والزندقة بين حين وآخر ، فلا يكون مثلهم الا :

كناطح صخرة يوما ليوهنها

فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعـــل



الفصل التاسع

الإنقلاب الجديد

وتأثيره في الإنحطاط الديني والتدهور الخلقي

١٣٤٧ - ١٣٦٦ هـ

١٩٣٩ - ١٩٤٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمات الاسباب :

هذا وقد وصلنا في (تاريخ الدعوة) الى العصر الذي نحن فيه والزمن الذي مر ولا يزال يمر أمام أعيننا . فليكن كلامنا في هذا الشأن مفصلاً محيطاً بجميع أطرافه ونواحيه ، حتى يسهل على القاريء العربي استجلاء الحقيقة واستطلاع الامر الواقع . وهناك أمور يجب أن أشير اليها قبل الدخول في صلب الموضوع ، لتتجلى العوامل والاسباب التي أدت الى هذا الانقلاب المدهش في الحال الدينية ، كما شاهدنا في السنين الماضية ولا نزال نشاهدها .

فالذي ينبغي على ذكره للقاريء أولا وقبل كل شيء أن الحالة السياسية جعلت تتبدل بعد الثلاثين تبدلا لم يسبق له نظير في العقود الثلاثة الاولى من هذا القرن .

تبدل المؤتمر الوطني :

ومن أهمها ان المؤتمر الهندي الوطني (Indian National Congres) أخذ يميل الى العصبية الهندكية واحياء القومية الوثنية القديمة وبدأت تصبغ اعمالها بصبغة الديانة البرهمية وشرع زعماء الهنادك يدعون الى تجديد الحضارة الهندية العتيقة البالية وبعث اللغة السنكريتية من مرقدها واستبدالها باللغة الهندستانية السهلة المفهومة السائرة بين القاصي

والداني . وقد تجلت هذه الظـاهرة الجديدة في ماجريات المؤتمر الوطني الهندي بعد الثلاثين ، وان كان يحلم بها ويتمنى تحقيقها رجالهم و كتابهم منذ خمسين سنة فصاعداً .

تشاجر المسلمين :

هذه واحدة . والثانية ان زعماء المسلمين بدأوا يتشـاجرون في مابينهم منذ سنة ١٣٤٤ / ١٩٢٥ حينما دخل ابن سعود الحجاز ظـــافراً وفاتحاً ، فاختلفت الاحزاب عندنا وتقابلت في مابينها ، هذا يدافع عن ابن سعود وهدمه للمشاهد ، وذلك يذمه وينكر عليه اعتداءه على المقابر والآثار المقدسة . ثم نجحت فتنـة أخرى سنة ١٣٤٧ — ١٩٢٨ م — بشأن دستور البلاد وحقوق اهلها في الاصلاحات (Reforms) التي وعدت بتنفيذها الحكومة البريطانية . واتفق ان المؤتمر الهندي الوطني قدم اذ ذاك « تقريراً » (Report) عن الدسـتور المنشود ، قامت بوضعه لجنة من الوطنيين على رأسهم موتي لال نهرو Moti Lal Nehru والد جواهر لال نهرو ، رئيس وزراء الهند الحالي .

فكان من رأي المغفور له ، زعيم المسلمين الاكبر مولانا محمـد على ومن حذا حذوه من الزعماء أن هذا « التقرير » لا يفي بمطالب المسلمين وفيه من الاجحاف بحقوقهم ، مالا قبل لهم باحتماله . وبازاء ذلك ارتآى مولانا أبو الكلام ومن ترآى برأيه من رجالات المسلمين أن هـذا التقرير واف بمطالب الهند الوطنية ، لا فرق فيها بين مسلم وهندكي . ومـن دواعي الاسف الشديد أن الفريقين وأنصارهما وأتباعهما تمادوا في النزاع

واخترقوا حدود الاعتدال في التشاجر وجاوزوا الحد في الخلاف والشقاق وبلغوا في التفرق مبلغا ذهب بمهابتهم وأضعف بأسهم وجعلهم مثلا يضرب للناس في تفرق الكلمة وتشتت الشمل .

جمعية العلماء وتغيير موقفها :

والثالثة أن جمعية علماء الهند التي كان لها ولاعضائها نفوذ وسمعة في البلاد ومكانة في قلوب الشعب وكانت فروعها منبثة في سائر انحاء القطر والتف حولها عدد كبير من علماء هذه البلاد من مختلف المذاهب والاوساط قد حدث تبدل عظيم في سياستها وخطة عملها بعد الثلاثين . وذلك انها جعلت تؤيد « المؤتمر الهندي الوطني » في برامجه ومنهاج عمله وتضم صوتها الى صوته في كل مسألة وقضية واخذ العلماء من اعضائها يساعدون الوطنيين من الهنادك ويشاركونهم ويعاضدونهم في حركاتهم السياسية .

ومن سوء الحظ أنه كلما ازداد المسلمون نفوراً وبعداً عن «المؤتمر الهندي الوطني » ، ازدادت جمعية العلماء اتصالاً به وانضماماً الى صفوفه . فكان من جراء ذلك ان معظم صحف المسلمين أخذت تندد بالعلماء وتشن الغارة على جمعيتهم وتنسب اليهم أنواعاً من المطاعن والأقاويل ، وكذلك شرع زعماء المسلمين من المقاومين للمؤتمر الهندي الوطني وسياسته يشدون الكرة على العلماء وجمعيتهم في خطبهم وتصريحاتهم وينكرون عليهم معاونتهم للمؤتمر الوطني الهندي وتعاونهم مع الهنادك . فأصبحت النتيجة ان العلماء فقدوا نفوذهم بين الجماهير ولم تبق للدين وحملته مهابة في قلوب

عامة الشعب وتطلع المتفرنجون الى الزعامة وقيادة الشعب المسكين .

المتفرنجون

والرابعة أنه لما تقلص نفوذ العلماء واضمحل تأثيرهم في نفوس الامة انتهز المتفرنجون الفرصة وبرزوا الى الميدان ، حاملين لواء الزعامة ، يقودون الشعب الى الكفاح ومقاومة المؤتمر الوطني الهندي بالغض من كرامة العلماء وتشويه سمعتهم ، وتفننوا في ذلك تفنناً وأتوا في ذلك من المخزيات المبكيات بما يندى له جبين المروءة ويحمر له وجه البشرية . لكنها كانت فتنة عامة استولت على البلاد وذهبت في تيارها الجارف بالبقية الباقية من أخلاق الامة .

حركة مسلمة قوية

والخامسة أنه لما اشتد تعصب الهنادك على المسلمين، وازداد المؤتمر الوطني الهندي عتواً واستكباراً واجحافاً بحقوق المسلمين ، واعراضاً عن قبول مطالبهم السياسية المعتدلة ، ولاسيا بعد مامنحت البلاد شبه استقلال داخلي في المقاطعات - سنة ١٩٣٧ م / ١٣٥٦ هـ - وقام زعيمهم الأكبر غاندي بحركة عنيفة للقضاء على اللغة .

الاردية[1] الهندستانية — في سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م ومابعدها —

---

(١) وكان من أقوال غاندي في هذا الشأن :« ان اللغة الاردية تكتب بخط القرآن ، فعلى المسلمين انفسهم ان يحافظوا عليها » . مع انه يعرف الجميع ان اللغة الاردية ماجاءت من بلاد العرب ، وانما نبتت وبسقت وآتت أكلها في تربة الهند نفسها ، كاللغات الهندية الاخرى ، اللهم الا أن يقال : ان فيها من كلمات العربية والفارسية —

لما كان الأمر كذلك وهاج هياج المسلمين واشتد نفورهم من الهنـــادك واستقال كثير من رجالهم من المؤتمر الوطني الهندي . قامت حركة قومية بين المسلمين ، مصـادمة « للمؤتمر الوطني الهندي » ومقاومة لسـياسته الهندكية ، المعادية لمصالحهم ومطالبهم . والجمعية التي قامت بهذه الحركة ، حركة المقاومة لمزاعم الهنادك والدفاع عن مطالب المسلمين ، هي جمعية الرابطة المسلمة .

(Muslim League) ، والرجل العصامي الذي نهض لقيادتهم وحمل لواء الدفـاع عن القومية المسلمة ومطالب المسـلمين السياسية ، هو المحامي الشهير والسياسي المحنك والقانوني البارع ، محمد علي جينا ، الذي

مايفوق ٥٠٪ ، ولكنه امر طبيعي بعد مادخل المسلمون الهند ولم يحكموها من وراء البحار كما فعلت الانكليز ، بل سكنوها وعمروها ثمانية قرون وخدموا علومها ولغاتها وآدابها وأضافوا الى جمالها وزادوها بهاءاً على بهاء .

وهذه منة في عنق الهند ، لو كان في قلوبهم شيء من الشرف لما انكروهـــا ، بل ذكروها بالخير والشكر . فالحق ان مجرد وجود الكلمات العربية والفارسية في الاردية لايجعلها لغة أجنبية . وكذلك الخط الاردي لا يصبح خطاً ممقوتاً مبغوضاً بمجرد كونه يماثل الخط العربي او الفارسي . هذا ، اذا نظروا الى المسألة بعين الانصاف أما التعصب الممقوت والقومية الضيقة الجغرافيـــة ، فلا تعرف الحق ولاتهتدي الى الصواب الا قليلا . وهاهم أتباع غاندي اليوم يكادون يقضون على اللغة الاردية في البلاد الهندية ويسدون سبيل الرقي والانتشار في وجهها بكل طريق مشروع او غير مشروع . الا اننا جازمون بأن لغة حية نامية لا يمكن وأدها بهذه السهولة . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

انتخب رئيساً للرابطة المسـلمة سنة ١٩٣٦ م فهذه هي الاسباب المهمة والعوامل البدائية التي أفضت الى ذلك الانحطاط الديني الخلقي الذي بدت آثاره بعد الثلاثين ، ومازال ينمو ويكبر تحت تأثير تلك العوامل ويزداد قوة واتسـاعاً من جراء تلك الاسـباب حتى أصبح خطراً على الدين والاخلاق . وما كان هذا الانحطاط الديني وذلك التدهور الخلقي اللذين أشرنا الى أسبابها في ماتقدم ، منحصرين في اقامة الشعائر الظاهرة والشعور وفشو التبرج والخلاعة ، بل الامر ان هذا الانحطاط في الفكرة الدينية والعقائد ، وذلك التبدل المشاهد في المقاييس الادبية والقيم الخلقية ، كانا أعظم أثراً وأبعد مدى وأقوى نفوذاً . وهذه هي الطـامة الكبرى فما أوتيت أمة من قبل فكرتها وماغزيت جماعة في عقيدتها ومعاييرها الخلقية والادبية ، الا وكان فيها هلاكها وتبابها .

هذا ، وهانحن مفضون اليك بشيء من التفصيل بما نريد بيانه من هذه القضية وفروعها ومن تلك الافكار الزائفة وأسباب نشوئها ، ليتضح الأمر ويعرف الكل مدى تأثير هذا الانقلاب والتبدل في حيـاة الامة وأفكارها ومعتقداتها ومقاييسها الخلقية والادبية .

القومية المسلمة والاسلام الجغرافي

وقد عرفت آنفاً ان المسلمين قاموا بحركة سياسية عنيفة مصادمة للمؤتمر الوطني الهندي ومقاومة لسياستها الهندكية المتطرفة .

وهذه الحركة ، وان أخذت في الظهور والاتساع بعد الثلاثين ، ما أتيح لها الرقي والازدهار الا بعد سنة ١٩٣٦/١٣٥٥ حينما تولى زعامتها

القائد محمد علي جينا . ومن سوء الحظ ان القـــائد محمد علي جينا ، على تضلعه من الدستور والقانون العصريين وعلو كعبه في الدبلوماسية الغربية وحذقه في السياستين الهندية والانكليزية ما كان له ســـابق عهد بمعرفة الاسلام وحقيقته ومزاياه ، ولم يكن له علم بمافيه من نظم للحياة شاملة وبركات للبشرية عميقة جامعة .

وليس الذنب ذنبه ، وانما التبعة على المهد الذي تربى فيه وترعرع والبيئة التي نشأ فيها وبلغ أشده والجو الذي تنسم فيه هواء العلم والادب فقد نشأ نشأة أفرنجية خالصة بين طائفة من الاسماعيلية التي لاصلة لهـــا بجمهور المسلمين ولاتجمع بينها وبين جمهرة مسلمي الهند رابطة غير اســم « الاسلام » الذي يتبرك به الجميع ولايعرفون مايدعو اليه من عقيــدة صافية نقية ونظام للحياة شامل .

وكذلك الذين لبوا دعوته وانضووا تحت لرائه وتتبعوا معالمه في مقاومة المؤتمر الهندي الوطني ومحاربة خطته العوجاء ، كانوا من الذين غذوا بلبان الثقافة الغربية وتخرجوا في الكليات العصرية ونشأوا نشــأة بعيدة عن مراكز الدين والعلم . فكل ماقام به القائد محمد على جينــــا وأتباعه المتحمسون في سبيل تأييد قضيتهم وتقوية مطالبهم من الحركات والمظاهرات وما أقاموه من الحفلات والمؤتمرات ، جاءت على غرار الجمعيات السياسية العصرية . منتهجة خطتها ، مقتفية اثرها ، لاتجد عليها مسحة من الدين او الطابع الخلقي الاسلامي الذي يميزها عن غيرها من خصلات غير المسلمين . وكذلك الذين ألقيت إليهم مقاليد الزعامة في طول البـــلاد

وعرضها وتولوا الدفاع عن حقوق المسلمين في الأقاليم والقرى ، كانوا على غرار سادتهم و كبرائهم في البعد عن الدين وتعاطي المنكر وارتكاب الفحشاء .

وكذلك نرى حفلاتهم ومؤتمراتهم مكتظة بالنساء الساخرات المتبرجات ، يتقدمن الرجال ويشاركنهم في عالم يخلقهن الله لأجله . اما الذين يحافظون على الصلوات منهم ويؤدون الواجبات الشرعية، فعددهم نزر قليل جداً .

هذا من الناحية العلمية . أما صنيعهم من الناحية الفكرية ، فقد نبتت فيهم فكرة القومية المتطرفة المسلمة مناقضة للقومية الهندكية الغالية .

وبيان ذلك أنه نشأ فيهم باديء ذي بدء الجنوح الى الاستمساك بكل ماوجدوا عليه آباءهم من الثقافة والآداب شأن الهنادك في آبائهم وتمجيدهم لتراث أسلافهم وبدأ فيهم الميل الى الاعتزاز بمآثر أسلافهم ومن سبقهم من الملوك والامراء والاحتجاج بماجاؤوا به من الأعمال في حقول الأدب والعمران والثقافة . ثم تطرقوا بذلك الى تمجيد ماجاء به أسلافهم من مختلف الأعمال ، ولو كانت منكرة بعيدة عن محجة الشريعة البيضاء ، ناكبة عن السنة المحمدية الناصعة .

وأدهى من ذلك وأمر ان عامة أتباع القائد محمد علي جينا وجمهرة المنضوين تحت لوائه جعلوا يقدسون أعماله واعمال زملائه من كبار زعماء الرابطة المسلمة ويختلقون أعذاراً واهية وحيلاً سخيفة لما

يقترفونه من المنكرات من عدم المحافظة على الصلوات وتعاطي الخمر وتشجيع النساء على السفور والتبرج وغيرها مما يضيق سرده نطاق المقام .

فالخلاصة ان الرابطة المسلمة وزعماءها كانوا من أكبر من ساعد في ترويج فكرة القومية المسلمة وتمجيد أعمال ملوك المسلمين وقوادهم وزعمائهم – ولو كانت منحرفة عن جادة الحق متنكبة الصراط السوي – وكأني بهم التبس عليهم الأمر ، بأنهم لم يفرقوا بين الاسلام والمسلم ، ولم يدركوا – أو لم يريدوا ان يدركوا – مابينهما من فرق عظيم وشقة شاسعة فان الاسلام دين شامل جامع كافل لسعادتي الدارين ؛ جاء بمجموعة من المباديء والعقائد والعبادات والقوانين للعقود والمعاملات ونظام للحياة ودستور للملك والحكم . وحدد لكل واحد منها حدوداً مبينة وبين معالم الحلال والحرام لكل من يريد ان يدين به ويدخل في كنفه .

فالمسلم ، هو الذي آمن بتلك المباديء والعقائد وعمل بتلك القوانين والتزم تلك الحدود وخشي الله في السر والعلانية ، راجياً المثوبة في الدار الآخرة .

اما الذي ولد من أب وأم مسلمين وتسمى بأسمائهم ثم اقترف ماأراد ان يقترف من الاعمال المنكرة واضآر ماشاء وشاءت أهواوه الجامحة من المباديء الهدامة والنظريات الزائفة الزالفه ، فليس من الاسلام في قبيل ولادبير ، وان كان اسمه مكتوباً فوق الجميع في سجل الاحصاء الرسمي . وذلك ممالا مراء فيه ولامكابرة .

وهذه هي الغلطة الكبرى – أي عدم التفطن الى مابين الاسلام والمسلم من فرق عظيم – التي أدت بزعماء الرابطة المسلمة ان يحشروا تحت لوائهم كل من اتسم بسمة المسلم وأدى اكتتاب[1] الرابطة ووافقهم على مطالبتهم بالاستقلال ومحاربة المؤتمر الوطني الهندي ، من غير نظر الى عقائدهم وخلقهم وطبائعهم واستقامة أحوالهم ومعاملتهم للناس . فكان من نتائجها ان انضوى تحت لواء الرابطة كل غث وسمين من أذناب الاستعمار وأعوان الشيوعية وأنصار الكماليين ودعاة القومية المتطرفة والوطنية الجغرافية والاسلام « الجغرافي » ممن اتسم بسمة المسلمين وتسمى بأسمائهم . والظاهر ان مثل هـــذه المجموعة المؤلفة من شتى الاهواء والاغراض لايمكن ان تبقى متساندة متراصة ، الا حين إقامة المظاهرات والحفلات والقيام بالحركات والثورات . وقد حدث كذلك فعلاً ، فانهم ظلوا مستمسكين بمباديء الرابطة محاربين للمؤتمر الوطني الهندي وسياسته العوجاء سنين عديدة حتى نجحوا في مهمتهم . وما ان تبوؤوا مناصب الحكم وتولوا أمر البلاد بعد استقلالها وانفصالها عن الهند المشتركة ، انكشفت عوراتهم وبدت سيآتهم وتجلت للعيان عوامل الضعف والوهن الكامنة في نفوس الصائمين بحركة الرابطة ، المنضمين الى صفوفها .

ولولا ماتوخيناه في هذا المقام من الاقتصار على الكلام عن تأثير هذه الحركة في مجرى الفكر الاسلامي ، لفصلنا القول في سيآت أعمالهم وكشفنا النقاب عن سوءاتهم . فكما قلنا ان مثل هذه المجموعة المحتشدة

(١) وهو آنتان في السنة فقط أي مايعادل قرشاً مصرياً .

من كل رطب ويابس لايمكن ان تظل متماسكة متعاضدة الى مدى بعيد كذلك مما لامجال فيه للشك ان مثل هذه الكتلة المشتملة على حملة الافكار الزائغة كالشيوعية والنزعات الواهية الخاطئة كالقوميةالجغرافية والنزعات الباطلة كالكمالية المتفرنجة ، لاتأتي باصلاح خلقي ولايمكن ان تكون نواة صالحة لانقلاب اسلامي شامل . والعيان لايحتاج الى البيان . وقدشاهدنا هذه الكتلة المجتمعة من شتى العناصر والاهواء ، وقد تفرقت شيعاً بعد الاستقلال ولم يبق بينها جامع فكري . فمنهم من يدعو الى الشيوعية علناً ومنهم من يأخذ بناصر الممولين (Cohritaerito) ، ومنهم من يدعو بدعاية الاسلام من فوق المنـــابر وفي جلسات البرلمان ، واذا خلا الى أصدقائه وخلانه ، تعاطى المنكر في الخلوة والنادي واقترف من المآثم والمخزيات مايمجه السمع ويأباه الذوق ، به الشريعة والدين .

ومن سيآت هذه القومية المسلمة او « الاسـلام الجغرافي » — حسب المصطلح الشـائع في البلدان العربية — أنه نجحت بين الشبيبة المنضوية تحت لواء الرابطة المسلمة ، نزعة الكمالية ، نزعة التفرنـج والالحاد والزندقة .

والذي غذى هذه النزعة الخبيثة ورواها هو اتفاق زعماء الرابطة المسلمة واتحاد كلمة الصحف المنتسبة اليهم على الطعن في العلماء والزراية على حملة الدين والسخرية من شـــعائر الاسلام وعدم الاكتراث لأوامر الشرع ونواهيه ولاتزال هذه النزعة باقية آثارها في شرذمة قليـلة من الشبان .

وبازاء الدعوة الى هذه القومية المسلمة – او الاسلام الجغرافي – وحركة الرابطة بانفصال المسلمين عن المؤتمر الوطني الهندي ومقاطعته ، كانت الحركة الوطنية الهندية القومية التي ظهرت بوادرها في أواخر القصر السالف تحت لواء المؤتمر الوطني . وكان لهذه الحركة أنصار ودعاة بين المسلمين منذ أول أمرها . وكان عددهم يزداد حيناً ويتضاءل حيناً آخر ، وذلك حسب مايظهر من التبدل والتحول في معاملة زعماء الهنادك المسلمين ومطالبهم السياسية وتودد أولئك الى هؤلاء . وبقي الامر على ذلك بين ارتفاع وانخفاض وصعود وهبوط الى ان وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها ونكثت الانكليز بوعودهم الخلابة وقامت على أثرها حركتا الخلافة والاستقلال القويتان الصارمتان اللتان زلزلتا عروش بريطانية وحليفاتها .

فاشترك المسلمون في المؤتمر الوطني الهندي اشتراكاً تاماً وأخذوا بنصيبهم في تدبير شؤونه وتنظيم صفوفه ، حتى أصبحت لهم يد نافذة وكلمة مسموعة في برامج المؤتمر الوطني ووضع خططه ومناهجه وتسيير دفة شؤونه . واستمرت الحال على ذلك الى سنة ١٣٤٨ / ١٩٢٩ حتى انفصلت جماعة عظيمة من المسلمين وكبار زعمائهم عن المؤتمر الوطني ، بعد ماقدم « تقريره » المشؤوم – عن مطالب البلاد السياسية ومطمع آمالها – الذي ما أنصف المسلمين وبخسهم حقوقهم السياسية ومطالبهم المدنية المشروعة ، كما سبقت الاشارة اليه . ثم مازال زعماء المسلمين يستقيلون من

مناصبه وينفصلون عنه ، واحداً إثر آخر ، حتى لم يبق فيه من رجالات المسلمين وزعمائهم المعدودين ، الا أبو الكلام وشرذمة من أتباعه وأعضاء جمعية العلماء الشهيرة . ومن هنا بدأت المشادة وحدثت المنـــاجزة بين الفريقين . فريق من العلماء والوطنيين يدعون الى القومية الهندية الوطنية المشتركة معارضة للحكومة البريطانية ، يشرف عليهم ويساعدهم المؤتمر الوطني بوسائله وأدوات الدعاية الواسعة بيده ، كما بدأ فريق من زعماء المسلمين - تحت زعامة القائد محمد علي جينا - يدعون الى القومية المسلمة والانفصال عن الهنادك ، كما تقدم .

وكان قول هؤلاء في ذلك « ان المسلمين أمة مستقلة بأنفسهم ، وأنه لا يجمع الهنادك وإياهم شيء مما يمكن ان يعد من مقومات القومية ومشخصاتها ، وأن قضية الهند ، ليست بقضية امة واحدة ، وانما هي قضية امتين مستقلتين كل واحدة منهما تمتـــاز عن الاخرى بميزاتها وعوائدها الخاصة بها » . اما الذين كانوا من أنصار المؤتمر الوطني والمشاركين إياه في برامجه ، المساعدين له في السياسة الوطنية ، فكانت دعوتهم الى القومية الهندية الوطنية ، وحجتهم في ذلك « ان الهنود أمة واحدة لا فرق بين مسلم منهم وهندكي في اللغة والمعيشة وأدوات الأكل والشرب ، وان المسلم القاطن في أقصى (بنغال) أقرب الى جاره الهندكي وأحس به رحماً منه الى المسلم القاطن في بنجاب ، او (أفغانستان) ، وان الدين لا أثر له في تكوين القوميات في هذا العصر ، وأنه شيء ذاتي بين العبد وربه ، ولا ناقة له ولا جمل في السياسة العملية » .

وهذه الدعوة وأنصارها أيضاً ما كانوا أحسن حالاً وأمتن خلقاً من دعاة القومية المسلمة والاسلام الجغرافي . اما العلماء الذين حملوا لواء هذه الدعوة وحاربوا الرابطة المسلمة محاربة شديدة ، فانهم ، وان كانوا بأنفسهم متدينين متمسكين بآداب الدين أشد التمسك ، شأن مشايخ الدين والعلماء في بلادنا ، الا ان أكثر الذين شاركوهم وتعاونوا معهم في الدعوة الى المؤتمر الوطني ومحاربة الرابطة المسلمة ، كانوا من أشد الناس عداوة للاسلام وأضمرهم شراً الدين المبين في هذه الديار .

ومنهم من لا يؤمن بالله ورسوله أصلاً ، ومنهم من آمن بمبادىء الشيوعية وكفر بالله ورسوله واليوم الآخر . ومنهم من يتظاهر بالاسلام والمحافظة على شعائره ، وقلبه غير مطمئن بالايمان وقد استيئس من مستقبل الاسلام وعلو كلمته في هذه الدنيا .

ومنهم من يميل بطبعه الى دين جديد ممزوج مشتمل على شيء من تعاليم الاسلام وبعض تقاليد البراهمة ، مفرغ في قالب وطني خالص ، شأن الملك المأفون اكبر ، الذي تقدم لنا الكلام في ضلالاته وأباطيله . فهذا ما كان عليه أنصار المؤتمر الوطني ودعاته من دين وخلق . وماظنك بمجموعة من الناس مشتملة على كل رطب ويابس من نفايات القوم . هل يرجى منها ان تعود على الاسلام والمسلمين بخير في العاجل او الآجل ؟ كلا !! ليس « الاسلام » بألعوبة يلعب بها كل ماكر او غادر ويتصرف فيها حسب أهوائه ويستخدمها لارضاء شهواته . إنما هو الدين الشامل الجامع المرضي عند الله الكافل لسعادتي الدنيا والآخرة ، وله نظم وقوانين

ومباديء وأصول ، من آمن بها عن رضى وعمل بها واستمسك بعروتها الوثقى ، فهو مسلم عند الله ورسوله .

اما الذي يتسمى بأسماء المسلمين ويتظاهر بالاسلام ثم يفصم عروته ويدين بما يشاء من الافكار والنزعات ويعمل بما تأمره به نفسه وشهواته ، فليس من الاسلام في عير ولا نفير .

وجملة القول ان دعاة الوطنية الهندية المشتركة من بين المسلمين ما كانوا أحسن حالاً من دعاة القومية والاسلام الجغرافي ، بل كان أولئك شراً من هؤلاء وأكثر خطراً على الاسلام وأهله . ومن سوء حظ المسلمين . ومما يذوب له القلب كمداً وحزناً ان علماءنا من أعضاء جمعية العلماء والقائمين بأمرها ، مازالوا متشبثين بأذيال المؤتمر الوطني ، متعلقين بأهدابه ، خلافاً لجمهور الشعب وأولى الرأي منهم . وهذه هي الطامة الكبرى التي أصيب بها الاسلام في هذه البلاد في العشرين سنة الماضية ، وكان من نتائجها السيئة وعواقبها الوخيمة ، زوال مهابة العلماء وسقوط منزلتهم في عيون العامة وهو انهم على الشبان المتفرنجين وازدياد السخرية من الدين وشعائره كما ذكرنا مراراً ، لأهميته وخطورة شأنه وفدح مصاب الامة به . ولاحول ولاقوة الا بالله .

والعجب كل العجب بين جمادي ورجب أننا كلما قلنا — في السنوات العشر الماضية — لاخواننا من أعضاء جمعية العلماء ان يكفوا عن معاضدتهم المؤتمر الوطني ويقوموا بواجب الدعوة الدينية الحقيقية ويشدوا أزرنا في محاربة دعاة « الاسلام الجغرافي » وأعوان الكمالية

والتفرنج ، أجابوا قائلين : هانحن نحارب الاستعمار اولاً للحصول على الاستقلال . واما القيام بواجب الدعوة الى إحياء الاسلام ورفع كلمة الله. فسنقوم به بعد ذلك . كبرت كلمة كانت تخرج من أفواههم ، وبئس ماسولت لهم أنفسهم وزينت لهم عقولهم . وهانحن أولاء نذوق اليوم وبال ماعملوا والامة الاسلامية الهندية بأسرها تندب حظها وتبكي لسوء حالها، وعلماؤنا « المساكين » لايزالون متشبثين بأذيال المؤتمر الوطني ، يرجون من زعمائه المتغطرسين الجائرين العدل والنصفه ، وهيهات ان ينالوا بغيتهم .

نظرة في كلتا القوميتين

هذا ، وصفوة ماسردنا في ماتقدم من حديث بوادر الانقلاب الجديد وأسبابه وعوامله ، أنه نبتت بين مسلمي الهند بعد الثلاثين من السنة الميلادية ، فكرتان : فكرة القومية المسلمة والاسلام الجغرافي ، تريد الانفصال عن الهنادك وتأسيس مملكة مسلمة قومية في جزء من بلاد الهند ، ولا نأخذ على دعاة هده الفكرة الا ما نأخذ على سائر دعاة الوطنية الجغرافية او القومية النسلية والعنصرية ، لأن الميزان الوحيد الذي نزن به الأشياء ، هو ميزان الاسلام والدين الحق ، لاغير . ومما لاخلاف فيه ان الدين الحق لايعرف للقومية العنصرية او الوطنية الجغرافية معنى . وإنما هو عبارة عن مباديء وأصول محكمة ومجموعة من العقائد والعبادات ونظم الملك ، مستبينة واضحة . فمن أراد ان يكون مسلماً ، فعليه ان يؤمن بتلك المباديء ويعمل حسب مقتضاها ويجد ويجتهد في تكوين البيئة التي يجري فيها ذلك النظام العادل وايجاد الجو الذي تنفذ فيه تلك القوانين

السليمة المعتدلة .

أما التسمي بأسماء المسلمين وادعاء الاسلام في كل مكان ثم العمل بما يناقضه ويأتي بنيانه من القواعد ، فليس من الاسلام في شيء . وانما هو سبيل الذين يخادعون الله ورسوله والمؤمنين ومايشعرون أن الدعايات الكاذبة لايدوم أثرها وأنه مهما استطال ليل الدعاوي المزخرفة فلابد ان يعقبه صبح الحقيقة والصواب ، وأنها مهما تلبدت الحقيقة بغيوم الأحاديث الكاذبة ، فانها تنكشف وتتجلى في يوم من الايام ، لامحالة .

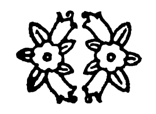
والفكرة الثانية ، فكرة القومية الهندية الوطنية الداعية الى إدماج المسلمين وثقافتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية في ثقافة الهنادك وآدابهم ونظمهم المستقاة من الوثنية القديمة .

ومن الواضح البين الذي لاخفاء فيه أن هذه الفكرة ، فكرة لجوء المسلمين الى كنف الهنادك والمؤتمر الوطني الهندي وانضوائهم تحت لوائه واصطباغهم بصبغة الثقافة الهندكية البرهمية كانت أشد ضراوة وأفدح خطراً على الاسلام والمسلمين من الفكرة الاولى ، فكرة القومية المسلمة « والاسلام الجغرافي » .

فالخلاصة ان المسلمين في الهند بعد الثلاثين سنة ١٣٤٩ هـ ومابعدها – أصبحوا بين نارين : نار الوطنية المشتركة والقومية الهندية الجارفة . ونار القومية المسلمة والاسلام الجغرافي ، فمنهم من آثر الأولى واصطلى بلظاها ومنهم من اختار الثانية – وهم الأغلبية الساحقة – وزاد

تلك النار المتأججة اضطراماً ولهيباً . ولايخفي على القاريء اللبيب المستبصر المطلع على تعاليم الاسلام ، العارف بمبادئه الراسخة وأصوله المحكمة مافي كلا الأمرين وكلتا الفكرتين من خطر على الدين الحق ومستقبله في هذه الديار .

وقد تقدم لنا الكلام في ذلك بما يغنينا عن إعادته في هذا المقام .



الفصل العاشر

دعوة إسلامية خالصة

بسم الله الرحمن الرحیم

١ - دعوة أخرى

ومن ههنا ، وفي هاتيك الاحوال ، وفي تلك الغضون المحرجة ، ظهرت دعوة إسلامية خالصة ، بريئة من أرجاس النزعات الوطنية والنعرات الاقليمية طاهرة من أدناس الميول العنصرية ومنازع التفرنج والاباحية ، دعوة دينية صادقة ، متفجرة من ينبوع الكتاب والسنة ، مستقاة من سيرة النبي (ﷺ) وأصحابه (رضي الله عنهم ورضوا عنه)، دعوة الرجوع الى كنف الدين المبين واللجوء اليه في كل مايعرض للمرء من المسائل والمشاكل في مختلف نواحي الحياة وشعبها .

ظهرت هذه الدعوة الى اقامة الدين وتجديد مادرس من معالم الدين الصحيح والقضاء على ماتسرب الى فكرة الاسلام من خرافات الشرق وأوهام الغرب واستئصال ما ابتدعه المسلمون من طرق معوجة ومناهج زائفة من تلقاء أنفسهم ، خلال القرون السالفة، قرون الانحطاط والجمود والتقليد الأعمى في العالم الاسلامي - ظهرت هذه الدعوة بعد الثلاثين بقليل ، حينما بدأت حركتا القومية المسلمة والوطنية الهندية المشتركة تتنازعان وتتشاجران ، ويكاد المسلم المخلص يكون في حيرة من أمره : ماذا يفعل ، والى أي الهاويتين يتدحرج ؟ فجاءت هذه الدعوة تخرجهم من حيرتهم وتبشرهم بنور من الهداية ودعوة الحق وتنير لهم الخطة

الواضحة والطريق المستبين للجهاد والكفاح .

فأول مابدأ القائمون بها ، تصحيح الفكرة وتبيين حقيقة الدين وإزالة مالحق بقصيدة التوحيد النزيهة وفكرة الاسلام النقية من أدران الزيغ والجمود . وذلك ببيان معنى الاسلام الحقيقي وغايته وأهدافه وما يشتمل عليه من عقيدة محكمة ومباديء ثابتة راسخة ونظم للملك والعمران والاجتماع بينة واضحة . فان مرآة الاسلام الصافية قد اتسخت في القرون الأخيرة بأصداء النظريات الباطلة والافكار العقيمة الجامدة ، كما لا يخفى على القاريء اللبيب المستبصر .

٢ ـ الاسلام ودعوته

فالاسلام ـ كما يفهم من كتاب الله وسنة نبيه ، وكما بينه بوجه خاص القائمون بهذه الدعوة في مؤلفاتهم وصحفهم ومجلاتهم ـ هو الدين الذي لا يتقبل الله ولا يرضى من عبادة ديناً سواه [ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ٣ : ٨٥] . والدين هو المنهاج الوحيد الحقيقي الصالح للحياة البشرية والطراز المخصوص للتفكير والعمل في هذه الحياة الدنيا . وزد على صالح انه منهاج عملي عام جامع ، محيط بالحياة البشرية ، بجميع نواحيها ، الفردية منها والجماعية ، ولا يختص بقطر دون قطر أو زمن دون زمن أو أمة دون أمة .

فالاسلام ، كما يفهم من قوله تعالى : إن الدين عند الله الاسلام [٣ : ١٩] ، هو المنهاج الوحيد الصحيح المرضي عند الله في هذه الحياة الدنيا ، الكافل للحياة البشرية جمعاء ، المحيط بها في كل عصر وفي كل

زمان . وماهو ، كما يزعم بعض المنخدعين بترهات الغرب وأباطيله ، بعبارة عن علاقة فردية أو ذاتية بين العبد وربه ، ولا صلة له بنظم الملك والعمران البتة . و كذلك ليس الاسلام ، كالبودية والنصرانية وغيرها من الديانات بمجموعة من شعائر معينة وطقوس معلومة ، يؤديها العبد بينه وبين ربه في جزء محدود من أوقاته ، ثم يكون حراً طليقاً في معاملاته وشؤون حياته يتصرف فيها كيف يشاء . بل الحق أنه نظام الحياة البشرية بأسرها الفردية منها والجماعية ، وأنه يدعو البشر قاطبة الى التزام مثل الحياة العليا ويهيب بهم على اختلاف منازعهم ومشاربهم إلى اتباع الطريق الاقوم وينير لهم الطريقة المثلى في كل فرع من فروع الحياة وشعبة من شعبها ، من الشؤون الفردية والعائلية إلى المسائل السياسية والمدنية ومشاكل الحرب ومؤتمرات الصلح العالمية .

فهذه هي فكرة الاسلام النقية الخالصة ، وهذا هو معني الدين الحقيقي . وماهو من قبيل الفكرة المفكرة أو العقيدة الفارغة . وإنما هو منهاج عملي جاء به محمد بن عبد الله ، الرسول النبي الامي ، ﷺ ، وأمر الله عباده جميعاً أن يتبعوه وينفذوا ما يشتمل عليه من الخطط البينة والأساليب الواضحة المستنيرة .

وهذه هي العبودية التي لم يخلق البشر إلا لأجلها ، وهذا هو المراد من واجب إقامة الدين التي أمر الله بها أنبياءه ثم المؤمنين جميعاً ، حيث يقول ، عز من قائل ، وهو أصدق القائلين : ـ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى

وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه [٤٢ : ١٣] .

فقد تبين لك مما تقدم ما يدعو إليه الاسلام من عقيدة سامية ونظم للحياة جامعة . وماهي رسالته الحقيقية التي يريد أن يبثها في الارض ويعمم خيراتها في جميع أنحاء المعمورة . ولا جرم أن الامة الاسلامية ما أخرجت [١] للناس إلا لتبليغ هذه الرسالة ونشر تلك العقيدة والنظم بين العالمين ؛ والتاريخ يشهدوالآثار الحية الخالدة تنطق بأنها قامت بواجبها خير قيام وأدتها احسن تأدية في أول أمرها ، في عهد السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، ولكنه مما يزعم الفؤاد ويملأ القلب حزناً وكمداً أن الامة قد غفلت عن هذه الدعوة في القرون المتأخرة ، ولاتزال غافلة عنها ، متهاونة في شأنها ، مقصرة في جنب تلك الفريضة الخطيرة التي ألقيت على كواهلها . فما افقر الامة وما أحوجها الى حركة اسلامية خالصة تقوم بالدعوة من جديد وتستأنف السير إلى الغاية المنشودة بجد وثبات ، تشهد شهادة الحق بأقوالها وأعمالها ، وتبين للناس دين الله الخالص ومافيه من خير الدنيا والآخرة وتعرض عليهم نظامه العالمي الشامل ، الكافل للسعادتين الدنيوية والاخروية والضامن للرفاهيتين : العاجلة والآجلة .

وذلك كله بحجج بينة وبراهين ساطعة وأساليب جديدة وطرق مؤثرة حكيمة ، وفي أدواء القلوب ناجعة ، توافق عقول الناس وأفكارهم

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : [٣ : كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله] .

في هذا الزمان وتلائم طبائع الرجال وأذواقهم في هذا العصر الذي تغيرت فيه الأذواق وتبدلت الاوضاع .

١ - المطالب الثلاثة :

آ - الاول ،

فاذا أردنا عرض هذه الدعوة ، دعوة الدين والحق والاسلام الخالص واجمال غايتها واهدافها في كلمات قليلة ، يمكننا ان نقسمها الى ثلاثة مطالب مهمة ونحددها في ثلاثة بنود أساسية وهاك بيانها :

(١) دعوتنا للبشر كافة والمسلمين خاصة ان يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا إلها ولا رباً غيره .

(٢) ودعوتنا لكل من اظهر الرضا بالاسلام ديناً أن يخلصوا دينهم لله ويزكوا أنفسهم من شوائب النفاق واعمالهم من التناقض .

(٣) ودعوتنا لجميع اهل الارض ان يحدثوا انقلاباً عاماً في اصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الارض فساداً ، وان ينتزعوا هذه الامامة الفكرية والعملية من ايديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علواً في الارض ولا فسادا .

وهذه المطالب الثلاثة واضحة في نفسها وضوح الشمس في رابعة النهار ، ولكنه من دواعي الاسف انها انكسفت وتوارت حقيقتها بأستار من الجهل والغفلة والجمود ، حتى ان المسلمين أنفسهم اصبحوا بحاجة الى ان تشرح لهم هذه المطالب ويبين لهم مرماها ومغزاها ، دع عنك غير المسلمين والذين لم يتسن لهم معرفة دعوته وتعاليمه .

هذا ، فالعبودية ـ لله الواحد الأحد ـ التي ندعو اليها ، ليس المراد منها أن يقر العبد بعبوديته تعالى شأنه ثم يبقى في حياته العملية حراً طليقاً ، كما كان من قبل في حياته الجاهلية . وكذلك ليس المقصود من عبودية الله أن يعتقد العبد كونه تعالى خالقاً لكون ، رازقاً لمن في الارض ، مستحقاً للعبادة من جميع خلقه ، من غير أن يكون له سلطان في هذه الحياة الدنيا ومسائلها وشؤونها المتعددة المتشعبة . وأيضاً ليس من معنى العبودية ان تقسم الحياة الى قسمين : قسم يتعلق بالدين أو الامور الدينية وقسم يتصل بالدنيا وشؤونها العديدة المتنوعة ، وان تنحصر العبودية لله في القسم الديني الذي لايخرج ، حسب المصطلح الشائع ، عن دائرة العقائد والعبادات والمسائل التي لها علاقة بالحياة الفردية وقوانين الاحوال الشخصية . اما الحياة الدنيوية وشؤونها المتشعبة وفروعها المتنوعة من مسائل العمران والسياسة والاقتصاد والآداب والاخلاق ، فلا سلطان فيها لله الواحد الاحد ولا نفوذ لاحكامه في دائرتها ، والعبد حر في بابها يفعل فيها مايشاء ويصنع لنفسه من نظم العمران والملك مايريد أو يختار من النظم الوضعية مايحب ويرضاه .

فالقائمون بدعوة الاسلام في هذه البلاد ـ وطبعاً في سائر اقطار العالم ؛ لان الدين واحد لم يتغير والكتاب واحد لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ يرون ويعتقدون أن معاني العبودية هذه كلها باطلة من أساسها ويريدون القضاء عليها وقطع دابرها كما يريدون استئصال نظم الكفر والجاهلية واجتثاث شرورهما من جذورهما ، لان هذه المعاني وتلك

التعابير هي التي شوهت وجه الحقيقة ومسخت فكرة الدين مسخاً .

والذي نراه ونجزم به ونعتقده وندعوا الناس اليه أن العبودية التي دعت اليها رسل الله الكرام من لدن أبي البشر آدم عليه السلام الى سيدنا وسيد المرسلين وخاتمهم محمد الرسول الامي ﷺ ، المراد بها أن يقر ويعتقد « أنه ما من اله الا الله ، وأنه الله الفرد الصمد الحاكم بين عباده السيد المطاع في بريته ، المشرع للدستور والقوانين والمالك لامورهم ، المتصرف في شؤونهم والمجازي على أعمالهم : وأن يسلم نفسه لذلك الله العزيز المقتدر ويخلص دينه له تعالى جده ويذعن لعبوديته في كل شأن من شؤون حياته ،الفردية منها والجماعية ؛ الخلقية منها والسياسية ،الاقتصادية منها والاجتماعية . وبهذا المعنى ورد في التنزيل ، قوله عز من قائل :

يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة [البقرة ٢٠٨] الذي يأمر فيه عباده : أن ادخلوا في دين الله كافة ، بمجموع حياتكم ، لا يشذ عن سلطانه شيء ولا يند عن دائرة نفوذه جزء من أجزائها ، فلا يكن من شأنكم في ناحية من نواحي حياتكم ان تتجردوا عن عبوديته الشاملة ، فتحسبوا أنفسكم أحرارا في شؤونكم ، تختارون من المناهج والاوضاع ما تريدون أو تتبعون من النظم والقوانين الوضعية المستحدثة ماتحبون . وهذا هو معنى العبودية الذي نبثه ونعممه وندعو البشر كافة ، المسلمين منهم وغير المسلمين ، الى قبوله والايمان به والاذعان له .

ب ـ الثاني

والمطلب الثاني من هذه المطالب الثلاثة « أننا نطالب الذين يؤمنون

بالاسلام او يظهرون إيمانهم به ان يزكوا أنفسهم من شوائب النفاق وأعمالهم من مظاهر التناقض » .

والمراد بالنفاق في هذه الكلمة ان يدعي الرجل الايمان بنظام خاص ويتظاهر بالانتساب اليه والتمسك بأذياله ، ثم يعيش راضياً مطمئناً في نظام للحياة مناقض للنظام الذي يؤمن به ولا يجد ويجتهد في قلب ذلك النظام المعارض لعقيدته التي يؤمن بها واستبدال النظام الصالح به ، بل ربما يبذل جهوده ويستنفذ قواه ومساعيه في توطيد دعائم ذلك النظام الفاسد الجائر او اقامة نظام باطل آخر ، يسد مسد ذلك النظام الجائر الذي يعيش في كنفه . هادئاً مغتبطاً . فمثل هذا الطراز من الناس كمثل المنافق ، فان الايمان بنظام للحياة ثم الاطمئنان بنظام آخر مناقض له ، شيء يمجه السمع ويأباه العقل ولا يرضاه الشرع . فمن مقتضيات الايمان الأولية ان يود المرء من صميم فؤاده ان تكون كلمة الله هي العليا . وان يكون الدين كله لله ، وان لا يبقى في الارض منازع ينازع حاملوا لواء الاسلام في دعوته وأداء مهمته للانسانية ، وان لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار اذا رأى مايصيب ذلك الدين في صميمه او ينقص شيئاً من سلطانه أو دائرة نفوذه ، وكذلك من امارات الايمان ان يظل الرجل قلقاً مضطربا ، لا يهنأ له بال ولا يطيب له عيش حتى يرى ذلك النظام العادل قد استرد أبهته وسلطانه وعادت أعلامه خافقة وكلمته نافذة بين الناس .

هذا من علامات الايمان وإماراته التي لا يكابر فيها الا متعنت ، أو جاحد ، واما ان يعيش المرء راضياً مقتنعاً في النظم العصرية الباطلة

التي لاسلطان فيها للدين ، والتي جعلته منحصراً في دائرة ضيقة من مسائل الزواج والطلاق والارث ، التي لاتضر بتلك النظم السائدة الجائرة ولاتدخل في حدود إمرتها وسلطانها – اما ان يعيش المرء مطمئناً بمثل تلك النظم ، قانعاً مغتبطاً في كنفها ، ولايبقى له عرق ولايخفق له قلب فلعمر الحق ان مثل هذه الصنيعة من امارات النفاق ومن صميمه من غير شك .

وربما يجد مثل هذا الرجل عوناً ومساعدة من بعض الفقهاء والمشايخ ويبقى مسلماً في سجل الاحصاء ودواوين الافتاء ، لكن روح الشريعة تأبى الا ان تحكم على مثل هذه الصنيعة بالنفاق . ولو أفتي المفتون بخلاف ذلك ، حرصاً على المعاش الزهيد ومتاع الدنيا الزائل .

فالذي نريد من المسلمين والذين يتظاهرون بالاسلام وندعوهم اليه ان يخلصوا دينهم لله ويزكوا أنفسهم من شوائب هذا النفاق . ومن حق هذا الايمان ان يتمنى المرء من سويداء قلبه ان تكون نظم الحياة والملك ومناهج الاقتصاد والاجتماع التي جاءت بها رسل الله ، مرفوعة الرأس عاليه الذرى نافذة في الدنيا ، لاينازعها أحد ولايعوقها عائق . فكيف بمن يرضى بها ويعيش في كنفها راضياً مغتبطاً ؟

اما من يتجرأ على السعي وراء توطيد دعائم النظم الباطلة والجد لاعلاء كلمتها . فذلك أعرق في الضلال وأشد تمادياً في الغي . أعاذنا الله وإياكم من شرور أمثاله .

أما « التناقض » الذي نطالب المسلمين جميعاً – من غير فرق بين

من نشأ في بيت مسلم ومن دخل في الاسلام بنفسه بتزكية أعمالهم من مظاهره ، فالمراد به ان يكون عمل الرجل مناقضاً لما يدعيه بلسانه ويظهره في أقواله ، كما أنه من التناقض في صميمه ان تختلف اعمال المرء باختلاف شؤون الحياة ويناقض بعضها بعضاً . فليس من الاسلام في شيء ان يتبع الرجل أوامر الله ويتمسك بأهداب الشريعة في ناحية من نواحي حياته ويعصي أمر الله ويتعدى حدوده في الشعب الاخرى من شعبها ، ومن مقتضيات الايمان ان يسلم المرء نفسه لله وان يدخل بمجموع حياته في كنف الدين الحق ، لايعصى الله في شيء من أوامره ولا يصدر عنه شيء ينقص من تلك العبودية الشاملة والاتباع الكامل لدينه وشريعته ومن امارات المؤمن ان يكون مصطبغاً بصبغة الله ، لايتأثر بشيء من مظاهر الدنيا الفاتنة ولايتنكب الصراط السوي في شيء من حياته وأعماله . ومن علاماته ان يستغفر الله ويتوب اليه اذا بدرت منه بوادر تنم على الخطأ والعصيان او حدثت منه فلتات قد تؤدي الى الشر والطغيان .

أما أن يدعي الرجل الايمان بالله ويصلي ويصوم ويؤدي شعائر معينة محدودة ثم يحسب نفسه حراً طليقاً لايتقيد بقيد ولايذعن لأمر الله في دوائر الحياة العملية الاخرى ، فذلك هو التناقض الذي ينافي العبودية .

ومارأيك في هذه الشعوذة التي يرتكبها المسلمون اليوم في جميع أنحاء العالم ؟ يتشدقون بالايمان بالله واليوم الآخر ويتظاهرون

بالاسلام ويتسمون بسمته .

واذا دخلوا في معترك الحياة العملية وخاضوا غمار السياسة وبحثوا في مسائل الاقتصاد والاجتماع ، لم تجد عليهم مسحة من تعاليم الاسلام ولا اثر من آثار أتباعهم للدين الحق والشريعة الكاملة . وأي شعوذة أكبر من ذلك وأشنع ؟ يقرون صباح مساء بأنهم « لايعبدون الا الله ولايستعينون الا إياه » وبعد ذلك لايتحرجون من ان يتبعوا كل ناعق ويدينوا بكل نظرية او فكرة وان يخضعوا لكل جبار متكبر في أرض الله ويستسلموا لأمره ويذعنوا لجبروته .

فذلك هو التناقض وهذه علاماته . وهذه أس جميع أمراض المسلمين الخلقية والاجتماعية . ومادامت فيهم هذه الأمراض الخلقية الفتاكة ، لايرجي إبلاء لهم من مرض الانحطاط والذل والتقهقر ولاأمل في انتشالهم من وهدتهم التي أودت بهم ولاتزال تهوي بهم الى مهواة الشقاء والمهانة .

ومما يذوب له القلب كمداً وحزناً ان علماء المسلمين ومشايخهم والمالكين لأزمة أمورهم جعلوهم يستفيقون منذ زمان أنهم يكفيهم من أمور دينهم ان يشهدوا شهادة الحق ويصلوا ويصوموا ويؤدوا المناسك والشعائر المحدودة المعينة .

ولايضرهم في شيء ولايمنعهم سبل النجاة ولايسد في وجوههم أبواب الجنة اذا اقترفوا بعد ذلك ماشاؤوا من المنكرات واتبعوا من أرادوا من أئمة الكفر والضلال او اختاروا ماشاؤوا وشاءت أهواؤهم

من الافكار والنظريات الزائفة . وقد بلغت بهم الوقاحة والجرأة على الدين ان رأوا الاتسام بسمه الاسلام يكفيهم مؤونة القيام بواجبات الشريعة الملقاة على كواهلهم ، حتى ان أئمة الضلال منهم في هذا العصر قد تقدموا خطوة أخرى وزعموا ان التسمي بأسماء المسلمين كاف لتدوين أسمائهم في سجل الاحصاء الرسمي وتبوؤ مناصب الحكم والامر في الحكومات المسلمة وغير المسلمة ، كأنهم هم الذين نقل عنهم القرآن : (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) البقرة : ٨٠) ومن نتائج هذا الداء العضال المتمكن من أجساد المسلمين وأرواحهم ، أنك تراهم يدينون بالشيوعية والنانسية والديمقراطية وأمثالها من النظريات المستحدثة المستوردة من الغرب ويتبعون معالم الظلمة الفجرة الذين يتكبرون في أرض الله بغير الحق ، سواء كانوا من ملوك المسلمين او غيرهم ، ولا يتحرجون من ذلك ولا قلامة ظفر ، ولا يشعرون بأن هذه النظريات وتلك الآراء وهؤلاء الطغاة المتكبرين يناقض طريقها وطريقهم طريق الاسلام ، وان مسالكم المعوجة والصراط المستقيم على طرفي نقيض .

فمن أهم مبادىء دعوتنا التي نطالب بها كل مسلم ان يكون حنيفاً مسلماً منقطعاً لله ، متجرداً من كل عصبية ، صارفاً وجهه عن كل فكرة معارضة لفكرة الحق وان يظل مثابراً على ذلك ، مواصلاً جهوده للانقطاع عن الطرق الموجعة والمناهج الزائفة التي ما أنزل الله بها من سلطان .

ج – الثالث

واذا عرفت هذا ، فلايخفي عليك مانريد بالمطلب الثالث من مطالبنا الثلاثة الاساسية : –

« ودعوتنا لجميع أهل الارض ان يحدثوا انقلاباً عاماً في أصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الارض فساداً ، وان تنتزع هـذه الامامة الفكرية والعملية من أيديهم حتي يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ويدينون دين الحق ولايريدون علواً في الأرض ولافساداً » فتلك نتيجة طبيعية لما أسلفنا من قبل من معاني العبودية الكاملة واخلاص الدين لله وكون الأنفس طاهرة من شوائب النفاق والاعمال بريئة من مظاهر التناقض ، كما لايخفي على اللبيب المتفطن ان ذلك لايتأتى الا باحداث انقلاب عام في نظام الحياة الحاضر الذي يدور قطبه حول رحي الكفر والالحاد والفسوق والعصيان ، والذي يديره ويدبر أمره ويسير دفة شؤونه رجال انحرفوا عن الله ورسوله واستنكفوا عن عبادته واستكبروا وتكبروا في أرض الله بغير الحق .

فمادامت أزمة امور العالم بأيدي هؤلاء ومادامت العلوم والآداب والمعارف والصحف والتشريع والتنفيذ والشؤون الدولية والمالية والمسائل التجارية والصناعية تتحرك دواليبها بحركاتهم وتتمشي عجلاتهـا حسب اشاراتهم وارشادهم فمادامت الامور كذلك لا يمكن لمسلم ان يعيش في الدنيا مسلماً ، متمسكاً بمبادئه ، متبعاً للشريعة الالهية منفذاً لقوانينها في حياته

العملية ، فانه من المستحيل ان يتبع الرجل الدين الالهي الكامل المحيط بجميع نواحي الحياة وشعبها ، وهو يعيش في بلاد تدين لقانون غير قانون الشريعة وتسير على منهاج ، غير المنهاج المرضي عند الله ؛ بل يتعذر عليه ان يتعهد تربية اولاده وتلقينهم مباديء الدين الالهي وتعاليمه وان ينشئهم على الاخلاق المرضية والآداب الاسلامية الزكية ، لأن نظـــام الكفر والالحاد الذي يعيش في كنفه يسد في وجهه سبيل التربية الاسلاميـة ، والبيئة الكافرة التي يتنسم هواءها ، تأبى عليه الا أن يحذو حذو القوم ويتخلق بأخلاقهم ويتخلى عن مقومات دينه وخلقه تدريجياً .

وزد على ذلك انه من واجب العبد المسلم المخلص لله دينه ان يطهر أرضه من أدناس الفساد والطغيان ويقيم فيها نظاماً معتدلاً على دعائم الصلاح والرشاد . ومن الظاهر البين أنه لا يتسنى الظفر بهذا المقصود ولا تنال هذه البغية السامية ، مادام زمام أمور العالم بيد الطغـاة والمفسدين في الارض ، يديرونــــه كيفما يشاؤون ويتصرفون في شؤونـه حسب ما يريدون .

وقد تحقق لنا بالتجربة في هذا الزمان ان المتكبرين في أرض الله بغير الحق والسادرين في غلوائهم بغيـاً وعدوانا ، هم العقبـة الكبرى في سبيل اقامة نظم الصلاح والنصفة . وانهم هم الذين يحولون دون توطيـــد دعائم السلام والعدل ، وكذلك ثبت لنا باليقين والبرهان والمشاهدة انه لا أمل في صلاح العالم ولا رجاء في استقامة الامور على موازين الرشـاد والحق ، مادام أولئك الطغـاة المنحرفون عن الله ورسوله يتصرفون في

شؤون الملك ويديرون اموره ويشرفون علـى جليلها وصغيرها . فمن مقتضيات اسلامنا وعبوديتنا الخالصة لله الواحد الاحد ان نجد ونجتهد ونبذل اقصى مافي استطاعتنا من الجهود المتواصلة والمساعي المتتابعة للقضاء على زعامة أئمة الكفر والضلال واجتثاث النظم الباطلة من جذورها واحلال الامامة العادلة والنظام الحق محلها . وربما يسائلني القاريء في هذا المقام فكيف السبيل الى الانقلاب في الزعامة والامامـة ؟ فالظاهر ان هـذا الانقلاب لايحصل ويتأتى بمجرد الاماني والاحلام المعسولة . ومن سنن الله في أرضه أنها لا بد لها من رجال يسوسون امرها ويديرون شؤونها .

وهذا التدبير وتلك السياسة بحاجة الى صفات وخلق ، لابد لكل من يريد ادارة شؤون العالم وتدبير امرها ، من ان يتصف ويتحلى بها . وكذلك من سنة الله في خلقه ان يفوض تدبير أمور الارض وتسيير دفة شؤونها الى من شاء من غير الصالحين والمؤمنين ، ان لم تكن في أرضـه جماعة مؤمنة صالحة متصفة بتلك الصفات ومتخلقة بتلك السجايا اللازمة التي لابد منها لكل من يتبوأ منصب الزعامة والامارة .

وأما اذا وجدت جماعة صالحة مؤمنة بالله ورسوله ، متحلية بتلك الأوصاف والاخلاق الجوهرية التي لابد منها للقيام بالملك ولا مندوحـة عنها في تسيير شؤون العالم ـ اذا وجد مثل هذه الجماعة التي لاتتحلى بتلك السجايا اللازمة فحسب ، بل تفوق فيها الطغاة المتكبرين الذين استبـدوا بمناصب الامر والحـكم ، فلا نرى المشيئة الربانية والسنن الالهية بمثابة من حب الظلم والفساد أن تؤثر اولئـك الجائرين المفسدين في الأرض وتدع

أزمة امور العالم تبقى في أيديهم الآثمة الغاشمة يعبثون بها كما يشاؤون ويتصرفون فيها كما يريدون وتريد أهواؤهم وشهواتهم . فلا تنحصر دعوتنا اذن في التمني والرجاء والابتهال الى الله ان يقطع دابر الجور والفساد في الارض ويفوض أمر دنياه الى المؤمنين الصالحين من عباده ، بل دعوتنا للعالم بأمره والبشر قاطبة أن يعني ويهتم باعداد جماعة صالحة مؤمنة بالله ورسوله ، مستمسكة بالاخلاق الزكية الفاضلة في جانب ، ومتصفة بالصفات والمزايا السامية ، متحلية بالسجايا والطباع التي لابد منها لتدبير شؤون الدنيا وتنظيم أمور العالم في جانب آخر ، لاتتصف هذه الجماعة الصالحة بتلك المزايا والطباع فحسب ، بل تعلو وتفوق أئمة الكفر والضلال وأعوانهم - الذين تراهم مستبدين بأزمة أمور الدنيا اليوم - في تلك المواهب والخلال المؤهلات اللازمة للاضلاع بأعباء الملك وتدبير شؤون العالم . هذه هي الدعوة الدينية الخالصة التي ظهرت من بين الحركتين المتطرفتين المنحرفتين عن جادة الحق : حركة القومية المسلحة وحركة الوطنية الهندية .

٣ - ظهور الدعوة :

ظهرت هذه الدعوة الدينية في السنين الأولى من العقد السادس من السنة الهجرية - أي في بدء العقد الرابع من السنة الميلادية - ، ظهرت باديء ذي بدء باصدار مجلة (ترجمان القرآن) الشهرية التي عني باصدارها وتحريرها الاستاذ أبو الاعلى المودودي ، وهو في مقتبل الشباب لم يجاوز الثلاثين من عمره . أصدر المجلة لتحقيق هذه الغاية السامية وابراز فكرة

الاسلام الى ميدان العمل وعرضها على أنظار الناس واضحة محققة ،ولتنزيه العقول والأفكار من أدواء التقليد والجمود والخمول وتنقيتها من شوائب التفرنج والزندقة والالحاد .

وأول ماوجه همه اليه صاحب « ترجمان القرآن » في مقالاته وكتاباته هو تلقيح العقول وتنقيح الافكار وتغذيتها بالآراء الناضجة فظل مثابرا على ذلك بضع سنوات . مكباً على عمله يدرس ويكتب وينشر آراءه ويقرر نظرياته الى ان أثمرت مساعيه وكادت تؤتي أكلها .

وقد أحسن اذ جعل جل همه خلال هذه المدة منحصراً في دراسة الاسلام من ينابيعه الصافية وافراغ تعاليمه السامية في قالب عصري يوافق أذواق أهل العصر وطبائعهم . وكذلك عني بوجه خاص لكشف النقاب عن عورات الزنادقة والملاحدة الذين أشربوا حب الغرب ونشأوا مولعين بتتبع معالمه . وأيضاً جرد قلمه السيال لتفنيد مزاعم منكري الحديث والدعاة الى الاقتصار على الكتاب العزيز والانحراف عن السنة النبوية . وكذلك مافاته في كتاباته التنبيه على مزالق العلماء الجامدين والرد على ماتشبثوا به من الفروع وما تشاجروا فيه من مسائل لاأصل لها في الشريعة .

وجملة القول أن بضع السنين الاولى من مجلة (ترجمان القرآن) كانت أعوام نشر الفكرة وبث مبادىء الدعوة ، كأن صاحبها مهد السبيل بذلك وهيأ الاسباب لما كان يريده من اقامة حركة دينية شاملة ، وكأن مساعيه في تلك الاعوام كانت بمثابة نواة للحركة الاسلامية الخالصة التي

ظهرت بعد عشر سنين من ظهور مجلة (ترجمان القرآن) . وبينما كان صاحب مجلة (ترجمان القرآن) مشتغلاً بنشر مبادئه وأفكاره ، مكباً على تدوين نظرياته وتبيين ما استخرجه من معين الكتاب والسنة من آداب المجتمع وأصول للملك ومبادىء لنظم العمران والاقتصاد ، والناس يكادون يلتفون حوله ، يتأثرون بكتاباته ويتشبعون بآرائه وافكاره - بينما كان الأمر على ذلك ، اذ انفجر بركان انقلاب خطير في السياسة الهندية عام ١٩٣٧ م / ١٣٥٦ هـ ، حينما انتقل جزء من الحكم في المقاطعات الى الأهالي وتبوأ الوطنيون مناصب الوزارة والامرة في سبع مقاطعات من مقاطعات الهند . قلت : « انفجر البركان » لأن انتقال الحكم الى الاهالي وتبوء ممثليهم وزعمائهم مناصب الحكم والامارة قد كان بمثابة انفجار البركان في الحقيقة ، لأنه قد انكشفت به عورات الهنادك الوطنيين وظهرت نياتهم الخبيثة وتجلى للعيان ما كانوا يضمرونه من سوء القصد بازاء المسلمين .

وقد تنبه لهذا البركان وما سيتبعه من انفجارات ووقائع داميات الاستاذ أبو الاعلى المودودي في حينه وأجمع أمره لايقاظ المسلمين من سباتهم وتنبيههم من غفلتهم القاضية عليهم ووطد عزيمته على ارشادهم الى سلوك الطريق الأقوم الذي ينجيهم من وقائع الهلاك في هذه الدنيا وينضر وجوههم عند الله يوم القيامة .

فبدأ بسلسلة مقالات متتابعة في مجلته ، تكلم فيها عن ماضي المسلمين في هذه البلاد وحاضرهم بفصل القول في مافاتهم في الغابر من الدعوة الى الدين الخالص والقيام بشهادة الحق وحذرهم سوء السياستين -

الوطنية والقومية في العاجل والآجل - قد جرى في كتابة هـــذه المقالات ثلاث سنين متوالية ، لايلوى خلالها على شيء ولايثنيه عن ذلك معارضة المخالفين ولامعاداة المعاندين . وذلك في ثلاثة أدوار :

ففي الدور الاول اقتصر على تنبيه المسلمين على مافاتهم من واجب الدعوة وشهادة الحق في الغابر وماجرت عليهم هذه الغفلة من وبال وشقاء، واهتم ببيان الطريقة المثلى التي يجب عليهم سلوكها واتباعها في كل حال ؛ وكذلك حذرهم سوء العاقبة والمصير السيء في الدنيا والآخرة ، إن آثروا المؤتمر الوطني الهندي وسياسته العوجاء .

وفي الدور الثاني حمل على المؤتمر الوطني الهندي وسياسته الوطنية الهندية ونظريات القومية الغربية والوطنية الهندكية المشتركة ، حمل عليها حملات منكرة شديدة كشف فيها عن فضائحها وأماط اللثام عن مزاعم الهنادك التي كانوا يخفونها وراء ستار من القومية والاستقلال ، وأردفهـا بمقالات بين فيها أخطاء نظرية القومية العنصرية او الوطنية الاقليميـة . مزوداً بالحجج الساطعة والبراهين المقنعة . والذي ساعده على كل ذلـك وجعل لكلمته قوة ونفوذا ، هو استقاؤه من الينبوعين القديم والجديـد وتضلعه من الثقافتين الاسلامية والعصرية ودراسته الواسعة للفلسفة وعلوم الاقتصاد والقانون والسياسة العصرية فضلا عما أوتيه من نظرة ثاقبـة في معارف الكتاب والسنة وحذق في أسرار الشريعة وتفهم كامل لطبيعـة الدين القويم .

ومن ههنا يعرف السبب الذي منع النـــاس عن الرد عليـه

وعلى أفكاره في هذا الشأن . وكأني بهم اعترفوا بصدق لهجته ونصوع حجته ووضوح منهجه في هذا الشأن والذي يشهد به الجميع من بين مادح لأفكاره وقادح في شأنها ان مقالاته هذه هى التي قصمت ظهر فكرة الوطنية الهندية وأوصدت عليها جميع الابواب والمنافذ التي كانت تدخل الى قلوب الشبيبة المسلمة وأذهانهم ، ولولاها ، لما كان في وسع الرابطة المسلمة (Muopin Peagud) والقائمين بها ان يقاوموا حركة الوطنية الهندية ويجاذبوها بجبل . وبينما كان الاستاذ المودودي في الدور الثاني من كتابة هذه المقالات ، والمعركة حام وطيسها بينه وبين الوطنيين المسلمين من المفتتنين بالمؤتمر الوطني الهندي والمعجبين بدعوته ، اذ بدأت الرابطة المسلمة تتنكب الصراط السوي ودعوتها الى القومية المسلمة أو الاسلام الجغرافي – ترفع رأسها ، والقائمون بها يعربون عن آرائهم المريضة وأفكارهم الواهيـــة من تتبع الغرب في الدستور ونظم الملك وتقليد الكماليين المتفرنجين في الثقافة والآداب ، مما سبق لنـا ذكره بشيء من التفصيل . ولما رأى الاستاذ المودودي نجوم قرن الالحاد والفوضى من هذه الناحية والسعي وراء هدم بنيان الدين باسم الدين وشاهد بأم عينه هـذا الخطر المحدق بالاسلام ، شمر ذيله للتنديد بالقومية العنصرية وانبرى لتفنيد مزاعم المتفرنجين ودحض شبهات المفتنين بالكماليين ، فأنذر بني جلدتـه مايحاك لدينهم من الدسائس من فوق منابر المسلمين وبصرهم بعواقب مايدبر لهم من المؤامرات باسم الدين والملة ومن ههنـا يبتديء الدور الثالث من تلك المقالات الرنانة التي أقامت البلاد وأقعدتها وأحدثت انقـلابا فكريا

بين المسلمين . وفوق كل ذلك ألجأت رجالات المسلمين جميعاً الى التفكير في مصيرهم ومستقبل شؤونهم ، بل أرغمهم عليه ارغاماً .

ظهرت هذه السلسلة من المقالات في ثــلاث سنين (١٣٥٦ – ١٣٥٩ هـ) وطبعت [١] ووزعت عشرات الالوف من النسخ ، في طبعات عديدة متتابعة ، وكذلك أعادت الصحف السائرة اليومية والاسبوعيــة نشرها تباعا في صفحاتها ، الى أنه لم يخل بيت من بيوت المسلمين يقرأ أهلها ويكتب الا وقد وصله شيء من تلك السلسلة .

٤ – تأسيس الجماعة :

فكان من نتيجة هذه المقالات والانقلاب الفكري الذي أوجدته وبذرت بذوره في نفوس الشبان المتعلمين ان التف الناس حول الكاتب ولتشبعوا بفكرته وتحمسوا للدعوة اليها ، فجعلوا يرغبونه ويلحون عليه أن يتفرغ لهذه الدعوة وأن يقودهم الى منازل الجهاد والكفاح في سبيلها ، لكنه آثر أن يتريث في الامر ، فأهاب اولاً بالجمعيات المسلمـة والمشرفين عليها أن يلبوا هذه الدعوة الخالصة ويتلقوهـا بالقبول ويصرخوا بوجوههم عن النظريات الباطلة ويضربوا بنعرات الاقليمية والعنصرية عرض الحائط وأن يبذلوا جهودهم ومساعيهم لاقامة الدين وأداء شهادة الحق . اهــاب بهؤلاء وأولئك ودعاهم جميعاً الى التجرد عن العصبيات واسلام وجوههم لله العزيز المقتدر وارصاد قواهم ومواهبهم كلها للقيام بدعوة الاســلام

(١) طبعت هذه المقالات في ثلاثة مجلدات مستقلة باسم « المسلمون ومعضلات السياسة الحاضرة [مسلمات اورحو جوده سياسي كشمكش] .

واحيائها من جديد .

ولما أن وجد زعماء المسلمين والمشرفين على جمعياتهم والمتزعمين لحركاتهم السياسية ممعنين في غيهم ، غافلين عن فريضة اقامة الدين وأداء شهادة الحق ، وأدرك ان الذين أصلب بهم ولفت انظارهم الى الاضطلاع بأعباء هذه الفريضة ، لايعيرونها سمعهم ولا يلتفتون اليها في قليل ولا كثير لما وجد الامر ، كذلك ، اعتزم الامر وتأهب للقيام بالدعوة والتفرغ لها والاستماتة في سبيلها .

ثم أهاب بالذين يوافقونه على المبدأ ويجدون في نفوسهم استعداداً ومقدرة للاضطلاع بأعباء هذه المهمة الخطيرة والجهاد في سبيلها ومقاومة جميع الاخطار والشدائد التي تنتظر مثل هذه الدعوات الالهية التي تقوم على دعائم انكار الذات والكفر بالطواغيت والاستسلام الكامل لله العزيز والاذعان لاوامره وقوانينه فاجتمع خمسة وسبعون رجلاً في اول شعبان سنة ١٣٦٠ هـ / اغسطس عام ١٩٤١ بمدينة لاهور وتفاوضوا في الامر وتشاوروا فيه . وبعد ما قتلوا المسألة بحثا وقلبوا وجوه الرأي والنظر فيها ، اجتمعت كلمتهم على تأسيس جماعة تقوم بهذه الدعوة - أي دعوة اقامة الدين وما يلزمها من تنفيذ القانون الالهي في ارضه وتوطيد نظم الملك والعمران والاجتماع والاقتصاد على دعائم العدالة الاجتماعية والبر والتقوى التي جاء بها الاسلام ودعا العالمين جميعاً الى اتباعها والسير عليها . فأسسوا « الجماعة الاسلامية » (جماعت اسلامي) وانتخب الاستاذ السيد أبو الاعلى المودودي القائم بالدعوة منفرداً الى ذلك اليوم - أميراً لهذه الجماعة باتفاق من

الحاضرين ، واشترطوا في دستور الجماعة أن تسير الجماعة ، من وضع الخطط ورسم القواعد الى سائر مناهجها واعمالها على أسس الاسلام الخالصة ، لا تشوبها شائبة من الديمقراطية العصرية أو نظم الدكتاتورية أو أوضاع الملكية الشخصية الموروثة في بلدان المسلمين وحكوماتهم . وانما أرادوا بذلك أن تكون الجماعة الداعية الى اقامة نظام الاسلام وتنفيذ التشريع الالهي الخالص ، سائرة على المناهج الاسلامية الخالصة في اعمالها وأوضاعها الداخلية من اول امرها ومبتدأ حياتها .

٥ – تربية الاعضاء ونشر الدعوة

بدأت الجماعة نشاطها من شعبان ١٣٦٠ ه ، وأخذت تبث دعوة الاسلام وتنشر مبادئها الخالصة النقية بين المسلمين وغير المسلمين وتدعوهم جميعاً الى الاستمساك بهذا المبدأ الجليل من اخلاص الدين لله وأداء شهادة الحق قولاً وعملاً والتزام أوامر الشريعة ونواهيها في جميع شعب الحياة ، قامت بهذه الدعوة جماعة من المؤمنين المخلصين ملئوا غيرة وحمية ، طهروا أنفسهم من شوائب النفاق وزكوا أعمالهم من مظاهر التناقض وأعلنوا اعتزامهم على الدخول في السلم كافة . وما ان ظهرت الدعوة وأقبل الشبان المخلصون عليها ، يستقيلون من وظائف الحكومة الكافرة ويتبرأون من المحاكم القائمة على أسس البغي والعدوان ويتنصلون من تبعات العقود الفاسدة ومعاملة المصارف المتعاطية للربا ، وفوق كل ذلك يظهرون استعدادهم للترحاب بالشدائد والاخطار في سبيل اقامة الدين – ما ان ظهرت الدعوة بهذا الشأن وتقدم الشبان بهذه الصورة من التضحية وبذل

النفائس ، وانتشرت الدعاة في كل مكان يدعون الى عبودية الله ، حتى قامت قيامة المسلمين الجغرافيين وثار ثائر المشايخ القابعين في زواياهم وهاج هياج العلماء المقتنعين بالتدريس والتصنيف في مدارسهم ومجامعهم وجعلوا ينادون بالويل والثبور ويشمتون بالقائمين بالدعوة والمستجيبين لندائهم ، فمنهم من يرميهم « بالخروج » بانهم لا يريدون الحاكمية الا لله الواحد ، وهذا في رأيهم مسلك الخوارج .

وأما الاسلام ، فهو هين لين بزعمهم ، لا يمنع أتباعه ان يخضعوا رؤوسهم الملوك والولاة والامراء . وقد بلغت ببعضهم الوقاحة أن احتجوا بسيدنا يوسف وتبوئه منصب الوزارة في مملكة كافرة . ومنهم من يعترف بصدق الدعوة ، الا انه يرى ان الزمان قد ادبر وتولى ، ولم يبق من الممكن ان يرجى رجوع عهد الراشدين ونظامهم مرة اخرى . ومنهم من جعل يندب حظ الشبان المخلصين الذين استقالوا من المحاماة في المحاكم الكافرة ووظائف الحكومة ومناصب العزّ والشرف في النظام الباطل ، استجابة لدعوة الله ورسوله ، ويبكي لسوء حالهم من الفقر والبؤس والشدة ، حتى ان كثيراً من الآباء جعلوا يضيقون على أبنائهم الذين استجابوا لله ولرسوله ودخلوا في الجماعة وطردوهم من بيوتهم ، حتى يتبرؤا من كلمة الحق ويفيئوا الى حياة الجاهلية والغفلة التي كانوا فيها من قبل .

جرت الحال على ذلك بضع سنين ، والدعوة تنمو صعداً ، وأعضاؤها يفتنون في دينهم وعقائدهم والمنتمون اليها يؤذون ويتبلون

ويصابون بشتى الشدائد والآلام ؛ الا ان تلك الفتنة وهذه الشدائد والآلام رحمة من الله لهم ، صقلت مرآة قلوبهم وأذكت في نفوسهم جذوة من الايمان ، لاتخمد ولا تخبو بمثل هذه الفتن والاضطهادات ، شأن المسلمين الاول الذين كانوا يفتنون عن دينهم وعقائدهم ، فيتجلدون ويصبرون ويثبتون على الحق ثبات الجبال الراسيات .

وجملة القول ان الجماعة في السنين الاولى من حياتها عنيت بوجه خاص بنشر الدعوة وتعميم كلمتها في الديار الهندية وأداء الشهادة القولية على أتم طريق وأحسنه ، وذلك في مختلف اللغات الهندية الرائجة في أقطارها المترامية الأطراف ، الا ان معظم كتبها ومؤلفاتها كانت باللغة الاردية ، لغة مسلمي الهند عامة . وكذلك اهتمت الجماعة اهتماماً بالغاً بأداء الشهادة العملية ، بأن يظهر اعضاؤها في اخلاقهم ومعاملاتهم وسائر اعمالهم بمظهر وضيء وقور يكون حجة ناطقة للاسلام على أهل هذا العصر ، بأنهم اذا شوهدوا في متاجرهم وأسواقهم او عوملوا في معاملهم او امتحنوا في أنديتهم ومدارسهم ، يتجلى لمن يشاهدهم ويعاملهم ويمتحنهم ان الدين الذي ينجب ويكون مثل هؤلاء الرجال الصدقين في معاملاتهم ، الصالحين في شؤونهم ، لابد ان يكون ديناً الهياً بانياً ، صالحاً للمجتمع والعمران في كل عصر . ومن أجل ذلك ، بالغت الجماعة في الاهتمام بتربية اعضائها وتنشئتهم على الآداب الاسلامية والاخلاق الفاضلة ، واختارت لذلك طرقاً ومناهج نافعة مثمرة . منها أنها أسست دارها [1] المركزية . أي

---

(١) كانت تلك الدار على مقربة من بلدة (بتهان كوت) في شرقي بنجاب . وبين دار الاسلام والبلدة أربعة أميال ، وبين لاهور ودار الاسلام نحو مائة ميل ، وقد ضاعت في ماضاع من أملاك المسلمين وضياعهم وخزائنهم ومعاهدهم في كارثة التقسيم .

مركزها العام – في مكان بعيد عن العمران وضوضاء المدينة وعمرت هنالك قرية صغيرة مستقلة منفصلة عن القرى المجاورة بأميال ، مأهولة بأعضاء الجماعة والعاملين في ادارتها ، القائمين بشؤونها . ولقد أحسنت اذ سمت دارها المركزية او القرية التي وضعت خططها وعمرتها « دار الاسلام » .

فكان يؤمها بالتناوب اعضاء[1] الجمعية وأنصارها والمتأثرون بدعوتها من كل ناحية وصوب يقضون فيها مدة من الزمن ، يتلقون دروس العلم والعمل من أمير الجماعة وزملائه ويتدربون على طرق الدعوة والارشاد ، حتى اذا رجعوا الى أوطانهم ، رجعوا مزودين بأسلحة العلم والتقوى ، مشبعين بروح الفكر والعلم ، متحمسين للدعوة والجهاد في سبيلها .

هكذا ظلت الجماعة سالكة خطتها التي اختارتها لنفسها ، مثابرة

---

(١) مما تحسن الاشارة اليه في هذا المقام ان المنتمين الى هذه الجماعة على ثلاثة أقسام ، حسب ماينص عليه دستورها : – ١ – الاعضاء الخصوصيون (أركان) ، وهم الصفوة المختارة من دعاة الجماعة وعامليها ، ممن تعتمد عليهم وترجع اليهم . وهم هم الذين أسلموا أنفسهم لله من غير قيد ولا شرط . ٢ – الانصار (همدرد) اي الذين يعطفون على الدعوة وينصرونها بأموالهم وأنفسهم ويعملون لها حسب وسعهم ، الا أنهم ما وهبوا أنفسهم لله الجماعة ولا وقفوها لخدمة الدين ودعوته ٣ – المتأثرون بالدعوة (متفق) والمراد بهم الذين يوافقون الجماعة على دعوتها ومناهج عملها ، وربما يجودون لها بشيء من المال أو يقولون فيها كلمة حق في بعض الاحايين ، الا انهم لا يقدرون ان يتحملوا الشدائد التي تلحقهم بمجرد الجهر بالدعوة وقبولها .

عليها ، مواصلة الجهود بتؤدة ووقار ، لايردعها عنها رادع ، ولاتخاف في الحق لومة لائم ، الى ان جاءت كارثة تقسيم البلاد ووقعت الجزيرة الهائلة في شرقي بنجاب ، التي كان فيها مركز الجماعة . فابتلي الاعضاء بلاء شديداً وحوصروا في دارهم من كل جهة والتجأ اليهم المسلمون من سائر تلك الانحاء ، لكنهم وقفوا موقف المجاهدين الصادقين ، لم يتضعضعوا ولم يتزحزحوا قيد شبرة من مكانهم ، الى ان قيض الله لهم الفرص ووصلوا لاهور بسلام آمنين . وذلك بفضل من الله وتوفيق من عنده .

هذه هي مجمل تاريخ الجماعة الاسلامية - القائمة بدعوة الاسلام الخالصة الكاملة الشاملة - من لدن تأسيسها - شعبان سنة ١٣٦٠ هـ - الى يوم التقسيم ، ٢٧ رمضان ١٣٦٦ هـ / ٥ أغسطس ١٩٤٧ .

ولولا ضيق نطاق المقام وعدم اتساع الكتاب لتفاصيل الباب ، لفصلنا فيه القول ولأتينا من تاريخ هذه الجماعة واعمالها ومواقف رجالها بما يقرعينك ويثلج فؤادك . وسيكون لنا عودة الى الموضوع في رسالة أخرى مستقلة ان شاء الله تعالى .

نعم ! قد بقي لنا ان نشير الى مساعي الجماعة في نشر دعوتها باللغات الاخرى غير الهندية . فانها ، وان كانت دعوتها أولاً وباديء ذي بدء موجهة الى القاطنين في هذه القطعة - الهند - من المعمورة الأرضية الا أنها دعوة عالمية الى دين عالمي لايفرق بين الاقطار والاجناس ، كما لايخفى على أحد . فرأى القائمون بها ان يخصوا شيئاً من جهودهم لنشر دعوتهم باللغتين العالميتين : العربية والانكليزية ونقل كتبهم ومنشوراتهم

المؤلفة بالأردية اليها ، كما ينقلونها الى سائر اللغات الهندية ، غير الاردية .
ولما كانت للعربية مكانة ممتازة من بين لغات العالم ، وكان لها منزلة سامية من قلوب المسلمين ومحل الصدارة من لغاتهم ، جعلو لها فرعاً خاصاً يعنى بنشر الدعوة وكتبها فيها ، وأسموه (دار العروبة[1] للدعوة الاسلامية) .
وهاهي منشوراتها جعلت ترسل الى البلدان العربية وتتلقى بالقبول والثناء في كل مكان .

---

(١) قد رأى بعض الاصدقاء ان كلمة العروبة تدل على النزوع الى القومية العربية العنصرية ، فلا يجوز ادخالها في تسمية القسم العربي من فروع الجماعة ، لان ذلك مناقض للدعوة ومبادئها بتاتاً . لكن الذين آثروا هذه التسمية ، انما ارادوا «بالعروبة» ماجاء في المعاجم العربية من معنى هذه الكلمة ، لا غير . مثال ذلك ماورد في المصباح المنير للفيومي تحت مادة (ع رب) : « عرب بالضم اذا لم يلحن ، وعرب لسانه اذا كان عربياً فصيحاً » .

الفصل الحادي عشر

بعد الانقلاب

رمضان ١٣٦٦ هـ - آب ١٩٤٧ م

بسم الله الرحمن الرحیم

١ - التقسيم وما تبعه من النكبات :

قد وصلنا في تاريخ دعوة الاسلام في البلاد الهندية الى نقطة مهمة من تاريخنا ، ألا وهو استقلال البلاد وتحولها الى مملكتين مستقلتين : بندرشيان [انديا] وباكستان . لكن هذا الاستقلال ماحصل بهدوء وسلام كما كان يتمنى كثير من الناس ويعللون انفسهم بذلك وانما حصل الاستقلال وتمتع المسلمون بالحكومة الذاتية في جزء صغير من شبه القارة الهندية بعد كارثة فظيعة ومجزرة هائلة لم يسمع بمثلها تاريخ البشرية ، حتى ولا في أشنع ادوارها واعرقها في الجهل واشدها ظلمة وهمجية . مذبحة ، اي مذبحة ، قتل فيها زهاء خمسمائة الف نسمة من ابناء الاسلام ، من بين رجل وامراة وشيخ وعجوز مريض مدنف وطفل رضيع . اما الاعراض التي انتهكت حرماتها والحوامل اللائي بقرت بطونهن والفتيات اللاتي اختطفن من احضان آبائهن وامهاتهن ، فلا يعلم عددهن إلا الله . فظائع[1] موجعة محزنة تفتتت الاكباد وتمزق الاحشاء ، وشنائع مخزية مؤلمة يندى لها جبين المروءة ويحمر لها وجه الانسانية خجلا وعياءاً . الا انها وقعت بمرأى منا ومسمع ، ومرت امام اعيننا ، كأنها صاعقة من الله انقضت على

---

(١) قد كتب كاتب هذه السطور عدة مقالات عن تلك المذابح يومئــذ ، نشرت في جريدة « الاخوان المسلمين » (القاهرة) وجريدة « السجل » (بغداد) وغيرها من الجرائد المعروفة .

رؤوس عبيده الظالمين المذنبين الممعنين في غيهم .

جاءت هذه الكارثة على حين غفلة من جمهور المسلمين واتكائهم على زعمائهم وقواد سياستهم . اما زعماؤهم . أعضاء الرابطة المسلمة الذين تولوا زمام الأمر في المملكة الجديدة فقد ألهتهم عن التفكير في مصير شعبهم واتباعهم الحفلات والمهرجانات التي كانت تقــام وتعقد في العاصمة — كراتشي — فرحا بالاستقلال وسرورا بتسليم مقاليد الحكم . فقد كان القوم منغمسين في تعاطي كؤوس الخمر والتسابق الى دور الملاهي ، حينما كانت الحرمات تنتهك في مدن (شرقي بنجاب) وقراها والمساجد تهدم والمصاحف تحرق وتداس بالاقدام ، وجموع محتشدة من اللاجئين الى باكستان ينزل عليهم في طريقهم من أنواع الآلام والشدائد ماتقشعر لهوله الأبدان .

بدأت هذه المذابح والمخازي تقترف قبل التقسيم بشهر ، والقوم غافلون ، قد أسكرتهم خمرة الحكم وأخذتهم نشوة الامارة من قبل ان يتسلموا مقاليد الأمر فعلاً ، فغفلوا عن واجبهم وسهوا عما كان عليه من التنبه للخطــر والتيقظ لما كان يبيته أعداؤهم من المؤامرات الشنيعة ومايحيكون لأبناء الاسلام من الدسائس الخبيثة وجروا على ذلك مدة غــير قليلة لايلتفتون الا الى مايهمهم في أنفسهم وقضاء مآربهم وأهوائهم الذاتية .

اما الامة فقد ذاقت وبال غفلتهم وعلمت اليقين ان الذين جعلوهم أئمة لهم وقواداً وفوضوا اليهم جميع أمورهم وشؤون سياستهم ، ما كانوا

بأهل لذلك ، وانما كان جل همهم في طلب المناصب والتطلع الى دواوين الحكم والتهافت على حطام الدنيا الدنيئة . ولما وجد أولئك سؤلهم في الوزارات ومناصب الدولة وأدركوا ما كانوا يجدون ويجتهدون لأجله ، غفلوا عن الامة وماتحتاج اليه من معونة وذهلوا عما كانوا وعدوها به من الوعود الكاذبة وما منوها به من الآمال الحلوة والأماني المعسولة . وجملة القول ان الامة سرعان ما أدركت أنها كانت مخطئة في الوثوق بهم والركون اليهم في تدبير أمورهم وشؤون سياستهم ، ولكن قد سبق السيف العدل ولات حين هندم . فما الحيلة إذن ؟ هذا ما كان في باكستان ، بلادنا التي نقطنها ونتمنى ان تكون في طليعة من يحمل بيدها لواء الدعوة الاسلامية من بين سائر الشعوب الاسلامية . اما هندستان ، فلا تسل عن سوء حال المسلمين فيها وتعرضهم للأخطار ومصابهم في دينهم وعلومهم ومدارسهم وآدابهم . ومثلهم كمثل الأيتام على مأدبة اللئام ، لايشفق عليهم ولا يواسيهم أحد . اما الذين كان زعماءهم والمسيطرين على شؤونهم الجليلة والحقيرة ، فقد هربوا منها خوفاً على حـالهم ونفوذهم والتجأوا الى باكستان ليتمتعوا هنالك بمناصب الحكم وينعموا بمقاعد في المجالس التشريعية او يحظوا باحدى السفارات في العواصم الاوروبية . وقد بلغ بهم الجبن وخور العزيمة ان رئيس الرابطة المسلمة — التشودري خليق الزمان — أيضاً لم يتجرأ على الاقامة بالبلاد الهندية ومجابهة الأخطاء ومقاساة الشدائد مع أتباعه هنالك ، فقد تنصل منها بعد التقسيم بعدقليل وأصبح يجول في كراتشي ويصول ، تاركاً أتباعه وزملاءه ومن اتخذوه

زعيماً لهم ، عرضة للأخطار وغرضاً لسهام الهنادك وطعناتهم .

وايم الحق ، انه لولا فرار زعماء الرابطة من الهند وتركهم حبل الامة على غاربها وحرصهم على أغراضهم الذاتية ومنافعهم الشخصية ، لما آلت حال المسلمين في الهند الى ما آلت اليه بعد فرار زعمائهم وتسللهم الى باكستان . فان الامة التي كانت تحارب الهنادك وتقاومهم منذ عشر سنوات بزعامة هؤلاء القوم وتحت لوائهم قد وجدت نفسها في طرفة عين تحت نير الهنادك ، كقطيع من الغنم لاراعي لها ، يعبث بها الذئب الوثني كيفما يشاء . وماظنك بشعبه وآلامه ، حينما لاتجد في مثل تلك الاحوال الخطرة من ينصح لهم ويرشدهم الى مواطن الغر ويبصرهم بمواقف الحركة والدفاع في هذه الأحوال المتبدلة .

٢ ـ الجماعة الاسلامية ودعوتها بعد التقسيم ـ هندستان

وقد عرفت ماصار اليه حال المسلمين في الهند من الاضمحلال وتشتت البال وفتور العزائم ، وكان من بين زعماء الرابطة المسلمة الذين كان بيدهم زمام أمر المسلمين الى ماقبل التقسيم فلما هرب اولئك القوم الى باكستان جبناً وهلعاً ، تاركين أتباعهم يقتلون ويتبلون ويشردون في الآفاق ، قامت الجماعة الاسلامية بواجبها وأمرت أعضائها من سكان هندستان المقيمين فيها ان لايتزحزح أحد منهم عن مكانه ويواجه الاخطار والشدائد مهما كانت قاسية ويلهم بني قومه الصبر ويلقنهم الثبات ويواسيهم في المحن ويبصرهم بعواقب الماضي وأخطار المستقبل حتى يكونوا على بينة من أمرهم ويتمكنوا من وضع منهاج للعمل في أحوال الهند

المتجولة المتبدلة .

وهذه هي ثلاث سنين ونيف لاتزال الجماعة الاسلامية في هندستان قائمة على مبدئها ، ثابتة على خطتها ، تدعو الناس على اختلاف أديانهم ومشاربهم الى عبادة الله وإقامة نظام الحق ، شأن المجاهدين الصادقين الذين يقومون بواجباتهم في كل حال ولايكترثون للاخطار والاضطهادات ، مهما كانت شديدة وقاسية . ومنهاجهم في كل ذلك ، هو منهاج النبي ﷺ في حياته الملكية ، يتبعون معالمه الكريمة ـ ﷺ ـ ويجتهدون في اتباع طريقة الاقوام وسلوك سنته السوية المستقيمة في دعوته للناس . ولاجرم ان الطريق أمام اخواننا في هندستان وعر ، صعب المسالك ، محفوف بالاخطار ، الا ان الله الذي وفقهم للقيام بهذه الدعوة الكريمة في مثل هذه الاحوال الشاذة في مثل تلك البلاد الجافية ، سيوفقهم الثبات على المبدء والاستقامة على الطريقة ويقيهم شرور الاعداء ونوائب الدهر الغشوم .

وكذلك يجمل بنا أن نذكر في هذا المقام ان الجماعة الاسلامية القائمة بدعوة الاسلام في البلاد ، قد انقسمت على قسمين ، قسم استقل بأمره في بندستان ، والتف حوله اعضاء الجماعة من سكان تلك البلاد القاطنين فيها وقت التقسيم ؛ وقد قاموا بالامر ـ ولازالوا قائمين ـ خير قيام وأسسوا مركزهم العام في مدينة (رام بور) من مقاطعة الايالات المتحدة ، وانتخبوا الاستاذ أبا الليث الندوي الاصلاحي لهم أميراً . والاستاذ أبو الليث ممن لهم نظرة ثاقبة في معارف القرآن واطلاع واسع

على مقتضيات العصر ، وهو بعد كل ذلك من العاملين المخلصين الذين قلما يوجد لهم نظير في مثل هذا الزمان الحالك المظلم . وللجماعة في هندستان صحف ومجلات في مختلف لغاتها .

وكذلك مما لابد من التنبيه عليه في هذا المقـــام ان الجماعة الاسلامية في الهند مستقلة بذاتها ، لاعلاقة لها بأختها في باكستان . اما العقيدة والمنهاج ، فالمسلمون العاملون ، المتحدون في العقيدة القائمون بالدعوة كلهم اخوان متحابون في مابينهم ، سواء أكانوا في مصر او باكستان او اندونسيا او الهند .

هذه فذلكة ماقامت به الجماعة الاسلامية في هندستان، ولاتزال قائمة به . واما البسط في الموضوع والاطاحة بتفاصيله فله موضع آخر . فعودوا الى الحديث عن باكستان وسير الدعوة فيها بعد التقسيم والاستقلال .

٣ ـ بعد الانقلاب في باكستان

عودا الى الحديث السابق ، قد عرفت في ماتقدم ما كان عليه منهاج الجماعة الاسلامية في دعوتها وبرنامج اعمالها قبل التقسيم وما آل اليه الامر في هندستان (Jmoqia) بعد ذلك . اما باكستان ، مقر الجماعة الاسلامية ومركزها ، فقد بقي لنا ان نشير بكلمة مؤخرة الى أعمال الجماعة وسير الدعوة فيها بعد التقسيم . وهانحن نشرع في المقصود ، متوخين الايجاز حسب الطاقة ، مستمدين المعونة والتوفيق من الله تعالى .

لعل القاريء العربي يعرف ان حركة باكستان والمطالبة باستقلال

هذا الجزء من الهند انما قامت باسم الاســـلام ، والذين بذلوا مهجتهم وأرواحهم وضحوا بنفوسهم ونفائسهم من جمهرة المسلمين في هذا السبيل انما بذلوها رجاء ان تعلوا كلمة الاسلام ويكون الامر والسلطان للقانون الالهي .

وذلك ان زعماء الرابطة المسلمة الذين كان بيدهم زعامة البلاد ، كانوا ينادون في كل ناد ومجلس ويجاهرون في كل حفلة ومجتمــع ، أنهم لا يريدون بهذه الحركة والمطالبة بالاستقلال وتقسيم البلاد ، الا ان يؤسسوا مملكة اسلامية ، مستندة الى الشريعة الالهية مستمدة من قوانينها ومناهجها من معين الكتاب والسنة . لكنه لما تبوؤا مناصب الحكم في المملكة الجديدة واستقلوا بالامر في هـــذه القطعة من البلاد ، تنكروا للدين الحنيف وجعلوا يحتالون ويمكرون واخذوا يماطلون ويراوغون وكلما قيل لهم في ذلك ، قالوا : « هاهي مملكة حديثة ، لا تقتلوهـــا في مهدهـا بالمجاهرة باسلاميتها ، فان هـذه الكلمة – الاسلام - تجعل من الجيران أعداء ومن أمم العالم القوية خصوماً ألداء . وكلما أردنا ان نفهمهم ان هذه الظنون والاوهـــام تنم على مرض في صدور قائليها وضعف في عقائدهم وعدم تثبتهم من الايمان بالله ورسوله . لووا رؤوسهم وأصروا على مزاعمهم الباطلة واستكبروا استكباراً . أما الشريعة الاسلامية السمحة التي يظنون بها الظنون ويستحيون من الانتساب اليهـــا والدعوة الى الاستمساك بها ، فلعمر الحق أنها لو عمل بها وسيرت الامور وفق مطالبها ومقتضياتها ، لدانت رقاب الجبابرة لجلالة شأنها وعنت الوجوه المتكبرة

لوضوح حجتها ونصوع مناهجها وأوضاعها . لكن الاسلام غريب في أهله ، حائر بين متبعيه الذين يقسمون باسمه ويتسمون بسمته ثم يتنكرون له ويخالفون عن أمره ويتربصون به الدوائر وجملة القول ان بضعة أشهر من حكم أولئك القوم وماظهر من سيئات أعمالهم من تشجيع للخلاعة وترويج لحفلات الخمور والدعارة وغيرها من الموبقات المهلكات وما بدأ من تناقض شنيع بين أقوالهم وأعمالهم ومالاح من نياتهم ، جعلتنا والاغلبية الغالبية من الامة على يقين من ان القوم لا يريدون بالدين الا شراً ، وأنهم عازمون على وضع دستور مقتبس من دساتير انكلترا وامريكا ، الا انهم لا يتجرأون على ابداء ما في انفسهم ، خوفاً من الرأي العام وحذرا من غضبة الشعب المؤمن القوي الذي لم يلب دعوة الاستقلال ولم يخض غمار الجهاد ولم يضح بما قدر له ان يضحي به من ذات يده وذات نفسه ، الا حبا في ارتفاع كلمة الاسلام وشوقاً الى قطعه من الارض يرفرف عليها لواء الحكم الاسلامي العادل .

فلما كان الامر كذلك وتبين الصبح لذي عينين واستيقنت الامة ان القوم هازلون ، لا يهمهم امر الدين في قليل ولا كثير . وانهم غارقون في بحار اهوائهم وشهواتهم ، وانهم ان تركوا وشأنهم ، افسدوا الامر وقلبوه رأساً على عقب ، تقدمت الجماعة الاسلامية الى ميدان العمل بخطوات جريئة حاسمة ، اقامت البلاد واقعدتها وأرغمت القائمين بالامر أن يقرروا في المجلس التأسيسي القرار المعروف « بقرار المباديء » . (Oaѵeotiue Reaodutiau) الذي يبين وضعية المملكة الجديدة وعناية

تأسيسها ويحتم على المجلس التأسيسي ان يضع دستوراً للمملكة مستنداً الى الشريعة الاسلامية ، مستمداً قوانينه من ينابيع الكتاب والسنة .

وفوق ذلك يعلن بصوت جهوري أن المملكة امانة من الله العلي المقتدر وأن الحاكمية في الارض مختصة بالله تعالى شأنه وان الدستور الجديد لايخرج عن الحدود التي حددها الله لعباده ، الى آخر ماجاء في ذلك القرار التاريخي — والظاهر ان ذلك لم يحصل في يوم واحد ولا بدون كفاح وصراع ودونك بيان ذلك الكفاح بايجاز :

نالت البلاد الاستقلال في شهر رمضان ١٣٦٦/ اغسطس ١٩٤٧ ، كما تقدم ، فكان من أول ما اشتغلت به الجماعة الاسلامية واهتمت به اهتماماً عظيماً ، هو مساعدة اللاجئين المنكوبين الذين الجأتهم المجازر المتواصلة والمذابح المتتابعة في هندستان الى اختراق حدود باكستان والاحتماء بحماها والانضواء تحت كنفها ، والامر قد اشتهر امره وعرف خبره بمالا حاجة الى اعادته في هذا المقام . وخلاصة القول ان قضية اللاجئين ومساعدتهم وتعهدهم بايوائهم والاشراف على أمورهم والسهر على مصالحهم المتنوعة المتشعبة ، كانت شغل الجماعة الشاغل في بضعة الشهور الأولى من عهد الاستقلال ، أبلت الجماعة خلالها بلاء حسنا ، وقد ظهر فيها أعضاء الجماعة وانصارها بمظهر من الخلق والثبات في العمل وتحمل الشدائد والصبر على المكاره والامانة والعفة ما أنطق أعدى اعدائهم بالثناء عليهم والشهادة لهم بالسبق في هذا المضمار ، حتى ان كثيراً من عمال الحكومة وكبار موظفيها اعترفوا بأنه لولا هذه الجماعة ومساعدتها العملية المتواصلة ، لما

امكن لهم أن يؤدوا واجبهم في بعض المواقف المحرجة .

٤ ـ المطالبة باقامة نظام الاسلام :

وبعدما خفت وطأة اللاجئين المحتمين بمملكة باكستان وخرجت الجماعة الاسلامية من المعمعة ظافرة مرفوعة الرأس ، واعضاؤها وانصارها الذين خاضوا غمراتها . مزودين بالتجارب العملية والدروس النافعة والعظات البالغة في خدمة المنكوبين والجرحى والمضطهدين ، دخلت الجماعة الاسلامية في ميدانها العملي الحقيقي وشرعت في حركة عامة شاملة للمطالبة باقامة نظام الاسلام ووضع الدستور للمملكة الجديدة على قواعد الكتاب والسنة وذلك بأنهم أولا رتبوا مطالبهم بهذا الشأن ثم نشروها في طول البلاد وعرضها وعمومها بالصحف والنشرات والحفلات والخطب في المساجد وبكل وسيلة أمكنتهم .

وكذلك طبعوا تلك المطالب على اللافتات والظروف والبطاقات حتى أنه ارتجت البلاد بأصوات تلك المطالب وجعلت تقرع أبواب الملك في كراتشي وتنبههم من غفلتهم . وكذلك قرروا قرارا بذلك في مئات الالوف من الحفلات في جميع نواحي القطر .

ثم قدموا محاضر شعبية الى اعتاب الحكومة ، موقعة عليها من جميع طبقات الامة ، فكان من نتيجة هذا وذاك أن القائمين بالامر اضطروا ان يعيروا المسألة اهتمامهم ويتشاوروا في ما بينهم في بابها ، حتى يجدوا منفذا يخرجون به من المأزق الذي وقعوا فيه بوعودهم الكاذبة التي وعدوا الامة بها قبل الاستقلال .

أما المطالب التي تقدمت بها الجماعة الاسلامية الى الحكومة ووافقتهم عليها الامة جميعاً ، والتي كانت الاساس الذي قامت عليه حركة المطالبة باقامة نظام الاسلام ووضع الدستور الاسلامي على قواعد الكتاب والسنة فدونكها بنصها بعد التعريب :

ولما كانت الاغلبية العظمى من سكان باكستان تؤمن بمبادىء الاسلام وان المسلمين ماقاموا بما قاموا به من تضحيات وجهود بالغة الا ليتسنى لهم تسيير شؤون حياتهم وفق تلك المباديء السامية ، فالآن بعدما تم تأسيس باكستان ، يطالب كل مسلم باكستاني ، المجلس التأسيسي بأن يعلن : —

(١) ان الحاكمية في باكستان مختصة لله العلي الاحد ، ومـا لحكومة باكستان من الامر من شيء ، غير أن تتبع وتنجز مرضاة مالكها في أرضه .

(٢) وأن الشريعة الاسلامية هو القانون الاساسي لباكستان .

(٣) وأن القوانين النافذة في البلاد ، مايعارض منها الشريعة الاسلامية يلغى ويبطل وانه لاينفذ بعد ذلك قانون يخالف الشريعة .

وأن حكومة باكستان لاتتصرف في الامر الا ضمن الحدود التي رسمتها الشريعة .

هذه هي المطالب الاربعة التي أقامت البلاد وأقعدتها حينا من الزمن ونبهت النائمين من نوم الغفلة وبصرت الامة بما ينبغي لها أن تتمسك به وتعض عليه بالنواجذ وتطالب الحكومة بقبوله .

اما القائمون بالأمر والمتبوؤون مناصب السلطة والوزارات في كراتشي ، فهم ايضاً افاقوا من سكرتهم وجعلوا يتوبون الى رشدهم ، لأن هذه الحركة الشعبية القوية اقضت عليهم مضاجعهم وارغمتهم على التفكير في الامر ارغاماً كما تقدم . لكنهم ما كانوا ليتعظوا بسهولة ويتبعوا الطريقة المثلى عن طيب قلب ، فعادوا الى طرق الاضطهاد والتضييق وكم الافواه وتعطيل الصحف ومصادرة النشرات . وكان من اول امرهم في هذا الباب ان اسروا الاستاذ ابا الاعلى المودودي امير الجماعة الاسلامية ، والاستاذ أمين احسن الاصلاحي ، من فحول علماء البلاد وكبار اعضاء الجماعة والسيد طفيل محمد ، سكرتير الجماعة الاسلامية وحبسوهم في المعتقل من غير جريرة ومحاكمة . وذلك في رابع اكتوبر سنة ١٩٤٨ . ثم حبسوا كثيراً من أعضاء الجماعة في مقاطعتي الحدود الغربية الشمالية وبنجاب الغربية لما في صدورهم من نار الاحن والعداء للدعوة الاسلامية والقائمين بها . وكذلك سلطوا رقابة شديدة على البريد ، وجعل رجال البوليس السري يرافقون اعضاء الجماعة في حلهم وترحالهم ، لا يفارقونهم أبداً – الى غير ذلك من الشنائع التي لا يتسع المجال لذكرها . لكن هذه الاضطهادات ما كانت لتفت في اعضاء القائمين بالدعوة او يقلل من نشاطهم او تحمسهم للعمل ، بل الامر انها مازادت الحركة الا نشاطاً ونفوذاً ومازادت العاملين من اعضاء الجماعة الاسلامية وانصارها الا مضيا في العمل واستمساكا بالمبدأ ورسوخاً في العقيدة .

وقد ظهرت نتيجة ذلك بعد ستة أشهر – وامير الجماعة وزملاؤه

محبوسون في السجن بأن المستبدين بزمام الامر والمتبوئين عروش الحكم أذعنوا لمطالب الامة وقبلوها بعد شيء من التغيير والتبديل وعرضوها على المجلس التأسيسي ، بعد ما صاغوها في شكل قرار جامع ، معلنين بذلك اعتزامهم واعتزام الامة جميعاً على وضع الدستور الجديد وفق مبادىء الكتاب والسنة ومقتضيات الشريعة الاسلامية . وهاك نص ذلك القرار التاريخي الذى امضاه المجلس التأسيسي وصادق عليه باتفاق من اعضائه في الثاني عشر من مارس ١٩٤٩/١٤ ، جمادي الاولى ١٣٦٨ ، والذي يعرف بقرار المبادىء (Objectives Resolution) ، لما اشتمل عليه من بيان الاسس والمبادىء التي حتم على المجلس التأسيسي بموجب هذا القرار ان لا يخرج عن دائرتها في وضع الدستور وشرح فصوله وأبوابه :

« ولما كان الامر والحكم في هذا الكون لله وحده ، وكانت السلطة التي منحها الله لمملكة باكستان بواسطة شعبها ، وديعة مقدسة ، لتزاولها ضمن الحدود التي رسمها الله » ، « يقرر هذا المجلس التأسيسي بصفته ممثلا للشعب الباكستاني ان يضع لمملكة باكستان المستقلة ذات السيادة الكاملة :

(آ) دستوراً تمارس به المملكة وظيفتها وتتمتع بالسلطات المخولة لها بواسطة نواب الشعب المنتخبين .

(ب) دستوراً يكون العمل به وفق مبادىء الديمقراطية الكاملة والحرية والمساواة والتسامح والعدالة الاجتماعية ، كما جاءت في تعاليم الاسلام .

(ج) دستوراً يؤهل فيه المسلمون لتنظيم حياتهم الفردية والجماعية

حسب تعاليم الاسلام ومقتضياته التي وردت في الكتاب والسنة الخ الخ .

هذا هو الجزء[1] الذي يهمنا من هذا القرار التاريخي في هذا المقام فأنت ترى ان اعضاء المجلس لهذا القرار كان نجاحاً ملموساً وظفراً مبيناً للشعب المسلم المؤمن الذي أبى إلا الاستمساك بدينه والاصرار على المطالبة بحقه الذي هو حق الله على عباده بتنفيذ القانون الالهي في أرضه.

٥ ـ المطالبة باستبدال القيادة

لقد صدق من قال « ان الامة الى خير ولكن الضعف في القيادة » وهذه هي حال المسلمين في جميع الاقطار المأهولة بهم . وكذلك باكستان فانها ايضاً كأخواتها من بلاد المسلمين مأهولة بأمة مسلمة مؤمنة قوية في في ايمانها ، الا أنها ابتليت بشرذمة من الناس استبدوا بالزعامة في العهد البريطاني ممن تخرجوا على ايدي اساتيذهم الانكليز ونشأوا على خصالهم فلا يهمهم أمر الدين في قليل ولا كثير . وانما جل هم اولئك القوم في ارتياد دور الملاهي وتشجيع التبرج والخلاعة والقضاء على آداب الاسلام وتعميم أخلاق الافرنج ونشر « مكارمهم » التي آمنوا بها واشربت حبها قلوبهم

---

(١) هذا هو الجزء الذي يصرح باسلامية الدستور ويحتم على المجلس التأسيسي أن لايخرج في وضع الدستور وتدوين اصوله وفروعه عن قواعد الشريعة الاسلامية . اما مايليه من اجزاء هذا القرار ، فذلك يبين موقف الدستور بازاء الاقليات غير المسلمة ويشرح وضعية الادارة والقضاء والحقوق العامة وغيرها من المطالب التي لابد من ذكرها في مقدمة (Preamble) الدستور ليهتدي بها الواضعون والشارحون ويستنيروا بضوئها .

وذلك كله ليخلو لهم الجو ، يفعلون مايشاءون ، لا ينكر عليهم أحد أعمالهم الشنيعة ولا يؤاخذهم بسيآتهم وجرائرهم . وحينما صدر هذاالقرار التاريخي ، رجونا ورجت الامه أن تنقلب حالهم ويشرع القوم في اصلاح أحوالهم الفردية والبيتية ، حتى تلائم حياتهم العملية طبيعة هذا القرار الذي يحتم عليهم أن يستنبطوا قواعد الحكم من معين الكتاب والسنة ويسيروا دفة الامر وفق الشريعة الاسلامية .

رجت الامة ذلك منهم وما استعجلت وما ألحت عليهم في هذا الشأن وانما أرادت منهم وطلبت اليهم أن يشرعوا في السير على المنهاج الذي اختاروه للأمة والمملكة . وكذلك رجونا أن يشرعوا في تهيئة المقدمات واعداد الامور البدائية اللازمة لتدوين الدستور الجديد . وأقل ما كان يؤمل من هؤلاء القوم انلا يسنوا قوانين جديدة تناقض الشريعةالاسلامية وتخالفها ، وان كانت الامة تطالب بأنلا يتأخروا في الغاء القوانين الفاسدة التي ورثتها البلاد من العهد البريطاني المشؤم ، لكن القوم ما اتوا بشيء من ذلك وما دل شيء من اعمالهم على انهم غير هازلين او انهم يريدون الجد . وذلك انهم ، كما دلت عليهم القرائن وما جريات الحوادث التالية ما كانوا صادقين في اقوالهم وتصريحاتهم ، وانما ارادوا وقتئذ ان يكسروا ثورة الحركة الشعبية المطالبة باقامة نظام الاسلام ويفثأوا حميها باصدار « قرار المباديء » والاعلان باعتزام المجلس التأسيسي على وضع الدستور الجديد على قواعد الشريعة . ومن ثم ترى انهم كلما خوطبوا في هذا الشأن وذكروا بما يتطلبه هذا القرار التاريخي من عمل جدي وقوة حاسمة

في سبيل المشروع ، لووا رؤوسهم واستكبروا استكبارا .

هذا من جهة ومن جهة اخرى جعلوا ينادون في كل ناد ومجلس ويصيحون بأعلى اصواتهم في المؤتمرات الدولية والاندية العالمية « انهم مسلمون ويريدون ان يعيشوا مسلمين » وانهم عازمون على ان يجعلوا مملكتهم مملكة اسلامية مستندة الى قواعد الشريعة وقوانين الاسلام الخالدة، والقوم كلهم - من الحاكم الاعلى الى ادنى وزرائهم - سواسية في هذا الباب ، ينادون بالاسلام ويناقضون احكامه في كل مجتمع ومجلس يعقدون مؤتمراً عالمياً لمسائل الاقتصاد ويبدون سرورهم بمشاركة الفتيات العاريات المتبرجات في جلساته ، يقيمون معرضاً دولياً للمصنوعات والمنتوجات ويجعلونه معرضاً عاماً للتبرج والسفور والخلاعة . وقد بلغت منهم الوقاحة ان جعلوا يفتحون دور السينما وشركات التمثيل والملاهي بتلاوة آي من الذكر الحكيم ، كأنهم لم يكفهم كل هذا الطغيان فأرادوا ان يجلبوا سخط الله عليهم بهذا العمل الشائن . وكأني بهم لم يبق لهم الان الا ان يفتتحوا حوانيت الخمر بتلاوة الآية الكريمة : « انما الخمر والميسر والأنصاب و لأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (المائدة : ٩٠) ويرأسوا حفلة افتتاح دور الخلاعة والفجور ويبدؤا فيها بآي من الذكر الحكيم تندد بالفحشاء وتبين العقوبات الصارمة لمن يقترفها ... هذا برض من عد وقليل من كثير من منكراتهم والتناقض الشنيع بين أقوالهم واعمالهم . ولعمر الحق أنه قد مضت قبل ذلك أمم

وشعوب ممن كانوا يتسمون بالاسلام ويتعاطون المنكرات ولا يتحرجون من الوقوع في المآثم والمخزيات ، الا أنهم لم يتجرأ أحـــد من كبارهم ولا من صغارهم على ان يسمي فجوره تديناً وفساده وطغيانه خضوعاً لأمر الله . وكذلك لاتخلو بلاد المسلمين في عصرنا من رجال وجماعات وحكومات تتسم بالاسلام ولا تدين بما جاء به الدين المبين من النظـــم والقوانين ولاتتبع أوامر الشريعة في شؤونها الفردية ولا الجماعية ، لكنه لم يطرق سمعنا الى الان ان أحداً من هؤلاء وأولئك قد وصلت منه الجرأة على دين الله ان يعلن للملأ باسلامه واستمساكه بعروة الدين الحق ويجهر بتسيير دفة ملكه على قواعـــد الشرع المبين ثم يأتي في بيته وناديه في مجالس القضاء والحكم بما يضاد الاسلام وينقض مبادءه عروة عروة .

كلا ! لم نسمع بمثل ذلك ، لا في الغابر ولا في الحاضر ، وانها لجريمة شنعاء يرتكبها المستبدون بالامر في هذا الجزء من بلاد المسلمين ، وانها لجريرة تجلب سخط الله وتستعجل عقوبته . عسى الله ان يرحمنا ويتفضل علينا بنعمة من عنده ولا يؤاخذنا بما فعله المسيء منا . انه غفور رحيم .

هذا ، ولما استيأست الامة واستيأس القائمون بدعوة الاسلام واقامة نظام الحق في هذا القطر من الزعماء المستبدين بمناصب الحكم والسلطة ولم يبق فيهم أمل ان يفوا بوعودهم ويسيروا على الخطة التي رسمها الاسلام لمن يدين به ويظهر رضاه بالايمان بمبادئه ــ لما استيأسوا

من أولئك القوم ، بدأوا بحركة شعبية أخرى لتنفيذ خطتهم وانجاز مطالبهم ، حركة تغيير القيادة وتبديل الأيدي التي تحرك دولاب العمل وتسير دفة شؤون الملك ، فان هذه الأيدي الأثيمة هي العقبة الكؤود في سبيل اقامة الدين وتنفيذ القانون الالهي اليوم ، وهي التي مازالت ولاتزال تحول دون المضي في العمل والتقدم في سبيل الاصلاح المطلوب فلم يبق للامة ملجأ الا الى هذه المطالبة – مطالبة استبدال الزعامة وابعاد المسيطرين عليها عن مناصبهم واحلال رجال صالحين محلهم ، رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ولايعصونه في ما أمر عباده به من اتباع شريعته وامتثال أوامره ونواهيه ويرجون ثوابه ويخافون عقابه في مايقومون به من أعمال الملك ومايؤدونه من وظائف الحكم . لكن المستبدين بمناصب المملكة ومقاليد الحكم عندنا ، ما كانوا ليتحملوا مثل هذه المطالبة بفروغ صبر وطيب قلب ، فان النفوس مطبوعة على حب الذات والأثرة والانانية .

فلم يكن من المنتظر من أمثال هؤلاء الرجال الذين نشأوا في ظل المادية البحتة وطبعوا على الانغماس في الشهوات واتباع الملذات النفسية ان يتلقوا مثل هذه المطالبة بطلاقة الوجه ورحابة الصدر او يتخلوا عن مناصبهم من غير مقاومة ومعارضة . ومن هنا بدأت الحركة بنشاط وتقدم مطرد ولاتزال قائمة وستبقى قائمة ماضية الى ان يذعن المسيطرون على مقادير الامة لمطالبتها ويقوموا بانتخاب مجلس تأسيسي جديد برأي الامة وأصواتها ، يقوم بمهمة وضع الدستور الاسلامي الجديد ، فان

هذا المجلس التأسيسي قد أثبت بتلكؤه في العمل وتنكبة الصراط السوي في تدوين الدستور ، ان اعضاءها ليسوا بأهل لهذا العمل الخطير ، وأنهم مغلوبون على أمرهم وأنهم ليس فيهم من الديانة ونضوج الرأي وتحري الصدق مايجعلهم مستمسكين بقرار المباديء الذي كان أصدر ليكون رائداً لهم ومرشداً في سبيل وضع الدستور وتدوين أصوله وفروعه . وكذلك تبين بما يظهر من تقارير بعض لجان المجلس التأسيسي وماجاء فيها من تعليمات (Recommondations) اجمالية وتفصيلية عن بعض نواحي الدستور ان القوم سالكون مناهج انكلترا وأمريكا ، وان مابينهم وبين الاسلام وقواعده الحكيمة الشاملة العادلة مابين الارض والسماء ، وانهم عازمون على ان يؤسسوا دكتاتورية ، يستبدون فيها بجميع السلطات المشروعة وغير المشروعة ، وانهم معتزمون ان لايتخلوا عن مناصب الامرة والسلطة بحال من الاحوال . قد بدأت حركة تبديل القيادة ، منذ سنة ونيف ، وكانت الامة خلالها تطالب ايضاً باطلاق سراح الاستاذ أبي الأعلى المودودي - أمير الجماعة الاسلامية - وزملائه الذين حملوا لواء الدعوة الاسلامية وقاموا بهذه الحركة الشعبية لاقامة نظام الاسلام .

وبقيت الامة تطالب بالامرين وتدعوا اليهما في كل ناد ومجتمع ، حتى اضطرت الحكومة الى اطلاق سراح الاستاذ المودودي وزملائه في أواخر مايو سنة ١٩٥٠ م / شعبان ١٣٦٩ . فقوي بذلك ساعد القائمين بحركة تبديل القيادة ومضوا في عملهم بثبات وتقدم مطرد . ثم جاءت بعد ذلك نتف من تعليمات (Reco mmondaticns) بعض لجان المجلس

التأسيسي التي أشرنا اليها آنفاً ، والتي لم تدع مجالاً للشك في ان المجلس التأسيسي الموجود غير أهل للاضطلاع بهذا العبء الفادح ، وان اعضاءه لايهمهم أمر الاسلام في شيء ، وأنهم مفتونون بدساتير أوربا وأمريكا ، مقتفون أثرهم ، متتبعون لمعالمهم ، فلم يبق للامة الا المضي في المطالبة بتبديل الزعامة وحل المجلس التأسيسي الحاضر والقيام بانتخاب جديد عام للمجلس . وهاهي الحركة قائمة على أشدها والحكومة ممعنة في غيها ، والجماعة الاسلامية جادة في تنظيم حركة شعبية عامة لارغام الحكومة على الخضوع لهذه المطالبة ولتتمكن الامة من انتخاب ممثلين ذوي صلاح ومضاء لوضع الدستور الاسلامي الجديد . ويعلم الله ماذا ينتظره المستقبل لهذا الشعب المنكوب ، المبتلي بهذه الشرذمة من القادة الزعماء الذين سلطهم الانكليز على الامة قبل ان يغادروا بلادنا ، والذين لاهم لهم في هذه الدنيا الا اتباع أهوائهم الذاتية والانغماس في الشهوات الدنيئة .

آ ـ المستقبل

هذا ماوصلت اليه البلاد ـ الى يومنا هذا ـ في اجابة دعوة الاسلام والقيام بواجب اقامة الدين وأداء شهادة الحق . ومما نحمد ونشكر الله عليه من أعماق فؤادنا أنه قد تشكلت فيها جماعة داعية الى الله ورسوله منذ عشر سنوات ، جعلت نصب عينيها أداء شهادة الحق واقامة الدين الكامل وتوطيد دعائم النظام الاسلامي من جديد . وقد أعدت لذلك عدتها من قبل وعنيت من أول يومها بتربية اعضائها وتنشئتهم على الاخلاق الاسلامية الزكية والآداب الانسانية السامية ، ليكونوا قدوة لغيرهم في

ميدان الجهاد والكفاح ودعاة الى الحق والخير بأعمالهم لا بأقوالهم فحسب. وهاهي قد دخلت الجماعة في ميدان الكفاح العملي واضطهد اعضاوها ولايزالون يضطهدون ويؤذون بأنواع من الآلام والشدائد ويبدلون بصنوف من الأخطار والأهوال، لكنهم لم يتضعضعوا ولم يتزحزحوا قيد شبرة عن الخطة المثلى التي اختاروها لأنفسهم - بعون الله وتوفيقه - وكذلك ماغفلوا خلال هذه المعامع عن دعوتهم الأساسية وترغيب الناس في قبولها واللجوء الى كنفها والدخول في حظيرتها، فهم اليوم قائمون بالامرين، ومضطلعون بالعبئين معاً: الاول: مطالبة الحكومة باقامة نظام الحق او التخلي عن مناصب الامرة والحكم، وثاني اثنين تربية الامة وتزكية أخلاقها وأعمالها بنشر محاسن الدين وتعميم مكارمه وبث تعاليمه البينة المستنيرة. فالصراع شديد والكفاح مستمر والأحوال متقلبة والنفوس جامحة والطباع مائلة الى الشر. فالله المسؤول ان يأخذ بأيدينا وينصرنا في مهمتنا ويسدد خطانا ويثبت أقدامنا وأن يجعل عملنا كله خالصاً لوجهه الكريم، فانه لانتوكل الا عليه ولانستعين الا اياه ولا نستمد المعونة والتوفيق الا منه، انه ولي التوفيق وانه قريب مجيب.

اما المستقبل، فليس من الميسور لكاتب حقير مثل كاتب هذه السطور ان يتنبأ بشيء بنوع من الثقة والحزم، الا أننا نؤمن بشيء ونعتقده وندين به، وهو ان الاسلام دين عالمي شامل، كافل لحاجات البشر جميعاً ومحيط بنواحي الحياة البشرية طرا، لايشذ عن حكمه شيء

ولايند عن دائرة نفوذه أمر ، وأنه الدواء الناجع والبلسم الشافي الوحيد لآلام العالم وأمراضه الفتاكة التي أصيب بها وابتلي بشدائدها ، واننا مسؤولون أمام الله يوم القيامة ، ان لم نقم بأداء شهادة الحق قولاً وعملا ولم تتم حجة الله على خلقه بكمال هـذا الدين وكونه علاجاً ناجعاً ودواء شافياً لأدواء العالم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية جميعاً ! نحن نؤمن بذلك ونعتقده وندين به ، وهذه العقيدة وهذا الايمان وتلك الثقة بمهمة الاسلام ورسالته الخالدة ، هي التي تحدونا على العمل وتستحثنا على الجهاد والمضي في الكفاح لاقامة نظام الاسلام وتنفيذ الشريعة الاسـلامية في هذا الجزء من العالم الاسلامي ، وذلك لنتمكن من أداء شـهادة الحق ونبريء ذمتنا أمام الله ورسوله . وفي الوقت نفسه نعرف ونعلم علم اليقين ان هذا الصراع بين دعـاة الحق والمستولين على مقاليد الحكم ومناصب السلطة ، ليس من طبيعته ان يبقى منحصراً في هذا الجزء من بلاد المسلمين بل الذي نلاحظه وتقرع أسماعنا أخباره ان هذه المنازعة بين الحق والباطل بدأت تمتد وتتسع وتنتشر في مختلف أقطـار العالم الاسلامي . لأن النكبات المتتابعة المتواصلة ونتـائج الحركات القومية السيئة وعواقب النعرات الوطنية والنسلية الوخيمة وسيول الالحاد والفجور المتدفقة من روسيا وأمريكا ، جعلت المسلمين ورجال الاصلاح والفكر منهم على حذر وبدأت تنبههم الى مافي هذه التيارات الجارفة من أخطار شديدة ومافي تلك الدعوات الباطلة من أضرار فادحة . هذا في جانب ، وبجانب آخر نرى أتباع الغرب وأتباعهم وتلاميذهم « الأوفيـاء » في كل قطر من

أقطار المسلمين لايزالون ثابتين على ايمانهم بنظريات الغرب البـــاطلة ، مستمسكين بحبال أفكارهم ومناهجهم وأوضاعهم الفاسدة المناقضة لروح الاسلام ، المعارضة لتعاليم الشريعة الاسلامية ، القاضية على البقية الباقية من أخلاق المسلمين وعاداتهم الأصلية الزكية التي ورثوها من أسلافهم والصالحين من آبائهم وأجدادهم . ومن ههنا المصارمة والمقاومة بين قوى الحق والباطل بين من يريدون ان يرجعوا بأبناء الاسلام الى حظيرة الدين المبين ويعودوا بهم الى كنف الشريعة الغراء ويجدوا ويجتهدوا في اقامة نظام الاسلام وتوطيد دعائم الملك والحكم على قواعده الثابتة وبين من يحبون ان يبقوا على ماهم عليه من تقليد الافرنج واتباع طواغيهم وتتبع معالمهم وآثارهم في الضلالة والطغيان . والذين يظهرون منهم التدين والرضا بمبادئ الاسلام وتعاليمه ، انما يحصرونها في دائرة ضيقة من العقائد والعبادات ونبذة من مسائل الحياة الاجتماعية التي تسمى بقوانين الأحوال الشخصية .

اما نظم الحكم ومناهج الاقتصاد وأوضاع السياسة وقوانين السلم والحرب . وأيهم في شأنها ان قوانين الاسلام الخالدة لاتصلح لهذا العصر عصر « النور » والحضارة (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذباً) . فالصراع والمكافحة بين الحق والباطل ، بين دعاة الحق وأذناب الغرب ، بين المؤمنين برسالة الاسلام الخالدة والمؤمنين بطواغيت الغرب ، الصراع بين هاتيك القوتين (Porces) حق واقع لامحالة . فلا يهولن أحداً ولا يفزعنه هذا النزاع والمصارمة بين فريقين من ابناء الاسلام ، كما يظهو لأول وهلة . وانما هو نزاع بين مبدأين متعارضين ، وصراع بين منهاجين متناقضين ولا مندوحة عن ذلك ، فلا يهولن ذلك أحداً ، لأنه شيء طبيعي لابد من اجتيازه واحتماله اذا أردنا اقامة نظام الاسلام وتنفيذ الشريعة الالهية في الارض .

اما المستقبل ، مستقبل الدعوة ومستقبل هذا الكفاح والنزاع في بلادنا ، فليس من الميسور التنبؤ بشيء في بابهما ، كما أسلفت ، الا ان دعاة الحق الذين عاهدوا الله على ذلك ، عازمون على خطتهم ، مستميتون في سبيل اقامة نظام الاسلام . فهم بين أمرين أما ان يكرمهم الله بالنجاح والظفر ، فينعموا بسعادتي الدارين ، واما ان يفنوا دونها ، فيتموا حجة الله على خلقه ويبرؤوا ذمتهم عند الله ورسوله . والله يتولى من يجاهد في سبيله وينصر دينه . ولينصرن الله من ينصره . انه قوي عزيز .

هنا يقف القلم عن الكتابة . وهذا آخر ما أردت تسويده في تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند . عسى الله ان يجعله خالصاً لوجهه الكريم وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

وذلك في خامس شهر ربيع الآخر سنة ١٣٧٠ الهجرية ، على صاحبها الف تحية وسلام .



الفهرس

(رمضان ١٣٦٦هـ / أغسطس ١٩٤٧م)